كَشْفُ الغِطَاءِ

عَن أهْلِ البَلاءِ

فضيلة الأستاذ الشيخ

صَالِح أحْمد الشّافعي محمّد محمّد أبو خليل الكبيرْ

من

فتوحات العارفين

فضيلة الأستاذ الشيخ

صَالِح أَحْمد الشّافعي محمّد محمّد أبو خليل الكبيرْ

بسم الله الرحمن الرحيم. الحمد لله الذي يمنح عطاءه لمن أسلم قياده إليه، ويهب رضاءه لمن قصده وتوكل عليه ، ويجتذب إلى ساحة قربه من أناب ورجع إليه.

سبحانه أقام في كل عصر كوكبة من أحبابه يدلُّون الخلائق عليه، فهم أولياؤه وعارفوه ، يدعون إليه على بصيرة الإيمان ، ويحررون العقول من رِبْقة الشيطان ، فهم الهداة المهتدون ، والورثة المحمديون من أحبهم شرب من راحهم فاستراح ، وعلى باب ربه أقام وأناخ . فمن شرب من رحيق وداده اهتدى ، ولم يعرفه الردى ، فقد نصره الله على سائر العدا ، ومن حاد عن طريقهم ضل واعتدى ، ومن يضلل الله فلن تجد له وليا مرشدا.

وصلاة الله تعالى وسلامه على سيدنا محمد الذي تحلى بكمال العبودية وانتسب بها شرفا لمولاه ، فكان إمام أهل الحب والشوق ، ومعراج الوصول ، وغذاء الأرواح ، وشبكة الأنوار التي تنير الأشباح ، وعلى آله الأجلاء ، وأصحابه مصابيح الاقتداء ، وجميع العترة الذين هم على الهدى أدلاء.

<u>وبعد:</u>

فقد رغب كثير من أبنائنا وإخواننا في السلوك إلى الله عز وجل أن نخط بمداد الحب والمدد سِفْرًا يكون زادًا لهم وعونا على تفهم الطريق إلى الله من الناحية الفكرية والتنظيرية بعد أن أكرمهم الله بفهمه مذاقا نورانيا في قلوبهم ، بما أكرمنا الله به من العطاء المحمدي والنور السرمدي ، وقد كنا نؤثر كتمان الأسرار المذاقية دون كتابة للسطور ، والاكتفاء بنقشها في الصدور ، لولا أننا استخرنا الله الوهاب لكل ذلك ، في تسجيل مايعن لطالب الوصل من أحوال ومقامات ومشاهد وأسرار وأنوار ، ليَحْيا من اهتدى عن بينة وليكون برهانا صادقا يُقْنع الحيارى التائهين في بيداء المعاصي والغفلات.

والله أسأل أن يجعل عملنا خالصا لوجهه الكريم، وأن يفيد الأمة الإسلامية بأنوار خير البرية صلى الله عليه وآله وسلم، حتى تتوج بالعزة والتمكين ، وتبلغ مقام الإحسان وشفاعة النبي العدنان صلى الله عليه وسلم في كل وقت وآن . آمين.

معرفة الله هي الحكمة الأساسية من وجودنا:

إن أول شيء واجب على المكلف : المعرفة. والمعرفة تعني الحب والشوق لمن أهداك نعمة الوجود . فمعرفة الله تعالى فريضة من أقدس الفرائض على كل من أفاض عليه ربه نعمة الوجود.

فالله تعالى قد خلقنا في هذا الوجود لنعرفه ونحبه ونقدسه ونشكره على آلائه، ونرضى مستبشرين بقضائه الذي هو في حقيقته: رسالة من الحبيب لحبيبه، وكيف لا؟! ونحن صنعة الله تعالى ، الذي أحبنا محبة الصانع لصنعته ، ودليل ذلك الحديث القدسي : " ولأنا أرأف بعبدي من الوالدة على ولدها".

وفي القرآن الكريم يقول الله سبحانه : **{ ومَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ(56) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (57) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (58) }** [الذاريات] . قال حبر الأمَة سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : معنى (**إلا ليعبدون**) : أي إلا ليعرفون.

إذ أن أول شيء قد فرضه الله سبحانه على عباده هو : معرفة الله.

وقد حدث ذلك من يوم أن كنا في عالم الذر ، حين قال الله تعالى: **{.... أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى......(172)}** [الأعراف]. وهذه المعرفة المفروضة ليست لحاجة المولى إليها فهو الغني الحميد، فليس محتاجا لخلقه ، فقد خلقهم من العدم ، ولذلك فهو غني عنهم وعن عبادتهم ،ولكن عباده في أَمَسِّ الحاجة إليه دائما.

قال الله تعالى: **{ يَا أَيُّهَا النَّاس أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ (15) }** [فاطر].
ولكي ينعم عليهم بأجل نعمة فقد تعبدهم بالمعرفة المذاقية القلبية، إذ هي أهم من المعرفة العلمية العقلية ، حيث تَعَبَّدهم بالذكر وسائر العبادات وفضائل الأعمال ، على أساس من توحيده سبحانه ، والإيمان برسله وباليوم الآخر ، وذلك ليجزيهم أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله.

الفرق بين المعرفة العلمية والمذاقية:

لا شك أن الفرق بينهما كالفرق بين الأرض والسماء ، فقد قال الإمام الغزالي رحمه الله : فرق بين أن يعلم الإنسان حد الصحة والشبع ، وبين أن يكون صحيحا وشبعان.

ولقد قال علماء السلوك :" من ذاق عرف ومن لم يذق لم يعرف".

كما قال أحد العارفين بالله سبحانه :" نحن في لذة لو علم بها الملوك وأبناء الملوك لجالدونا عليها بالسيوف " فلا شك أنها لذة الأنس بجمال الله وجلاله التي هي المعرفة المذاقية ، والتي عناها القرآن الكريم بقوله تعالى :

{ فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ...(125)} [الأنعام] فقال الصحابة : يا رسول الله ما معنى الشرح ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : " هو نور يقذفه الله تعالى في القلب".

ولقد كانت الرسالة المحمدية مسك ختام الرسالات السماوية ، ولذا فقد جعل الله سبحانه الاقتداء بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرا ملزما مفروضا يحتمه مقصد الهداية إلى الله ، قال سبحانه : **{.... وَإِن تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا ...(54) }** [النور] وقد قال عز وجل : **{ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا (21) }** [الأحزاب].

ألا وإن هذا التأسي والاقتداء يقتضي أن يتأسى المؤمن به صلى الله عليه وسلم في الأقوال والأفعال والأحوال.

فكان اعتناء السادة الصوفية بجانب الأحوال، لأنها الطريقة الوحيدة لإصلاح البواطن، فالظاهر فرع عن الباطن وبصلاح حال الباطن يصلح الظاهر وليس العكس، وذلك لكي تكون بواطن المؤمنين متفقة مع ظواهرهم ، فلا يجوز للمسلم أن يعتني بالظواهر ، ويترك البواطن ، فقد ذم الله الكافرين إذ قال الله تعالى : **{... لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا ... (179) }** [الأعراف].

فالمولى سبحانه يعلمنا ضرورة الاهتمام بالتربية القلبية ، حيث يقول سبحانه :**{ ...وَاتَّقُونِ يَا أُوْلِي الأَلْبَابِ (197) }** [البقرة] ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم :" **ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلَح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب".**

موقع التصوف من الدين:

للدين مقامات ثلاثة :

1- الإيمان ، 2- الإسلام ، 3- الإحسان.

وبذلك يجب على كل مسلم ألا يخاطر بدينه، وألا يقامر على عقيدته تحت أي مسمى أو ادعاء ، لأنه حينما ينكر التصوف الإسلامي فإنما ينكر مقاما من أهم مقامات الدين ألا وهو مقام الإحسان ، فهذا أمر من البداهة بمكان . لأن الإحسان هو لب الدين وجوهره، فإنه كما ثبت في الحديث الصحيح :" أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك".

وهذا ما ينشده مَن سُمُّوا بالصوفية ، أو العارفين بالله ، أو أولياء الله . أو المتصلين بالله ، أو المتحققين بنور الإيمان ، أو من يأخذون الدين بقوة العزائم وليس بالرخص والتأويلات ، أو أرباب الأحوال والمقامات والإلهامات والمكاشفات ، أو أهل الزهد والورع ، أو أحباب الله ، أو الصديقين. أو رجال الله ، الذين عناهم القرآن بقوله سبحانه : **{ رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللهِ....(37)}**[النور]. أو أهل المواجيد والأذواق، أو أهل التحقيق.

فالتصوف في حقيقته ليس شيئا دخيلا على الدين بل هو جوهره وسره وثمرته . فرجاله هم العلماء بالله، المفردون الله بالعبودية ، الموحدون المخلصون بقوله :" **سبق المفردون ، قالوا وما المفردون يا رسول الله ؟ قال: الذاكرون الله كثيرا والذاكرات ، ألقى الذكر عنهم أوزارهم فوردوا القيامة خفافا ".**

خطورة التهجم على التصوف ورجال الله:

منذ اشتعال الحروب الصليبية وحسمها لصالح المسلمين ، وانكشاف الميادين عن أبطال محاربين للمعتدين ، منحهم الله تعالى القوة الخارقة ، والشجاعة النادرة التي قلبت الموازين ورفعت هامات المسلمين بالنصر المؤزر على كافة دول الغرب الصليبي ثم معارك التتار من أمثال : سيدي أحمد البدوي ، وسيدي إبراهيم الدسوقي وسيدي أبي الحسن الشاذلي وغيرهم من رجال الله ومن هم من آل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم . والحرب الفكرية لم يخمد أوارها حتى الآن . بالتشكيك المزري في هؤلاء الأبطال ، وفي منهجهم الذي وصلوا إلى الله به . ومعاهد الاستشراق التي يقوم عليها يهود قد تخصصوا في الملل والنحل ، لا دأب لهم ولا نشاط إلا بمحاولة بث الكراهية والعداء لأولياء الله المسلمين الكاملين ، ومما يندى له الجبين أن يرفع علم المعاداة لأولياء الله بعض من ينتمون لهذا الدين بدعوى تخليص الدين من الشرك والوثنية والقبورية والرجوع إلى التوحيد الخالص !! . كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا . ولا يرددون إلا زفرات الحقد الدفين لدى أعداء الملة الحنيفية الذين يريدون الحيلولة بين الأمة وبين أهل القدوة الحسنة فيهم لتصير كغثاء السيل فتظل لقمة سائغة لأعدائها.

فإلى كل مسلم ومسلمة في أرجاء المعمورة نُهدي هذا الكتاب المنصف الذي يكشف وجه الحقيقة لكل ذي عينين . ويزيح ضبابا قد تراكم على كثير من العيون تحت مسميات إسلامية ما أنزل الله بها من سلطان . فَضْرِبَ الدينُ باسم الدين على يد المستشرقين والمستغربين والسذج المحرومين من محبة الله وتوفيقه وما ظلمهم الله ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

فالشريعة أيها الأخ المؤمن : أن تعبده ، والطريقة: أن تقصده . والحقيقة : أن تشهده .

فالحقيقة التي يمنحها الله تعالى لأوليائه : هي التي تعطي للشريعة معناها السامي العميق ، لأن الشريعة : أمر بالتزام العبودية لله وحده ، والحقيقة : هي مشاهدة الربوبية أي مشاهدة عظمة الله تعالى في كونه ، وتجلي أسرار أسماء الله تعالى وصفاته على قلب العارف فيغدو مشاهدًا لآلاء الله ومراقبا لجنابة الأقداس ، ولذلك يقول أبو علي الدقاق رضي الله عنه : **(إياك نعبد)** : حفظ الشريعة ، و (**إياك نستعين**) : إقرار بالحقيقة . فالشريعة حقيقة من حيث إنها وجبت

بأمره تعالى، والحقيقة شريعة من حيث إن المعارف به سبحانه والعطاءات اللدنية قد وجبت بأمره أيضا.

فمن وقف على أحكام الشريعة(كتابا وسنة) أدى العبادات على الوجه الصحيح ، ومن أكثر من ذكر الله تعالى مستشعرا عظمته بعد أن فعل المأمورات وترك المحظورات فقد تصوف ، فصفا قلبه من الكدر، وامتلأ من الفكر ، فذاق محبة ربه فأنس به **{... وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ...(165)}** [البقرة]

اللهم ارزقنا حبك وحب من يحبك ، وحب عمل يوصل إلى حبك آمين.

حاجة الناس إلى التصوف

التصوف:

علم تزكية الأخلاق وتطهير القلوب مما يشوبها ويدنسها ، وتحلية الأسرار بوصف التوحيد الكامل.

وقد أمرنا الله تعالى بالتقوى ، وهي لا تخرج عن أمرين : أعمال القلوب ، وأعمال الجوارح، ولن يستقيم ظاهر العبد إلا باستقامة باطنه ، كما قال صلى الله عليه وسلم :" والله لا يستقيم إيمان عبد حتى يستقيم قلبه".

وإن للباطن تموجات كتموجات البحر لن ينجو منها إلا عبد أخذته جذبة العناية إلى ساحل السلامة من أول أمره ، أو أبصر علة باطنه وقدر خطرها فأتى الأمر من بابه وتوجه إلى ربه تَوَجُّهَ الصادقين وقال **:{ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ (99)}** [الصافات] فإما أن ينشله الله من ورطته بلا واسطة ، وإما أن يدله على بعض عباده من أرباب الأحوال الشريفة ، والمقامات المنيفة، الذين يداوون أمراض الأرواح بنظرة أو كلمة ، ويعالجون ظلمة القلب بشعاع ، فهؤلاء وإن قال الناس قد مضى عهدهم ، لكن والله لن يخلو الوقت منهم أبدا حتى يأتي أمر الله ، كما تشهد بذلك السنن الصحيحة.

وقد قالوا : جِدَّ صادقا تجد مرشدا ، وإن أمر هؤلاء لا يغني عنه حفظ علوم الأولين والآخرين ، وكيف يغني المريض حفظ اسم الدواء عن الطبيب الذي يعرف مقداره وتركيبه وما يماثله عند فقده؟ هذا لا يصح عقلا ، بل كيف يكون حال العبد في الصلاة يقف بين يدي الله وقلبه مصروف عن ربه مقبلا على الدنيا ، والحق ينظر إلى سره فيراه مصروفا ، وإلى نفسه فيراها خارجة عن طاعته، وإلى هواه فيراه إلى غيره ، وفي الحديث:" إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم".

فكيف حال هذا مع الله وهو بين يديه بحيث يراه ويسمعه؟

فهل تشك أنه لم يصل إلى السلامة ، ولم يسلك سبيل الاستقامة ؟! ، إني أعتقد أنه عبد ممقوت ، ثم انظر إلى رجل جازع على مصابه ، فار من قضاء الله وقدره ، أو ضعيف اليقين لا يذعن بوعد ربه ، فاقد التوكل ، عظيم الحرص في الدنيا ، وقل لي كم لابسَ هذا من المخالفات؟.، وكم قارف من السيئات ، ثم انظر إلى آخر لا تنظر عينه إلى الموت ، أماتت الغفلة شعوره الديني ، وأعدمت إحساسه الوجداني ، أقبل على الجمع والادخار ، والاستئثار والاستكثار ، لا يهز قلبه تذكار دار القرار ، ولا يزعجه خوف الواحد القهار ، وانظر ما قدر إيمان هذا وإسلامه؟.

وتأمل حال عبد يتمنى زوال نعم إخوانه حسدا ويكره خيرهم ، وهذه صفة الأكثرين من أهل اليوم، وانظر تطاحنهم على الدنيويات ، وتفانيهم على الرياسات ، واستهتارهم في سبيل الشهوات، بوصف أخرجهم عن مناهج الهدى ، وأوردهم موارد الردى ، حتى طرحوا الدين ظهريا ، وطبق حالهم على ما تعْلم من دينك واحكم بعد بما تشاء!!.

انظر إلى هؤلاء جميعا، وتأمل أحوالهم وما ران على قلوبهم من ران الغفلة تَرَى أنهم أحوج إلى الدواء من أرباب الأمراض الظاهرة القاتلة ، إذ أنَّ علة الجسم القاتلة بمجرد الموت يسلم العبد من خطرها ، وعلة الدين لا يسلم منها أبدا وهي بعد الموت شره الذي إليه يصير ، وندامته التي لا محيص عنها ولا مفر منها ، أفيقضي العقل بالسكوت على هؤلاء وترك علاج قلوبهم

ومداواة عللهم وأمراضهم ؟ أم يجب عليهم شرعا وعقلا على الفورية البحث عن الدواء الحاسم ولو خرجوا عما ملكت أيمانهم؟

ولقد كان السابقون بمجرد العثور على الطبيب الديني الحاذق يخرجون لـه من إرادتهم مستسلمين لإرادته واختياره ، فتركوا الوجود ينقل إلى القرون المتأخرة جميل آثارهم وسيرهم ، وعاطر الثناء عليهم.

أجل: إن سلوك طريق القوم حاجة ملزمة لمن أراد النجاة في الآخرة، ولعلك عرفت مما ذكر آنفا شيئا من مقاصدها المقصورة على دواء القلوب وإراحتها من خطورة أمراضها الجالبة لأسباب العناء والشقاء في الحياة وبعد الممات ، والله تعالى يقول:**{ يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلاَ بَنُونَ(88) إلاَّ مَنْ أَتَى اللهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ (89) }** [الشعراء] أي من الأمراض الروحانية ، كالجهل بالله ، والأخلاق الفاسدة، وأي مطلوب أعظم وآكد فرضية عند الله تعالى من عمل القلب الذي يجب تصحيحه وتخليصه مما يؤخره عن القبول عند الله جل وعلا؟

إذاً من الفروض الأولية : إصلاح القلب واستعمال الدواء المريح لعلته ومرضه ، حتى يهتدي العبد إلى إخلاص النية التي لا يقبل عمل العبد إلا بها ، وإفراد الوجه لله وبالله ليكون عبدا لربه بالمعنى المراد منه ، وعلى وفق ما نطق به الكتاب والسنة ، وحتى يعرف معنى **{ إنَّمَا الْمُؤمِنونَ إخْوَةٌ...(10) }** [الحجرات] فيجب على المسلم أن يحب كل مؤمن ، لا فرق بين عربي وعجمي، ويتمنى للمؤمنين كل خير ، ويكره لهم كل شر ، ويعينهم على ما يريدون ويطلبون ، واضعا يده في يد كل من دعاه منهم إلى مقصده وما يريد ، فكيف يكون الإسلام وكيف يبلغ من القوة والمنعة لو أن المسلمين اتفقت كلمتهم ، واتحدت وجهتهم؟.

إن الإسلام إذ ذاك يكون الدين السائد ، والمسلمون هم السادة ، وتالله لن يجد عبد هذا من نفسه إلا بعد إعطائها الدواء ، ومجاهدتها بردها عن غيها وتحليتها بصفات المتقين المؤمنين الكاملين . وإني لأرى دعاتنا اليوم يدعوننا بلسان الكتاب والسنة دعوة علمية قولية خالية من العلاج والتقويم، ولو أنهم – والله – دعوا إلى الكتاب والسنة بطريقة الرياضة والتهذيب ، وبالتلقي عن أرباب المعارف الصادقين ، لأحيوا العصور الأولى وأعادوا للإسلام مجده ،

وللمؤمنين عزهم ، وإن أردت دليلا على ما ذكر لك فانظر إلى أبي ذر الغفاري رضي الله عنه حين قال لبلال : يا أسود، فلما شكاه للنبي صلى الله عليه وسلم وضع خده على الأرض وحلف ألا يرفعه حتى يطأه بلال بقدمه ، وإلى أبي هريرة حيث استخلفه صلى الله عليه وسلم على المدينة في تبوك، فخاف العجب فجمع حزمة من الحطب وحملها على ظهره وسار في الطريق بين الناس وهو يقول : طرقوا للأمير . وإلى سيدنا عمر حيث انتهره أبي بن كعب لما توعد أبا موسى الأشعري بالضرب إن لم يثبت حديث الاستئذان فقال له أبي : يا ابن الخطاب لا تكن عذابا على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو يتصاغر لأبي ويقول له : ما أردت إلا التثبت.

أو إلى حاتم الأصم حين مات عدوه بسقوط السقف عليه فقال : الحمد لله ، فقيل له : إنك نهيتنا عن الشماتة بالعدو ، فمالك حمدت الله عند مصابه، فقال: حمدت الله لما وجدت قلبي غير شامت . وإلى سيدي أحمد الرفاعي حيث كان له عدو يمر عليه يوميا فيشتمه ويبالغ في سبه ، وهو لا يزداد إلا حلما عليه وإغضاء عنه حتى تاب الله على ذلك الرجل وبايع الشيخ على الطريق.

وغير هؤلاء كثير ، ثم طبق ما نحن عليه اليوم من التقاطع والتدابر ، وتمنى نزول الشر بإخواننا في الدين ، حتى أضعف الإسلام يد التفرقة وذهبت عزته بل لعَمَى القلوب ومرض الأرواح ربما صادق المسلم الكافر وعادى المسلم ، وهو الموجود اليوم حتى صارت ميولهم واتجاهاتهم ومعاملاتهم كلها للكافرين لا المسلمين، ولو أن أمثال هؤلاء صاحبوا أهل الله ، وذاقوا حلاوة الإيمان ، وعرفوا معنى الأخوة لآثروا إخوانهم بأرواحهم وأموالهم ، فإن سلوك طريق المقربين يذيق العبد حلاوة الإيمان ، ويعرفه قدر الدين وخطر المخالفة ، ومعنى عبوديته، ويكشف له عن مخازي نفسه الأمارة وعيوبها ، فيفرض على نفسه مخالفتها ، ويسعى في دوائها .

إذاً فالطريق إلى الله حاجة ضرورية لعزة الإسلام والمسلمين **{ وَعَلَى اللهِ قَصْدُ السَّبِيلِ وَمِنْهَا جَائِرٌ وَلَوْ شَاءَ لَهَدَاكُمْ أَجْمَعِينَ(9)}** [النحل].

المؤلف

التصوف (مَعْنًى ونَشْأَةً وحُكْمًا)

1- معنى التصوف

الواقع أن " **التصوف**" لفظة لها دلالة لغوية في المعاجم العربية ومفرداتها، لأن مادة هذه الكلمة – ص و ف – لها وجود فعلي في لغتنا العربية ، وذلك إن دل فإنما يدل على أن هذه الكلمة " **عربية الأصل** " وليست من الكلمات الوافدة على هذه اللغة.

مهما كانت موجودة في لغات أخرى أو أماكن واستخدامات متباينة ، لأن الاشتراك اللفظي لا يعني احتكارًا للفظة " **ما** " فإن الألفاظ قوالب لمعانٍ مختلفة ، فالمهم مراعاة المدلول والمضمون والمعنى ، وأن يكون وفق سمات خاصة وأنماط مستقلة . فكلمة " **دين** " مثلا لفظة مشتركة بين جميع الديانات ، فلا يجوز لنا أن نتركها لأنها تطلق على الدين اليهودي أو المسيحي أو خلاف ذلك، فالله تعالى يقول : **{ شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّين ولا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ... (13) }** [الشورى] ومعلوم ضرورة: **{ إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللهِ الإِسْلامُ ... (19) }**[آل عمران] . **{ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامُ دِينا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ ...(85)}**[آل عمران] مع أن الديانات جميعها قد اشتركت في الأصول العقدية ، واختلفت في تشريعات الفروع التي تتناسب مع كل جيل وظروفه وطبيعة تفكيره.

ونظراً لاتفاق العلماء على ضرورة وجود علاقة بين التعريف اللغوي والاصطلاحي فإن التعريفات الاصطلاحية للتصوف يجب أن تنشأ بينها تلك العلاقة الحميمة الواضحة ، أما إذا جاءت التعريفات الاصطلاحية بعيدة كل البعد عن المعاني اللغوية فهذا يعني التلفيق وعدم الموضوعية والتجني على العلم وأهله والتصوف ورجاله والإسلام وملته.

تجني المستشرقين ومن تبعهم من ادعياء الإسلام:

يحاول المستشرقون – وأعظمهم من اليهود- إرجاع كلمة " **تصوف**" وحياته الروحية في الإسلام إلى مصدر أجنبي بحت " هندي أو يوناني أو نصراني أو زرادشتي فارسي أو يهودي .. .إلخ".

وبعض المستشرقين يحاول أن يُخَدِّرَ الفكر ليضمن الصيد في الماء العكر فيظهرون بمظهر الاعتدال ، فيقولون : إن العامل الأول في وجود التصوف : إنما كان القرآن وحياة الرسول صلى الله عليه وسلم ومنهما استمد التصوف بذوره الأولى ، ويقولون : ثم كانت الثقافة الأجنبية بعد ذلك من : هندية أو يونانية ، أو فارسية ، أو مسيحية – هي التي أثَّرت فيه وجعلته يتطور ، وهي التي أمدته بالآراء بما زعموا أنه بعيد عن روح الإسلام وطبيعته ، وكأنهم في حزن عميق لبعده عن روح الإسلام ، ولكنه السم المدسوس في العسل ، لكي يقضوا على التصوف الذي دَوَّخهم رجاله في حروب سابقة ، والذي يربي النفوس على الإيمان الحق ، ويفتح العقول على الاهتمام بالصالح العام وما فيه نفع المسلمين ، انطلاقا من حديث شريف يضعه الصوفية أمامهم :" **من سعى في حاجة أخيه قضيت على يديه أم لم تقض كان كمن اعتكف في مسجدي هذا سنتين".**

ولذلك فهم يشجعون أدعياء الدعوة ومحتكري الإسلام ادعاء لذواتهم والمتباكين على السلطة وعبدة الأغراض الخاصة والحقدة على ذوي الجاه والمال، لأنهم يعرفونهم سلفا أنهم عباد الدنيا والمصالح الذاتية المبرقعة بالمظهر الإسلامي ، والذين لا همَّ لهم إلا القيل والقال وتفسيق المسلمين ورميهم بالزندقة وخصوصا الصفوة من أهل القدوة الحسنة!!.

وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حينما قال :" سيكون في آخر الزمان قوم حُدَّاثُ الأسنان سفهاء الأحلام يقرأون القرآن لا يرتقي حناجرهم مفتونون مفتونة قلوبهم".

المعنى اللغوى للتصوف :

لقد تعددت الآراء لدى مؤرخي الفكر الإسلامي حول حقيقة المصدر الذي اشتقت منه كلمة "**صوفية ، وتصوف**".

أ- أخذ الشيء قهرا: من ذلك قول العرب : أخذته قهرا ،إذا [1] تبعته ولحقته فأخذت برقبته ، أو لم آخذ بها ولكن جذبته من صوفه ، أو شعره المتدلي في قفاه ، فالصوفي يمسك بدينه، حيث يمسك برقبة نفسه ، ويأخذها قهرا إلى الله ويلزمها ذلك حتى تُمرَّن ، وتصبح العبادة لها عادة محبوبة مألوفة [2] .

ب- العطاء بلا مقابل : ومنه قول العربي: أعطاه بصوف رقبته مجانا بلا ثمن.

جـ - الانقطاع للعبادة وخدمة بيت الله.

د – العدل عن الشيء الضار : ومن ذلك قولهم : صاف السهم عن الهدف: عدل عنه ، وأصاف الله عني شره : إذا أماله ، وصاف عن الشر إذا عدل عنه.

هـ - الكثافة والكثرة : من ذلك قولهم: صاف الكبش صوفا : كثر صوفه فهو أصوف وهي صوفاء.

إذًا فالتصوف على ذلك هو : قهر الرغبات ، والميل عن الشهوات ، والإخلاص لله في العقيدة والعبادة والمعاملات ، مع التزام الطاعة كافة الأوقات ، انقطاعا عن كل ما سواه ، مع الأخذ بإصلاح ما أمر الله [3] .

وبناء على ما تقدم فإنه لا يستطيع مؤلف أو باحث في تاريخ الصوفية أن يتمكن من الحصول على تعريف جامع مانع للتصوف منفصل عن أصل الاشتقاق ، فالمعنيان متداخلان.

الاستخدام التاريخي:

---

(1) القاموس المحيط ، ج 3 ص 159.

(2) مقدمة الفتوحات الإلهية لابن عجيبة.

(3) انظر في ذلك كتاب أوراق مطوية في التصوف والصوفية ، د . محمد حسين الغزالي، ج1ص34،31.

تطلع علينا المصادر بأن كلمة " صوفي " قد أطلق لقبا لأول مرة في التاريخ الإسلامي مع بدء القرن الثاني للهجرة على : " أبي هاشم الزاهد البغدادي" وعلى العالم الكيميائي الشهير " جابر بن حيان" الذي أعلن أنه تصوف على يد أستاذه الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه ، وهو أستاذه الأول في التصوف وفي الكيمياء، حيث كان الإمام قد اتخذ في بيته " معملا " للكيمياء.

فقد اعترف الغرب بالتلميذ الذي خرج على العالم بأصول المادة التي طورت العالم كله حتى لقبوه بأبي الكيمياء ، ولم يعترفوا بشيخه الذي تعهده روحا وعلما ، وإنما لصقوا به فكرة التشيع، وجعلوه إماما لطائفة لم تره ولم يرها حتى يفرقوا أمة الإسلام!!.

معان أخرى في التصوف [1] :

1- أنه مأخوذ من الصفاء ، فقد قال الإمام سهل التستري ، الصوفي : من صفا من الكدر ، وامتلأ من الفكر وانقطع إلى الله دون البشر ، واستوى عنده المال والمدر.

2- أنه مأخوذ من الصوفة، لأنه مع الله كالصوفة المطروحة لا تدبير له.

3- هو: أن يميتك الحق عنك ويحييك به أو هو : ذكر مع اجتماع ووجد مع استماع وعمل مع اتباع ، أو هو : أن تكون مع الله بلا علاقة " للإمام الجنيد ".

4- التصوف : خُلُقٌ، فمن زاد عليك في الخلق فقد زاد عليك في الصفاء " للكتاني".

---

(1) من كتاب طريق الله الجزء الأول للعارف بالله تعالى سيدي الشيخ أحمد الشافعي أبو خليل رضي الله عنه.

5- التصوف : هو الدخول في كل خلق سنيٍّ والخروج من كل خلــق دنـي " أبـو محمـد الحريري ".

6- التصوف : أخلاق كريمة ظهرت في زمان كريم من رجل مع قوم كرام " الإمـام محمـد بن علي القصاب".

7- التصوف : صفوة القرب بعد كدورة البعد." أبو علي الروزباري ".

8- الصوفي : منقطع عن الخلق متصل بـالحق لقولـه تعـالى : **{ وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِـي (41)}** [طه] أي قطعة عن كل غير ثم قال له : لن تراني " الإمام الشبلي"

9- صوفي : كلمة مركبة من أربعة أحرف ، صـاد – واو – فـاء – يـاء ، كل حـرف يحمل صفة. فالصاد : صبره ، وصدقه ، وصفاؤه .

والواو : وجده ووده ، ووفاؤه.

والفاء : فقده ، وفقره ، وفناؤه.

والياء النسبة فإذا اكتمل فيه ذلك فقد أضيف إلى حضرة مولاه " سيدي أبي العباس المرسي".

10- **<u>التصوف</u>** : مبني على ثلاث خصال : التمسك بالفقر والافتقار، والتحقق بالبذل والإيثار ، وترك التعرض والاختيار أو هو : استرسال مع الله تعالى على ما يريد "الإمـــــــام أبـي محمد رُوَيْم ".

11-**الصوفية** تدريب النفس على العبودية وردها إلى أحكام الربوبية " الإمام الشاذلي".

12-**التصوف** : مشتق من صوفة القفي للينها فالصوفي هين لين مثلها ، أو أنه من الصفة : إذ إن جملة التصوف هي : الاتصاف بالمحامد وترك الأوصاف المذمومة.

13-**التصوف** : علم منقول من صُفَّة المسجد النبوي الذي كان منزلا لأهل الصُّفة.

نموذج سام لمتصوفي صدر الإسلام:

إن الصوفي الآن تابع لنماذج فريدة في عصر النبي صلى الله عليه وسلم وهم أهل الصفة الذين أثبت الله تعالى فضلهم في القرآن الكريم ، وأمره صلى الله عليه وسلم أن يكون معهم دائما بجسده وروحه ، لأنهم حملة مشاعل الإسلام والذين فرغهم الله تعالى من علائق الدنيا لدينه ، فآثروا الباقية على الفانية ، واختاروا أن يكونوا في كنف الله سبحانه بدل حظوظ الدنيا الفانية، فهم ممن خلقهم الله لإسعاد غيرهم ، وللدعوة إلى دين ربهم على بصيرة الإيمان . وتلك مقتضيات ظروف خاصة لخواص هذه الأمة، وليست دعوة عامة لجميع المسلمين.

ففي القرآن الكريم من سيكونون مع السابقين السابقين ومن سيكون من أهل اليمين ومن سيكون من أهل الشمال. ومن الأمة من سيدخل الجنة بغير حساب، ومنهم من سيرافق الرسول صلى الله عليه وسلم في جنة الفردوس ، ومن الصحابة من اهتز لموته عرش الرحمن ومنهم ومنهم ...إلخ.

وليس من المستبعد من يوجد الآن من أهل الولاية الخاصة ومن لا تفارق عينه مشاهدة الرسول صلى الله عليه وسلم ، ليطِّبب قلوب الأمة بنوره صلى الله عليه وسلم في عصر الظلمات المادية وأن يكون من ذوي الدرجات العليا عند الله.

ظهور هذا الاسم في صدر الإسلام:

لقد ذكر النجيبي أنه سُمِعَ في صدر الإسلام عن السلف " **اسم الصوفي** " ،فقد قال الإمام الحسن البصري رضي الله عنه :" لقيت صوفيا في الطواف فأعطيته شيئا فلم يقبله وقال:{ **مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللهِ بَاقٍ... (96)** } [النحل].

والإمام الحسن البصري هذا من كبار التابعين فقد أدرك كثيرا من الصحابة فهو حجة على استعمال هذا الاسم في زمانه ، والله أعلم.

ومن النماذج الرائعة للصوفية: أهل الصفة الذين أثنى الله عليهم من فوق سبع سموات حتى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :" الحمد لله الذي جعل من أمتي من قال الله فيهم :**{ وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ...(28)}** [الكهف].

ألا وإن هذه الصُّفَّة قد بناها الرسول صلى الله عليه وسلم لفقراء أصحابه، فنزلوا فيها يصلون بالليل ويصومون بالنهار ، ويجاهدون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم " بهذا سُمُوا الصوفية" وحينما كانوا يجتمعون في هذه الصُّفَّة كان عددهم يصل إلى أربعمائة إذا كثروا، فإذا قَلُّوا كانوا ثمانين أو سبعين رجلا، وكانوا يعرفون بِضُيَّافِ الله وبِضُيَّاف الإسلام – ومما لا شك فيه أن أهل الصفة رضي الله عنهم كان لهم في مكة أموال وعبيد وإماء وديار وعقار وأهل وعيال ، فلما هاجروا إلى الله ورسوله خرجوا عن ذلك كله وتركوه لله تعالى ، فانتقلوا إلى المدينة ليس معهم شيء ، فبنى لهم عليه الصلاة والسلام تلك الصُّفَّة.

روى البيهقي في المنذري ، والترمذي في كتاب الزهد : أن مصعب بن عمير رضي الله عنه الذي كان من مشاهير أهل الصفة ومن كبار الصحابة كان يلبس إهاب كبش (أي جلده

) ، فلما رآه عليه الصلاة والسلام على ذلك بكى وقال: " انظروا إلى هذا الذي نَوَّرَّ الله قلبه فقد رأيته بمكة بَيْنَ أبويه يختال في حُلة له قد اشتراها أو اشتريت له بمائتي درهم فمازال به حب الله ورسوله حتى صيراه إلى ما ترون".

فهذه كانت أحوال أهل الصفة خيار هذه الأمة الذين تركوا الدنيا لأهلها، وانقطعوا إلى الله بالكلية حينما احتاج الإسلام إليهم، فلبوا نداءه تاركين الدنيا خلف ظهورهم ، ولم يكن موقفهم هذا بدعا وإنما فقهوه من مقتضيات الشرع الشريف، لأنهم سمعوا كلام ربهم وأحاديث نبيهم سماع وعي وتطبيق في ذم التكالب على الدنيا.

وهذا هو عمر بن الخطاب رضي الله عنه يدخل على الرسول صلى الله عليه وسلم فيراه نائما على حصير قد أثَّرتْ أعواده في جنبه الشريف ، فبكى عمر رضي الله عنه لما رأى ، وقال: يا رسول الله كسرى وقيصر يفترشون الطنافس والحرير وأنت يؤثر في جنبك الحصير فلو دعوت الله أن يوسع عليك لأجابك!! فقال الرسول صلى الله عليه وسلم :" **يا عمر هؤلاء قد عجلت لهم طيباتهم في حياتهم الدنيا ، ونحن ادخرنا ما لنا عند الله تعالى"** رواه البخاري في صحيحه.

2- نشأة التصوف ومنزلته:

الواقع أن معالم الطريق الصوفي في أصلها ناشئة من الإسلام وتعاليمه ، فلا داعي لإنكار ذلك، لأنه يعد إنكارًا للقرآن الكريم والسنة الثابتة ولأحوال النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته وسلف الأمة.

فلقد اتفق الباحثون على أن التصوف قد نشأ أساسا عن ذلك الزهد والورع والتوكل على الله والثقة فيه سبحانه والخوف منه تعالى ، والرجاء الدائم في رحمته ورضوانه والإيثار والبذل والسخاء من الصدر واليد وغيرها من مقامات التصوف التي اتصف بها النبي صلى

الله عليه وسلم ، والعدد الأكبر من الصحابة والتابعين ، وكانت تلك الأحوال طبيعية الحدوث بفعل

النصوص القرآنية والأحاديث النبوية التى تجتذب المؤمن إلى ساحات العمل للآخرة راجيا رضاء الله وغفرانه .

فقد قال الله سبحانه : **{ مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الآخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ (20)}** [الشورى].

وفي معرض التزود للآخرة والسعي إلى مغفرة الله ورضوانه وعدم تعلق القلب بدار الفناء ومحاولة صرف النفس عن اللهو بالمظاهر الكاذبة والمفاخرة بالعرض الفاني : نزل قول الله سبحانه: **{ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِّنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُنْيَا إلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ (20) }** [الحديد].

وإذا استعرضنا آيات هذا الباب لألفيناها كثيرة جدا يضيق المقام بحصرها ، ففي مقام التوكل نكتفي بقوله سبحانه : **{... وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ فَهُوَ حَسْبُهُ...(3) }** [الطلاق] . وقوله سبحانه:**{ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللهِ ...(159)}** [آل عمران].

وفي مقام الخوف والرجاء نكتفي بقوله جل شأنه : **{ تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَهُمْ يُنْفِقُونَ(16)}**[السجدة].

وقوله جل شأنه : **{ ولاَ تُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا وَادْعُوهُ خَوفًا وَطَمَعًا ...(56) }** [الأعراف].

وفي مقام العبادة والتهجد يقول الله سبحانه :**{ وَمِنَ اللَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِ نَافِلَةً لَّكَ عَسَى أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا (79) }** [الإسراء] ، وقوله :**{ وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجّدًا وَقِيَامًا (64)}** [الفرقان]، وقوله تعالى : **{ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (25) }** [الإنسان].

وفي الذكر يقول الله جل شأنه : **{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللهَ ذِكْرًا كَثِيرًا (41) وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (42) }** [الأحزاب].

وفي موضوع الحب لله تعالى ورسوله وتقديمه على ما سواه وهو أساس التصوف يقول الله سبحانه : **{ قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللهُ بِأَمْرِهِ وَاللهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (24) }** [التوبة].

فهذه ملامح صوفية وهي قُلٌّ من كُثْر ورد في القرآن الكريم.

وإذا أردنا ملامح من السنة فعلينا الرجوع إلى سيرة النبي صلى الله عليه وسلم العطرة حيث تجسدت فيها أسمى أنواع الزهد والتواضع ، فقد اقترن كل منهما بعبادة تصل إلى حد القيام في الليل حتى تتفطر قدماه الشريفتان ، وحينما يسأل عن سبب ذلك مع أن الله تعالى قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر ، فإنه صلى الله عليه وسلم يجيب بمقام من مقامات التصوف فيقول : **" أفلا أكون عبدا شكورا "** فالشكر كما هو معلوم من أبرز مقامات الصوفية.

وقد قال صلى الله عليه وسلم في مقام الزهد **:" ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيما في أيدي الناس يحبك الناس "** رواه ابن ماجه.وفي حديث متفق عليه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث أبا عبيدة بن الجراح رضي الله عنه إلى البحرين ليأتي بجزيتها فقدم بمال من البحرين ، فسمعت الأنصار بقدوم أبي عبيدة فوافوا صلاة الفجر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم انصرفوا فتعرضوا له ، فتبسم حين رآهم ثم قال : **" أظنكم سمعتم أن أبا عبيدة قدم بشيء من البحرين ؟" فقالوا : أجل يا رسول الله . فقال :" أبشروا وأمِّلوا ما يسركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم ولكني أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم ".** رواه البخاري.

فإذا ما أصر بعض الباحثين على أن اسم التصوف لم يظهر في دائرة التنظير والاستخدام التقعيدي قبل النصف الثاني من القرن الثاني للهجرة ، فإنا نقول لهؤلاء : إن ذلك لا يعني أنه

إضافة غير إسلامية وأن منشأه غير إسلامي ، بل إن الإنصاف أن يصنف على أنه ثمرة ذلك الزهد والأحوال والمقامات التي انتشرت بفضل الروح الإسلامية التي تم عرض بعضها بإيجاز موجز يَنُمُّ عن بعض معالمها من القرآن الكريم والسنة النبوية الصحيحة ، وذلك يسلمنا إلى بدهية ماثلة مفادها:

" أن التصوف قد نشأ من داخل الإسلام نفسه منهجا ومفاهيم وحقائق يوجد لها نصوص محكمة غير قابلة للتأويل في القرآن والسنة وأحوال السلف الصالح".

فالتصوف مستمد من الكتاب والسنة وإلهامات الصالحين وفتوحات العارفين.

ولقد اعتصم أهله بالكتاب والسنة ودعوا الناس إلى الاستمساك بهما . وأكبر دليل على ذلك أقوال أئمة التصوف، فقد قال شيخ التصوف الأكبر سيدي محيي الدين بن العربي الذي يقول:"لقد أجمع رجال التصوف جميعا على أنه لا تحليل ولا تحريم بعد شريعة رسول الله صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين وإنما فهم يعطى في القرآن لرجال الله ".

ويقول العارف بالله تعالى أبو حمزة البغدادي الذي كان يتردد على مجلسه الإمام الشافعي والإمام أحمد رضي الله عنهما فيقول :" من علم طريق الحق تعالى سَهُل عليه سلوكه ، ولا دليل على الطريق إلى الله تعالى إلا بمتابعة الرسول صلى الله عليه وسلم في أحواله وأفعاله وأقواله.

وقال شاه الكرماني :" من غض بصره عن المحارم وأمسك نفسه عن الشهوات وعَمَّر باطنه بدوام المراقبة وظاهره باتباع السنة وعَوَّدَ نفسه أكل الحلال لم تخطئ له فراسة".

وقال إمام التصوف أبو القاسم الجنيد رضي الله عنه :

" الطرق كلها مسدودة على الخلق إلا على من اقتفى أثر الرسول صلى الله عليه وسلم".

وقال أبو يزيد البسطامي رضي الله تعالى عنه :

" لو نظرتم إلى رجل أعطي من الكرامات حتى يرتقي في الهواء فلا تغتروا به حتى تجدوه عند الأمر والنهي وحفظ الحدود وأداء الشريعة".

من كل ذلك يتضح لنا : أن الصوفية هم أهل الاعتصام بالكتاب والسنة ، وقد دَعُوا الناس منذ أمد بعيد إلى الاستمساك بهما ، فما كان لهم أن يبتدعوا ولا أن يزيغوا وهم من يطبقون الكتاب والسنة قلبا وقالبا ، نصا وروحا.

موقف الرسول صلى الله عليه وسلم من الصوفية:

من المعلوم أن رموز الصوفية وشيوخهم الأكابر من العترة المحمدية غالبا، فهذا لا يختلف عليه اثنان ، ولذا فقد أشار الرسول صلى الله عليه وسلم على ضرورة متابعتهم والاقتداء بهم ، حيث إنهم الذين يحلون حلال القرآن ويحرمون حرامه ، اقتداء بجدهم المصطفى **صلى الله عليه وسلم** . فإذا كانت السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها حينما سئلت عن أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم ، قالت: " كان خلقه القرآن " أي أن كل سلوكياته صلى الله عليه وسلم كانت قرآنية فكأنه قرآن يتحرك بين الناس.

وعلى هذا درج آل البيت المطهرون والعترة الميامين فقد أمرنا صلى الله عليه وسلم أن نقتدي بهم لأن أخلاقهم قرآنية كأخلاق جدهم عليه الصلاة والسلام ، ففي الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" إني تارك فيكم الثقلين ، كتاب الله وعترتي ، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض" وزاد الإمام أحمد والنسائي والترمذي :" فانظروا كيف تخلفوني فيهما ."

رفض ادعاء أن مؤثرات أجنبية حولت التصوف عن مساره الصحيح:

إنه من الضروري أن نفرق بين المتصوف والصوفي والتصوف.

فالمتصوف: من اتخذ الطريق الصوفي منهجا له وصولا إلى مقام الإحسان ولو لم يصل إليه.

والصوفي: من وصل إلى مقام الإحسان بالفعل ، فأصبح من العارفين بالله . فليس التصوف ثقافة كسبية تتأثر بهذا الاتجاه أو ذاك .

وإنما **التصوف** ذوق ومشاهدة ، إنه أنوار تغشى القلب وتهيم بها الروح ويتراقص لها طربا وجان الصوفي مترنحا.

ولا يصل السالك طريق الله تعالى إلى تلك الحالة إلا بالرياضة والخلوة والمجاهدة والاشتياق بتزكية النفس ، وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله تعالى ... فهذا هو جوهر الشعور الصوفي. وهو أخص خصائص التصوف.

إن التصوف شعور وجداني لا يمكن التعبير عنه، فإن الإنسان يصل فيه " إلى درجات يضيق عنها نطاق الكتابة، فلا يحاول معبر أن يعبر عنها ، إلى اشتمل لفظه على خطأ صريح، لا يمكنه الاحتراز عنه(1).

فالسالك الذي لابسته تلك الحالة – على حد تعبير الإمام الغزالي – لا ينبغي أن يزيد على أن يقول : وكان ما كان مما لست أذكره ...فظن خيرا ولا تسأل عن الخير.

إن السلوك الصوفي ينبع من مؤثراته الداخلية البحتة ، وذلك يعتمد أساسا على الاستعداد الشخصي الفردي الفطري ، فيكفي المسلم الذي يريد أن يسلك هذا الطريق عمليا : كلمة ، أو فكرة ، أو كرامة أو إشارة ، أو حادثة من الأحداث التي قد تغير مسيرة الإنسان ، وتحوله إلى ربه ، فيأخذ فعلا في سيره إلى الله تعالى وشفاؤه النفسي { .. إِنِّي ذَاهِبٌ إِلى رَبِّي سَيَهْدِينِ (99)}[الصافات]

واقعة التجني على التصوف الإسلامي

لقد اتضح لنا مما سبق أن التصوف: مذاق وشعور وجداني داخلي فلا يمكن التعبير عنه وبخاصة ممن لم يسلك طريقه ، وقد قال رجاله:" من ذاق عرف ومن لم يذق لم يعرف".

ولذا فإن كثيرا من مؤرخي الفكر الإسلامي ورواد الفلسفة الإسلامية قد وقعوا في خطأ فادح حينما حكموا على التصوف بأنه حركة فكرية هي إلى الفلسفة أقرب ، فجعلوه نهبا لتغير الأحوال السياسية والاجتماعية والفكرية واعتبروه كرياضة " اليوجا" مثلا أو قضية هروب من واقع أليم إلى الخيال المجنح أو إلى أسهل الحلول بالسلبية عن حركة المجتمع وتموجاته.
فها هو أحد المفكريين الإسلاميين "د. عمر فروخ" في كتاب الفكر العربي يقول:" الصوفية حركة بدأت زهدا وورعا ثم تطورت فأصبحت نظاما شديدا في العبادة، ثم استقرت اتجاها نفسيا وعقليا بعيدا عن مجراها الأول، وعن الإسلام في كثير من أوجهها المتطرفة".
إن هذا الكلام يناقض واقع التصوف الثابت الذي لا ينبثق إلا من مصدرين أساسيين ثابتين ما بقيت الدنيا :" كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم".
فإذا كان التصوف من أهم مقامات الدين وهو " طلب مقام الإحسان"، فإن معنى تغيره وتطرفه: تغير وتطرف الإسلام . فماذا يبقى من الإسلام إذا ضاع روحه وجوهره؟.
إنها دعوة من المستشرقين الحاقدين على الإسلام ورجاله لضربه في الصميم ، ونحن نردد ما يقولونه فقط دون روية أو غيرة على ديننا !!

جناية المستشرقين على التصوف:

إن المستشرق " لويس ماسينيون " يقول في صراحة :" أما دراسة مصادر التصوف ، فإن الشقة بيننا وبين استكمالها مازالت بعيدة" [1].
لأن المستشرقين، ومن نهج نهجهم يحاولون جاهدين أن يعزوا التصوف إلى مصدر معين ، أو إلى مصادر مختلفة يشترك فيها المصدر الإسلامي ، أو لا يشترك!!.

[1] المنقذ من الضلال للغزالي ، تحقيق د . عبد الحليم محمود.

وخلاصة القول عندهم : أن التصوف على رأي بعضهم " مذهب دخيل في الإسلام مأخوذ إما من رهبانية الشام ، وإما من أفلاطونية اليونان الجديدة ، وإما من زرادشتية الفرس ، وإما من فيدا الهنود ".

ومن العجب أن نرى المستشرقين يناقش بعضهم بعضا في هذه القضية التي ليست لهم أصلا، وقد يهدم بعضهم بعضا ، وقد يغير الشخص الواحد منهم رأيه كما حدث للمستشرق :"ثولك" والمستشرق " نيكلسون" وكأنها مناورات ، لنأخذ برأي من يخف ضغطه علينا في القضية ولو كانت تجافي الواقع، إعمالا لنظرية "ارتكاب أخف الضررين " وكأن هذا قدرنا الذي لا محيص عنه ، وذلك ما وقع فيه مؤرخو الفكر الإسلامي من بني جلدتنا ، فلقد اعتبر كثير من مفكرينا أن المستشرق " نيكلسون" مثلا يمثل الجانب المنصف في قضايانا الفكرية ولاسيما التصوف.

فـ " نيكلسون " حينما يتحدث عن التصوف فإنه يرجع نشأته إلى عوامل خارجة عن الإسلام عملت عملها ابتداء من القرن الثالث الهجري.

وأهم هذه العوامل الخارجة في نظره هو : الأفلاطونية الجديدة والتي كانت شائعة آنذاك في : مصر ، والشام.

فلننظر إلى " نيكلسون " في تلك الفترة وهو يقول :" ولكني على يقين من أننا إذا نظرنا إلى الظروف التاريخية التي أحاطت بنشأة التصوف بمعناه الدقيق ، استحال علينا أن نرد أصله إلى عامل هندي ، أو فارسي ، ولزم أن نعتبره وليدًا لاتحاد الفكر اليوناني ، والديانات الشرقية ، أو بعبارة أدق ، وليدًا لاتجاه الفلسفة الأفلاطونية الحديثة، والديانة المسيحية والمذهب الغنوصي".

ثم يتحول " نيكلسون " عن فكرته تلك ويأتي " لويس ماسينيون " ليشرح فكرته الجديدة فيقول :"وقد بين نيكلسون أن إطلاق الحكم بأن التصوف دخيل في الإسلام غير مقبول ، فالحق أننا نلاحظ منذ ظهور الإسلام أن الأفكار التي اختص بها متصوفة المسلمين ، نشأت في قلب الجماعة الإسلامية نفسها ، أثناء عكوف المسلمين على تلاوة القرآن والحديث وتَقرّبُهما ، ثم يقول – وهذا مكمن الخطر – وتأثرت بما أصاب هذه الجماعة من أحداث ، وما حل بالأفراد من نوازل".

وبذلك فإن " ماسينيون " لا يرجع التصوف إلى مصدر واحد ، وإنما إلى ثلاثة مصادر:

<u>المصدر الأول</u>: القرآن وهو أهم المصادر التي استمد منها التصوف نشأته وحياته.
<u>والمصدر الثاني</u>:الحديث، والفقه، وغيرهما من العلوم العربية الإسلامية.
<u>والمصدر الثالث والأخير</u> : الثقافة العلمية الأجنبية العامة ، وهذا مكمن الخطر.
فما أغنانا عن تلك الاختلافات الكثيرة التي استفاض فيها الكاتبون والتي لا تزال مستمرة لا تنتهي ولا يريد أهلها أن تنتهي ، والعجب أن تلامذتهم من العرب يتعصبون لها حتى الآن.

<u>أس الخطأ في ذلك الطرح الفكري:</u>

إن عرض قضية التصوف بهذا الوضع خطأ من أساسه ، فقد ترتب على ذلك تكفير البعض لبعض علماء الإسلام المبرزين علما وذوقا وأسوة ودعوة وصفاء ونقاء من أمثال الأستاذ الأكبر محيي الدين بن عربي والشيخ منصور بن حسين الحلاج هم ومَنْ على شاكلتهم من أهل الزهادة والورع والصلاح والتقوى، حيث قد اتهموهم بأنهم قد أخذوا أفكارهم الصوفية من الفلسفة اليونانية ورموهم بالحلول والوحدة والاتحاد التي كانت موجودة لدى فلاسفة الإغريق ، وهم من ذلك برآء ، لأن <u>العارف لا يريد أن يكشف سر الصلة التي بينه وبين الله</u> ، فغالبا ما يميل أمثال هؤلاء من أهل الاستغراق مع الله تعالى بالرمزية والكنائية سترا على حالهم مع الله فكانت فرصة المستشرقين المشتغلين بفكر الشرق وآدابه أن يفسروا تلك الرموز بظاهر ما تدل عليه ويربطوها بالفلسفة الإغريقية ، ويتهموهم بالكفر والارتداد فيتبعهم تلامذتهم الأوفياء لهم من المستغربين ممن ينتمون إلى هذا الدين دونما قراءة للرأي والرأي الآخر، ودون أن يشربوا شيئا من مذاقهم ليكون حكمهم منصفا ، فإن الحكم على الشيء فرع عَن تصوره.
وبذلك أسئ الظن بتلك القمم الإسلامية الشامخة ، مما جعل بعض المتصوفين ينكر عليهم موقفهم ويعلن أنه من مدرسة المعتدلين كإمام التصوف الأستاذ الجنيد.

وأما الإمام الغزالي فقد شرح وجهة نظر ابن عربي في قضية الفناء والبقاء. وأن ذلك ليس من الحلول والاتحاد في شيء ، لأن العارف قد يعتريه حال الفناء فيفنى عن نفسه ، ولا يرى لنفسه وجودا مع وجود الله ، لأن وجود الإنسان فيض من وجود الله فكل ما لدى الإنسان فهو من الله ولكن وجود الله وجود أزلي ودائم لا نهاية لوجوده ، وشعارهم في ذلك قول القائل:

والكل إن حققته عدم * بعد الإله على التفصيل والإجمال**

فالعارف المستغرق في فكرة صلة العبودية بالربوبية : يفنى تماما عن نفسه ويبقى بربه إذا نظر إلى أن كل شيء موجود فهو من الله وأنه إلى فناء في ساعة من ليل أو نهار.

ولكن واهب الوجود لا نهاية لوجوده ، فالعبد يبقى بربه ويفنى تماما عن نفسه ، إذاً فالمعايشة الدائمة تجعله يستغرق في ذلك ، ويرمز إلى مواجيده وأحواله ولا يصرح بها مثل ما رووه عن الحلاج رحمه الله حينما وقف بين الناس وقال: معبودكم تحت قدمي :يقصد المادة التي هي من التراب أصلا ، أو أن كنزا من الذهب كان في باطن الأرض التي يقف عليها ، وحينما رمز إلى حالة استغراقه مع الله تعالى ، فقال :" ما في الجبة إلى الله "إنه لا يقصد حلولا ولا اتحادا وإنما يقصد قضية " الخلق والأمر" وأنها من الله سبحانه فقط : **{ ... ألا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(54)}** [الأعراف] لأن الله تعالى قد أوجده وخلقه بـ " كن " فكان . قال الله تعالى : {**إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (82) فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (83)** } [يس] ولكن أعداءه الحاقدين عليه أوغروا عليه صدر السلطان وأخذوا بظاهر اللفظ فحكموا عليه بالردة حتى أمر السلطان بقتله . وكانت بعد ذلك فرصة المستشرقين الذين درسوا حياة هؤلاء وسيرهم الذاتية ، فبنوا من الحبة قبة وأقروا الحكم بارتداده وكأنهم يهمهم شأن الإسلام ويغارون على الفكر الإسلامي ، ويخشون على عقيدته من الانهيار، فضربوا بمعولهم في صميم العقيدة، وصار المسلمون يكفر بعضهم بعضا ، دون تفكير ولا روية ولا بحث ولا استقصاء. وإنما فقط بالترديد الببغائي !! وتحت مسمى الفكر الإسلامي !!، وخلاصة القول في ذلك: أن الكاتبين عن الإسلام والذين تناولوا الكتابة عن التصوف قد

وقفوا موقفهم من الثقافة الكسبية ، ومعروف أن الثقافة المكتسبة يتأتى فيها التأثر، والتطور ، والتقليد.

فالكاتب ، أو الشاعر ، أو المفكر على وجه العموم ، الذي يستمد ثقافته من البيئة الخارجية إنه يتلون ويتشكل بكل ما يقرأ ، وبما يدور حوله من أحداث ، وبما يتشربه من بيئته ، ونتاجه ، إذاً ما هو إلا أثر لما يدخل حياته من البيئة الخارجية.

فالتصوف الإسلامي إذًا ليس ثقافة كسبية ، وبذلك لا ينبغي التحدث عن مصادرها الخارجية – أيا كانت هذه المصادر.

ومن الخطأ الجسيم وضع مسألة : نشأة التصوف ومصادره موضع البحث والنظر والدراسة ، فذلك لا يفعله إلا من لا يفهم التصوف ، ولم يسهم في تذوقه بقليل ولا بكثير .

والناتج لكل ذلك : أن الاتجاه إلى التصوف ،والنزوع إليه إنما هو " فطرة واستعداد " تنبثق من فطرة الإسلام التي فطر الله الناس عليها . فهو فطرة تريد أن تكتمل بها وأن تتوج الفطرة الأساسية.

أما الذوق الصوفي ، والشعور الصوفي والمعرفة الصوفية ، فإنها استمداد من مصدر النور والهداية [1].

التعليق: ما سبق من الكلام عن تخطئة وضع مسألة " التصوف "موضع البحث والنظر والدراسة أمر في غاية الأهمية وعلى الباحثين المنصفين لدينهم أو للبحث العلمي المجرد مراعاة ذلك.

ولكن هذا الكلام قد يكون أقرب إلى الاتجاه النظري عنه في المنحى التطبيقي ، ونحن نعالج قضية عملية تطبيقية قد أعلنا عنها بـ " المذاقية الوجدانية " فما السبيل إلى هذا المذاق ؟.

للإجابة عن هذا السؤال الهام الذي تستغرق إجابته كل الموضوع برمته الذي يرنو إليه البحث نقول:

---

[1] المنقذ من الضلال" لأبي حامد الغزالي تحقيق د. عبد الحليم محمود ص 177 / ص 178 .

إن موضوع التصوف كتطبيق عملي وسلوك إسلامي قد وجد منذ بدء الرسالة الإسلامية ، فالرسول صلى الله عليه وسلم – مثلا – حينما كان يَحْزُبُهُ أمر يقول " أرحنا بها يا بلال ".
ويقول :" جعلت قرة عيني في الصلاة " فهو صلى الله عليه وسلم يتوجه بكليته إلى الله تعالى خاشعا لله سبحانه أتم الخشوع وخاضعا لجنابه الأقدس أكمل الخضوع.
وقد اقتدى أصحابه به في ذلك تماما ، فها هو أبو بكر رضي الله عنه الذي كان يقرأ القرآن في صلاته فيبكي بكاء شديدا ويجهش في البكاء تعظيما وإجلالا لله سبحانه .
وهو مَنْ كشف الله بصيرته فألهمه بأن زوجته قد حملت أنثى فرجع في وصيته للسيدة عائشة في البستان الذي كان قد أوصى لها به فقال لها : إنما هما أخواك وأختاك فقالت : إن لي أختا واحدة ، فقال لها : ذات بطن بنت خارجة – يريد زوجته – حملت وأراها بنتا ، فكان الأمر كما قال – وكذلك الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما قال : يا ساريةُ الجبلَ ، فسمعه سارية قائد الجيش وهو في بلاد الشام والخليفة بالمدينة يخطب على المنبر.
وكذلك ذو النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه حينما قال لمن حوله : يدخل عليَّ أحدكم وآثار الزنا بادية على عينيه – وكان رجل من الجالسين قد نظر إلى امرأة شزرا وهو في الطريق فأتى وجلس معه .فقال الرجل للخليفة: أوحْيٌ منزلُ" بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : لا ، وإنما هي فراسة وبصيرة ونور إيمان " وأما الإمام علي فحدِّثْ ولا حرج عن علمه وأسراره التي مُنحها من ربه ، فقد كان يفسر القرآن بالقرآن .
ولقد انتشرت الكرامات لدى الصحابة بعد انتقاله صلى الله عليه وسلم إلى الرفيق الأعلى لأن نور المعجزة كان يتغلب على نور الكرامة ، ولأن الكواكب في السماء لا ترى مع وجود القمر. فهذا عباد بن بشر رضي الله عنه حينما كان يحرس الصحابة بالليل بعد رجوعهم من غزوة ذات الرقاع فحن حنينه إلى الوقوف بين يدي مولاه ، وإلى أن يناجيه بقرآنه في صلاة الليل ، وبينما هو قائم يقرأ سورة من القرآن بقلب الصحابي الصافي النقي إذا بسهم مسموم قد أطلقه عليه مشرك فاخترم عضده ، فنزعه بيده واستمر في صلاته ..! فرماه بسهم ثالث فنزعه وحينما أنهى تلاوته ركع ثم سجد ، وكانت قواه قد بددها الإعياء والألم ، فمد يمينه وهو ساجد إلى صاحبه

النائم بجواره ، وظل يهزه حتى استيقظ . ثم قام من سجوده وتلا التشهد ، وأتم صلاته. وصحا صاحبه " عمار" على كلماته المتهدجة المتعبة تقول له :" قم للحراسة مكاني ، فقد أُصِبْتُ ".
فوثب " عمار " محدثا ضجة وهرولة أخافت المتسللين ، ففروا ثم التفت إلى عباد ، وقال له: "سبحان الله !! هلا أيقظتني أول ما رُميت "؟
فأجابه عباد :" كنت أتلو في صلاتي آيات من القرآن ملأت نفسي روعة وقلبي نورا . فلم أشأ أن أقطعها . ووالله لولا مخافة أن أضيع ثغرا أمرني رسول الله صلى الله عليه وسلم بحفظه ، لآثرت الموت على أن أقطع تلك الآيات التي كنت أتلوها ".
فنرى من ذلك أن عبادا كان شديد الحب لله ولرسوله ولدينه ولقرآنه مما ملك حسه كله ، وهذا ما سمي فيما بعد بالتصوف ، أي تناول العبادة بصفاء قلب ويقين بالله.

<u>حتمية القدوة:</u>

رأينا أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان قدوة حسنة وأسوة عملية ناجحة لأصحابه فتأثروا به روحا ونصا ، فَخَرَّج جيلا صالحا صدقوا ما عاهدوا الله عليه حتى أعلى شأنهم ونصرهم على أعدائهم وأعزهم بدينه وأعز بهم الإسلام وأيدهم بروح من عنده . فعاشوا في نور الإسلام هداة مهتدين . يصدق فيهم قول الله تعالى :**{ فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ...(125)}** [الأنعام] قال الصحابة : ما الشرح يا رسول الله ؟
قال:" نور يقذفه الله في القلب".
ولما تمكن هذا النور في قلوبهم أجازهم الرسول صلى الله عليه وسلم في أن يكونوا قدوة لغيرهم ، فقال صلى الله عليه وسلم **:" أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم".**
ثم أشار إلى القدوة لمن بعد الصحابة إلى أن تقوم الساعة من آل البيت المطهرين والعترة المحمدية كما سيأتي بيان ذلك بالتفصيل وهم من سماهم الناس بعد ذلك بالصوفية من مشايخ الأمة الأجلاء حملة المشاعل الإسلامية إلى أن تقوم الساعة.

الميراث المحمدي:

لقد أعلن الرسول صلى الله عليه وسلم عن الميراث المحمدي الذي تركه من بعده للأمة لتبقى مسيرة الإسلام الظافرة ، وتنتشر دعوته إلى قيام الساعة ، وذلك عن طريق بُعْدَين هامين : بُعد نظري يحظى الآن بالتأييد والدعوة إلى تحقيقه صباح مساء وهو : المتمثل في الكتاب والسنة.

والبعد الثاني : عملي تطبيقي وهو المتمثل في الكتاب والعترة المطهرة . ومن عجب أن البعد الثاني تناساه الكثيرون الآن بل إنه يحارب من الداخل والخارج مع أنه أساس سلوك الأمة وإكسير حياتها في دعوة الإسلام وتحقيق خلافة الله تعالى في الأرض ، لتكون بحق خير أمة أخرجت للناس.

وأما البعد النظري فهو مؤيد على امتداد الساحة داخليا وخارجيا ، ولا يخشى من رَفْعِ عَلَمِه أعداء الإسلام لأنه مجرد كلام !!.

وهو تنظير وتقعيد لأحكام الإسلام ، إذ يقول فيه المصطفى صلى الله عليه وسلم :" إني تركت فيكم ما إن تمسكتم به فلن تضلوا بعدي أبدا كتاب الله وسنتي" حديث صحيح [1]. ومعلوم ضرورة وجود

النزعات التي تتحكم في سلوك الإنسان خيرا أو شرا وأن أجهزة استقبال الأمر أو النهي ،

وهو ما يطلق عليه :" خطاب التكليف " الذي يستقبله القلب . قد يكون القلب " أزهر " وقد يكون " أغلف مربوطا " وقد يكون " منكوسا " وقد يكون " مصفحا ".

فالقلب الأزهر فيه نور التوحيد يلتقط خطاب التكليف ، فيصوغه الصياغة المطلوبة ، لأن فيه سراجا يزهر وهو قلب المؤمن.

وأما **القلب الأغلف المربوط** على غلافه فذلك قلب المنافق فصاحبه مريض بالانفصام ولقلبه أنين الظلمة لأن ظاهره يخالف باطنه . فالباطن : كفر أو فسق . والظاهر إسلام وطاعة شكلية

---

[1] صحيح البخاري

بغية عرض من الدنيا فلا يستقبل هديا . لا يستقبل إيمانًا . وأما **القلب المنكوس** فذلك قلب الكافر ، وأما **القلب المصفح** ففيه إيمان ونفاق فيحتاج إلى المدد والإمداد الراني حتى يصلح ، وذلك معظم قلوب الناس في هذه الأيام ، فهذا القلب في أمس الحاجة إلى الميراث المحمدي العملي . فعن أبي سعيد الخدري وأبي كبشة الأنماري وحذيفة بن اليمان أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :" القلوب أربعة : قلب فيه سراج يزهر فذلك قلب المؤمن ، وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر، وقلب أغلف مربوط على غلافه فذلك قلب المنافق ، وقلب مصفح فيه إيمان ونفاق فمثل الإيمان فيه مثل البقلة يمدها الماء الطيب ، ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يمدها القيح والصديد فأي المدتين غلبت عليه حكم له بها".

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" إذا أذنب العبد ذنبا نكتت نكتة سوداء في قلبه ، فإذا لم يتب وأتبعه بذنب آخر اتسعت هذه النكتة وهكذا كلما عاود الذنب حتى تغطى القلب كله فذلكم الران الذي قال الله فيه :**{ كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ (14)}** [المطففين] فإذا وصل العبد إلى حالة الران والعياذ بالله تعالى انعكست المرئيات في ناظره فيرى الحق باطلا والباطل حقا ، ولا تؤثر فيه المواعظ ، ولا يستقبل قلبه خطاب التكليف الذي يتضمنه الميراث النظري ، لظلمة قلبه وفساد طويته فلا ينفعه ولا يفيده إلا الميراث المحمدي العملي عن طريق تتلمذه على أحد أشياخ آل البيت المطهرين الممدودين بنور النبوة ، لأن النص التكليفي ساكن إما في كتاب وإما في العقل ، وكما يقولون : الشيء لا ينتقل من السكون إلى الحركة إلا بمؤثر خارجي ، وذلك المؤثر الخارجي الذي ينقل مريد التوبة والوصول إلى مرضاة الله تعالى ، والترقي في معارج الأنوار الإلهية هو : شعاع النور من الأستاذ المربي الذي عناه الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله في الحديث الصحيح **:" إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله ، وعترتي أهل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض"** وذلك يعني أنهم موجودون إلى يوم القيامة يحلون حلال القرآن ويحرمون حرامه ، فهم تجسيد عملي للميراث النبوي .

ولقد أحال الرسول صلى الله عليه وسلم الأمة إلى التشبث بالقرآن تطبيقا وبالعترة محبة واقتداء ، فقد زاد الإمام أحمد والنسائي والترمذي على ما سبق قوله عليه الصلاة والسلام :"فانظروا

كيف تخلفوني فيهما " فهذا تشريع لاتباعهم ، فقد ورث العلماء من الرسول صلى الله عليه وسلم أقواله ، وورث الأولياء أحواله . والأحوال هي الأصل في السلوك والاتباع والهداية وهذا لمن التزم منهم وظهرت كرامته وخاصة في تتويب العصاة.

أهمية أحاديث الثقلين:

إن أحاديث الثقلين مع أهميتها القصوى فإنها مغمورة مطمورة ، مع إنها مروية عن علماء أجلاء من أهل السنة ومن أكابر المحدثين في الصحاح بأسانيد متعددة ، واتُّفِقَ على روايتها . فرواها : مسلم والترمذي في الصحيح ، والإمام أحمد بن حنبل في مسنده ، والثعلبي في تفسيره ، وابن المغازلي في المناقب ، وصاحب الجمع بين الصحاح الستة ، والحميدي ، والسمعاني في فضائل الصحابة ، وموفق ابن أحمد ، والطبراني وابن حجر في الصواعق وغيرهم ، ورويت هذه الأحاديث من طريق أهل البيت باثنين وثمانين طريقا ، وفي العقد الفريد لابن عبد ربه الأندلسي ، وفي ذخائر العقبي لأحمد بن عبد الله الطبري ، وفي تفسير الخازن عندما تعرض لآية الاعتصام ، وفي تفسير ابن كثير في آية المودة ، وفي تفسير آية التطهير ، وفي الحلية لأبي نعيم الأصفهاني ، وشرح نهج البلاغة لابن الحديد ، وفي أسد الغابة لابن الأثير ، وفي الدر المنثور للسيوطي ، ولسان العرب لجمال الدين الأفريقي . فعن زيد بن أرقم عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" **أنا تارك فيكم ثقلين : أولهما كتاب الله فيه الهدى والنور ، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به** " فحث على كتاب الله ورغب فيه ، ثم قال **:" وأهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي ، أذكركم الله في أهل بيتي".** وعن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" **إني تارك فيكم الثقلين ".**

وفي رواية **:" خليفتين : أحدهما أكبر من الآخر ، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض ، وعترتي أهل بيتي ، وأنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض".**

وفي رواية **:" إن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض ، فانظروا بما تخلفوني فيهما ".**

وفي رواية أخرى : "**إني تارك فيكم أمرين لن تضلوا إن تبعتموهما ، وهما كتاب الله ، وعترتي أهل بيتي".**

وفي رواية **:" إني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا بعدي : الثقلين ، أحدهما أكبر من الآخر ، كتاب الله حبل ممدود من السماء إلى الأرض ، وعترتي أهل بيتي ، وأنهما لن يفترقا حتى يردا على الحوض".**

إن حديث الثقلين من أوثق الأحاديث النبوية ، ولقد اهتم به العلماء اهتماما بالغا – يوم أن كانوا يرجون الله والدار الآخرة – لأنه يحمل جانبا هاما من جوانب العقيدة الإسلامية ، ولأنه نقطة التحول من النظرية إلى التطبيق ، من الميراث النظري إلى الميراث العملي ، من الثابت إلى المتحول الذي يريد أن يأخذ دوره في دنيا الناس وعند الله .

إن حديث الثقلين برواياته المختلفة يمثل روح الإسلام ، كما أن الحديث الأول يمثل جسد الإسلام . فكما أنه لا يجوز في شرعة العقل أن يكون هناك وجود طبيعي لجسد بلا روح ، ولا روح بغير جسد . كذلك لا يأخذ الإسلام دوره في أداء الرسالة المحمدية بدون التركتين : النظرية والعملية .

فكثيرا ما يلقي على أسماع الناس من نصوص الكتاب والسنة ما تشف له الآذان وتطيب له النفس ، ولكن بعد مفارقة الملقي تذروه رياح النسيان ، ويندمج المتلقي مع ما تعوده واعتاده مرة أخرى ولو كان مخالفا لما ألقى وسمع . بل إنه قد يزيد في غيه وفتنته بأمور الحياة أكثر من ضلاله القديم !!.

وهذا سر انتشار المعاصي والموبقات والسلوك غير السوي في الآونة الأخيرة مع انتشار العلم ، والكثرة الكاثرة من الناطقين بلغته ، والمتنافسين على ترديده ، ولاسيما من يحاولون أن ينصبوا أنفسهم حماة لعرينه تحت أي مسمى ما أنزل الله به من سلطان .

ولكن قاتل الله شهوة حب الظهور ، وشهوة الشهرة والسيطرة والأغراض الدنية !! إن هؤلاء الذين يرددون النصوص الكريمة دون روح نورانية في قلوبهم ، وبغير مقصد شريف يرجى منه رضاء الله : هم خطباء الفتنة ، الذين يثيرون الفتن والقلاقل والجدل العقيم وكراهية الناس لبعضهم ، إنهم الذين يقولون مالا يفعلون ، ويفعلون مالا يقولون ، وهم من رأى النبي صلى الله عليه وسلم نماذج تُصُوِّرُهم بأنه تقرض شفاههم بمقاريض من نار ، كلما قرضت عادت كما كانت ، فقال صلى الله عليه وسلم **:" مَنْ هؤلاء يا أخي يا جبريل ؟!! قال : هؤلاء خطباء الفتنة من أمتك الذين يقولون ما لا يفعلون ".**

وخطباء الفتنة أي الذين ينشرون الفتن والقلاقل والجدل والخلاف بين المسلمين ، والذين يتنطعون في طرحهم لمسائل فرعية خلافية فيأخذون منها برأي يتعصبون له ولو كان ضعيفا ، ومن سمات هؤلاء الطعن في أولياء الله تعالى من العترة المطهرة الذين أمرنا بمودتهم ومحبتهم و" الاقتداء بهم" كما ورد في حديث الثقلين .

فنحن مكلفون بالاقتداء الفعلي بمن يحل حلال القرآن ويحرم حرامه ويتخلق بأخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم من العترة المحمدية وهم موجودون في كل زمان ومكان دون انتماءات طائفية تبعدنا عن روح الحب والصفاء الواجِبَيْن . وهم أولياء الله وعارفوه .

فكيف نعرف الولي من غيره ، مع أن معظم الأولياء مغمورون بستر الله لهم ، ليحسن المسلمون الظن ببعضهم ؟

الواقع أن عطاءات الله للأولياء متفاوتة ، فمنهم المغمور المستور ، ومنهم الداعية المشهور: الذي يدعو إلى الله بالنور الذي يقذفه الله في قلبه ، وهذا النور لا ترده حواجز ولا سدود فهو من منحة الوهاب الغفور ، وهو أساس الدعوة الإسلامية ، يشعر به كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

روح الإسلام النورانية:

إن دعوة النبي صلى الله عليه وسلم لم تغز قلوب القرشيين المتحجرة بـ " النص " فقط، بل العامل الأكبر هو " روح النص " الذي يتمثل في النور الذي كان يشع من قلب النبي صلى الله عليه وسلم إلى قلوبهم فيفتت قساوتها ويحيلها إلى قلوب حية واعية تلتقط أنوار الإسلام فيسكن في المهج والسويداء ، ويصبح الإنسان ملكا في صورة إنسان : **{... وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ (40)} [النور].**

إن الصحابة بعد أن تذوقوا هذا النور الذي هداهم إلى الله تعالى كانوا يحرصون عليه حرصهم على حياتهم ، فلا يقترفون المعاصي والمخالفات التي ألفوها من قبل خوفا من هروب هذا النور من قلوبهم ، بل إنهم كانوا يفرحون بزيادته ، ويحزنون من نقصانه.

فلقد أتى الصحابة رضوان الله عليهم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا : يا رسول الله ، إنا إذا كنا معك رَقَّتْ قلوبنا وأقبلنا على الآخرة ، وإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا فشممنا نساءنا وأولادنا !! فقال صلى الله عليه وسلم **:" لو تكونون على كل حال على الحال التي كنتم عليها عندي لصافحتكم الملائكة بأكفهم ولزارتكم في بيوتكم ".**

فإذا خلا قلب من هذا النور كان صاحبه منافقا ، وإذا تناقص صار عاصيا بمقدار هذا النقصان ، وإذا زاد هذا النور وفاض كانت له ولاية من الله تعالى وعناية بقدر هذه الزيادة . حتى إذا امتلأ القلب بذلك النور وفاض كان من الأولياء الكُمَّل المأذون لهم بالدعوة إلى الله تعالى على بصيرة الإيمان.

أهم علامة للولي: أن يعطيه الله تعالى قوة خفية بها يهدي الله العصاة على يديه ، ويزداد المطيعون في طاعتهم إلى ربهم ، وتكثر إنابة المنيبين ، وتلك القوة النور الذي يكون أقوى من أشعة الليزر في تفتيت قساوة القلب وعودة ليونته الفطرية.

أولياء الله: قال الله تعالى:{ **أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (63) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (64) } [يونس].**

الأولياء جمع ولي ، فمن هو الولي؟

إنه من دواعي الدهشة أن نرى أعداء للأولياء ، ينكرون وجاهتهم عند ربهم، ويعملون على بغضهم ، وإنكار كراماتهم ، ويحاولون أن يصرفوا الناس عن طريقتهم وعن محبتهم وزيارتهم أحياء أو منتقلين . بل إنهم يعتبرون أن نحلتهم تلك ، وبغضهم لأحباب الله هو عين الجهاد في سبيل الله ، وتنقية للدين من البدع والخرافات والشعوذة والشرك والوثنية والقبورية!!

كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا ، وعلى الباغي تدور الدوائر.

إن موقف هؤلاء المزري : من العارفين بالله تعالى ، يدل على عدم التوفيق وعدم رضا الله عليهم مهما تظاهروا بالشعائر الإسلامية، أو تزينوا بشكليات الدين ، أو ادعوا البراعة في العلم والمعرفة.

فالإسلام قد حسم قضية ادعاء العلم والصلاح بإيجابه للحب والاتباع لأحباب الله ، قال الله تعالى:**{قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ... (31)} [آل عمران]** لأن حبيب الحبيب حبيب ، وبالتالي فإن عدو الحبيب عدو.

ففي الحديث القدسي الذي ورد في الصحيح : أن الله تعالى قال :" من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب" وآذنته أي أعلنت عليه وأعلمته بها ، ولا تكون الحرب إلا لعدو ، وويل لمن وقع الحرب بينه وبين الله تعالى.

ولم يعلن الله سبحانه الحرب إلا على فريقين من العصاة:

1- **المرابي:** قال الله تعالى فيه **:{ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللّهِ وَرَسُولِهِ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَالِكُمْ لا تَظْلِمُونَ وَلا تُظْلَمُونَ(279)}[البقرة].**

2- **المعادي للأولياء** بتشكيك أو اعتراض أو سب أو حقد عليهم.

إن هؤلاء المعترضين على الأولياء يملأ الحقد والحسد قلوبهم على أحباب الله ، فيريدون أن يميعوا القضية ، وأن يخرجوها من دائرة الخصوصية حيث منحها الله تكريما لأحبابه ، فيأتون بفرية عجيبة ويقولون : إن جميع المؤمنين أولياء ، وهذه كلمة حق ولكن أريد بها باطل ، فإن

كل المؤمنين أولياء بولاية التوحيد فقط ، وليس بالولاية الخاصة المرتبطة بالتقوى والبشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة.

<u>أنواع الولايـــة:</u>

الولاية اسم مشتق من الولي . وهي :نوعان **ولاية عامة وولاية خاصة، <u>فالولاية العامة</u>** تعم جميع المؤمنين وهي ولاية التوحيد التي أفاضها الله سبحانه على قلب كل مسلم ، ولا يجوز الاقتصار عليها والاكتفاء بها ، بل لابد من العمل الصالح والتقوى ظاهرا وباطنا ، وفي هذه الولايـة العامـة يقـول الله سـبحانه **:{ اللهُ وَلِـيُّ الَّـذِينَ آمَنُـوا يُخْـرِجُهُم مِّـنَ الظُّلُمَـاتِ إِلـى النُّور...(257)} [البقرة]**: أي من ظلمات الكفر والشرك إلى نور التوحيد.

<u>والولاية الخاصة</u> : هي المختصة بالواصلين الذين وصلوا مقام الإحسان من أرباب السلوك – فهم من قال الله سبحانه فيهم :

{ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (63) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوزُ الْعَظِيمُ (64) } [يونس].

وفي تفسير فريد وجدي ص 283 : (**أوليـاء الله**) أي الذين يتولون الله بالطاعة ويتولاهم بالكرامة التي تكون بشراهم في الدنيا . ثم يقول مفسرا:

" ألا إن أولياء الله الذين يتولونه بالطاعة لا خوف عليهم من وقوع مكروه ولا هم يحزنون من فوات مأمول ، وهم الذين آمنوا به إيمانا صادقا وخافوه فوقفوا عند حدوده ، ولهم البشرى في الحياة الدنيا بما يتلونه في كتاب الله مما أعده لهم ، ولهم البشرى في الآخرة يوم تتلقاهم الملائكة مهنئينهم بالنجاة ، فلا إخلاف لوعد الله ، ذلك هو الفوز العظيم".

وفي تفسير ابن كثير جـ 2 ص 422: يقول:

" يخبر الله تعالى أن أولياءه هم الذين آمنوا وكانوا يتقون كما فسرهم به فليس بعد تفسير الله تفسير، فكل من كان لله وليا " ولكن التقوى يفهمها الكثيرون خطأ فهم يقولون عنها : إن تنفيذ

المأمورات وترك المنهيات حتى ولو كان ذلك بالقالب فقط أي أعضاء الجسم الظاهرة وفاتهم أن المحل الحقيقي للتقوى هو : " القلب" لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد أشار بأصبعه الشريف إلى صدره الشريف وقال : " التقوى هاهنا التقوى هاهنا".

وذلك للقلب السليم الذي فيه سراجه المزهر الذي يدفع المعاصي ولا يقبلها لكمال خشيته لربه ، ويعمل الطاعات تقربا إلى الله لأنها تسعده حيث يجد لذة القرب ومتعة الأنس بالمحبوب سبحانه .

ومعروف أن الذنوب نوعان :

1- **نوع يكون محسوسا** ويتعلق بأعضاء الجسم الظاهرة ، وهذا النوع فيه ما هو من قبيل الذنوب الصغائر وما هو من الكبائر ، ومن السهل أن يتوب العبد وأن يقلع عنها إذا ما أصر على ذلك.

2- **نوع معنوي قلبي**، وهذا النوع كله من الكبائر، ولا يستطيع العبد أن يقلع عنها وحده ، مهما قرأ عنها ، وما تحدث أمام الناس بها، ألا وإن الكثيرين لا يفطنون إلى هذه المعاصي القلبية الخطيرة ، والتي يزداد انتشارها يوما بعد يوم في أيامنا هذه ، والتي يزكي فيها الإنسان نفسه ، وتغالبه الأثرة والأنانية والافتتان والتطاحن عليها والطمع في مال الغير وحاجته ، والتحولات الاجتماعية الواضحة التي جعلت من كان موسرا قبل ذلك صار معسرا ومن كان وجيها أصبح وضيعا ومن كان معافى سليما أصبح مريضا مرضا مزمنا ، وهكذا دواليك ، سنة الله في خلقه ولن تجد لسنة الله تبديلا . وهي ظاهرة تاريخية معروفة وسنة من سنن الكون، ولكنها غدت واضحة مرصودة لفقدان الغنى النفسي وعدم الرضا الذاتي ، والقناعة بما أعطاه الله وما قضاه وقدره ، فانتشرت المعاصي بكل أبعادها وبخاصة القلبية.

<u>خوف الرسول صلى الله عليه وسلم على أمته من تنافسهم على الدنيا:</u>

لقد خشي الرسول صلى الله عليه وسلم على أمته من اختلافهم مع بعضهم البعض بسبب الدنيا والتنافس عليها من مال وجاه وسلطان . فقال صلى الله عليه وسلم – كما في صحيح البخاري في باب الفتن والخوارج **:" والذي نفس محمد بيده إني لا أخاف عليكم أن تشركوا بعدي بالله شيئا ولكن أخوف ما أخاف عليكم أن تبسط عليكم الدنيا فتنافسوها كما تنافسها من كان قبلكم فتهلككم كما أهلكتهم".**

لأن الذنوب القلبية التي لا علاج لها عند أطباء القلوب من أولياء الله وعارفيه هي : الحقد والحسد والكبر والعجب والغرور وسوء الظن والرياء وحب السمعة الكاذبة والغل والكراهية والأنانية والبخل والشح والغضب وحب التشفي والانتقام وحب الثناء والشماتة بالأعداء والفجور في الخصومة وما إلى ذلك مما يكون سببا في سخط الله . ولا يمكن لمن كانت عنده هذه العيوب أو بعضها أن يكون وليا مهما تعلَّم أو تعبَّد ، لأن الولي من والى الله صافي القلب بطاعته وإنابته المستمرة إليه فوالاه الله بمغفرته له وستره ورضوانه وإكرامه واستجابة دعائه وأنواره وأسراره.

سمات الأولياء وأثرهم في الأمة:

إن أهم سمة لهم هي : السقي النوراني لكل من رآهم على حب لهم وتكريم ، فيتحول من عاص إلى مطيع ، ومن مذنب إلى تائب ، ومن غافل عن ربه إلى ذاكر أواب.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم **:" أولياء الله الذين إذا رؤوا ذكر الله ".**

فعن عبد الله بن مسعود وابن عباس رضي الله عنهم وعن غيرهم من السلف أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال**:" أولياء الله الذين إذا رؤوا ذكر الله ".**

والمراد بذلك : أن مشاهدتهم رضي الله عنهم تشعر قلوب أهل الغفلة بيقظة تجعلهم يذكرون الله تعالى : لما يعلو وجوههم من البهاء والنور والهيبة وآثار الإخبات والخشوع والسكينة والوقار.

وقد جاء في تفسير النيسابوري : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :" إن من عباد الله عبادا ليسوا بأنبياء ولا شهداء ، يغبطهم الأنبياء والشهداء لمكانهم من الله " قالوا : يا رسول الله أخبرنا من هم ؟ وما أعمالهم فلعلنا نحبهم ؟ قال :" هم قوم تحابوا في الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها ، فوالله إن وجوههم نور ، وإنهم على منابر من نور ، لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس ، ثم قرأ :{ **أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (62)**}[يونس] . روى الحاكم وأبو داود أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :" **وددت أني لقيت إخواني الذين آمنوا بي ولم يروني** ".

وذلك لأنهم ذووا فضل وشرف ، ولبيان علو منزلتهم لأنهم هم القائمون له بنشر سنته وإحياء طريقته وإحياء شريعته دائما وأبدا دون مَنٍّ ولا أذى . وروى الإمام أحمد عن أبي الدرداء رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى :**{ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ...(64)}[يونس]** قال :" الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو ترى له ". فالأولياء هم الذين جمعوا بين الإيمان الكامل والتقوى الدائمة المتواصلة مشاهدة ومراقبة . فهم الذين فروا بقلوبهم على طاعة ربهم بعزائم صادقة، وقلوب نقية طاهرة ، وأرواح زاكية صافية ، حتى أصبحوا محلا للفتوحات الربانية ، والعطاءات الصمدانية ، والمكاشفات النورانية . فالعارفون بالله : هم أهل الحضرة المخاطبون بعين المنة ، فكيف يمكنهم أن يكونوا لسوى الله مستندين ، وهم لوجود الأحدية مشاهدين [1] .

فالنور الذي يسطع بقلب العارف الواصل يوصله إلى المعرفة ، ويمنحه قدرة عظيمة في العلم الكسبي والوهبي عن طريق الفيض والإلهام والفراسة ، لأنه إذا صفت مرآة القلب من صدأ المعاصي والهواجس والغفلات ، فإنه يسطع عليها نور اليقين ، ويرى العارف بقلبه مالا يراه غيره من الناس بأبصارهم.

قلوب العارفين لها عيون * ترى ما لا يراه الناظرون**

---

[1] طريق الله لفضيلة العارف بالله ، أستاذنا الشيخ أحمد الشافعي أبو خليل جـ2 ص 112.

وأجنحة تطير بغير ريش *** إلى ملكوت رب العالمين

مخاطر الطعن في الأولياء :

سبق أن تعرضنا لهذه المسألة ، ولكن نظرا لخطورتها الفادحة فإننا نعود على ما بدأناه فيها ، فلا يجوز الطعن في أحباب الله من الأولياء وأهل الصلاح ، بل ولا الجلوس مع من يقع فيهم ، لأنهم قوم قد تولى الله أحوالهم ، فمن وقع فيهم فإنه يسقط من عين الله ، ويستوجب المقت منه عز وجل ، فيهلك مع الهالكين.

ومحظور أن يُستهزأ بواحد منهم ، أو يُعترض عليه ، ولا يجوز أن تقيس أحواله بأحوالك ، أو تطبق أعماله على أعمالك ، بل طبق أعمالك على الكتاب والسنة ، فإن هؤلاء القوم قد أنسوا بالله ، وملئوا قلوبهم حبا وَوَلَهًا في حضرته ، وراقبوا أنفاسهم معه ، وسلموا قيادتهم إليه وألقوا أنفسهم سَلَمًا بين يديه ، وتركوا الانتصار لأنفسهم حياء من ربهم ، فكان هو المحارب عنهم لمن حاربهم ، والغالب لمن غلبهم **{ إِنَّ اللهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا ....(38)}**[الحج]

حكم التصوف وضرورة الاقتداء بشيخ عارف:

لما كانت الحكمة من وجودنا في هذه الحياة هي : معرفة الله تعالى علما ومذاقا ، وحيث إنه لوحظ في عصرنا الحديث انتشار المعاصي وفساد القلوب بما لم يعهد من قبل فإنه يجب على من انفرط عِقْدُه من ربه ، وعجز عن أن يقدم لربه توبة نصوحا يتطهر أثناءها من أدران المعاصي : أن يأخذ الطريق على يد شيخ مجرب في تطبيبه للقلوب وإصلاح الخلق على علام الغيوب ، ويتأكد الوجوب أكثر على علماء الشريعة ، فقد قال أحد العلماء المحققين : إن العالم إذا لم يتصوف على يد عارف بالله يخشى عليه من سلب الإيمان!!.

لأن التصوف من أجلّ العلوم قدرا ، وأعظمها محلا وفخرا، وهو الذي تعرف به أحوال النفس محمودها ومذمومها ، وكيفية تطهيرها من المذموم منها ، وتحليتها بالاتصاف بمحمودها ، وبه يعرف كيفية السلوك إلى الله تعالى ، والفرار إليه [1].

فكفى به تهذيبا للنفوس وتنويرا للقلوب ، ومعرفة لعلوم الغيوب ، وسلامة للصدور ، وحُسْنًا للخُلُق مع كل مخلوق ، والنجاة في الآخرة ، والفوز برضاء الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم .

فقد قال الإمام الطيبي رحمه الله :" لا ينبغي للعالم ولو تبحر في العلم ، حتى صار فريد عصره ، وواحد زمانه أن يقتصر على علمه ، وإنما الواجب عليه: الاجتماع بأهل الطريق ليدلوه على الطريق المستقيم ، حتى يكون من قوم يحدثهم الحق في سرائرهم من شدة صفاء باطنهم ، ويخلصهم من الأدناس.

وأن يجتنب ما شاب علمه من كدورات الهوى ، وحظوظ نفسه الأمارة بالسوء ، حتى يستعد لفيضان العلوم اللدنية على قلبه ، والاقتباس من مشكاة أنوار النبوة ، ولا يتيسر ذلك عادة إلا على يد شيخ كامل عالم بعلاج أمراض النفوس، وتطهيرها من النجاسات المعنوية ، وحنكة معاملاتها علما وذوقا ، ليخرجه من رعونات نفسه الأمارة بالسوء ودسائسها الخفية.

فقد أجمع أهل الطريق على : وجوب اتخاذ الإنسان شيخا له ، يرشده إلى زوال تلك الصفات التي تمنعه من دخول حضرة الله بقلبه ، ليصحح حضوره وخشوعه في سائر العبادات".

ولاشك أن علاج أمراض الباطن واجب ، ولا يمكن لإنسان أن يعالجها بنفسه ، وقديما قالوا: مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب.

فليكن تصوفك على يد شيخ عارف بالله تعالى ، فإن المقطوع لا يوصل مقطوعا ، وفاقد الشيء لا يعطيه ، فإذا لم تجده فأكثر من الصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم ، فهي شيخ من لا شيخ له ، وهي تضيء القلب ، وذلك حتى يتيسر لك شيخ يهذب نفسك ويرقي روحك في مدارج السالكين إلى الله تعالى ، ولا شك في أنك ستعثر عليه إذا أخلصت في نية البحث عنه.

---

[1] طريق الله لفضيلة العارف بالله ، أستاذنا الشيخ أحمد الشافعي أبو خليل جـ2 ص 112.

إذ أنَّ هذا الشيخ ، يعاهدك على طاعة الله ورسوله ، ويريك عيوب نفسك ، ويساعدك بدعائه وروحه المشرقة على التخلص منها ، ويعينك في السلوك إلى الله على بصيرة ، وإلا تعرضت لفتنة الشيطان والنفس إذا سلكت وحدك.

وبتلك المساعدة من شيخك يزداد يقينك ، وتشعر بحلاوة الإيمان في قلبك، ويمنح الله صدرك ميزانا حساسا تزن به إيمان نفسك ، وتميز به الحلال من الحرام ، قال الله تعالى :**{ إنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ (21) } [الأعراف]** فلا غرو فقد أصبحت من عباد الرحمن ، قال الله سبحانه : **{ إنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ (42)}[الحجر].**

أخذ العهد أو البيعة

مشروعية العهد والبيعة:

يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :" خالطوا أهل الحكمة وجالسوا أهل اليقين "، فكل بيعة قد حصلت بعد النبي صلى الله عليه وسلم فهي تجديد لبيعته عليه الصلاة والسلام ، وبيعته صلى الله عليه وسلم لله تعالى ، قال سبحانه :**{إنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ...(10)}[الفتح].**والشيوخ العارفون بالله تعالى: نواب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

ألا وإن علم الأحكام الظاهرة سهل التحصيل ، بل قد تحصله وحدك بدون معلم إذا كنت مجتهدا في الاطلاع.

أما علم الأخلاق القلبية الباطنة فصعب المنال ، بعيد المراس ، لا تستطيع تحصيله إلا على يد مرشد ، قد ربى قلبه بسلوك طريق القوم ، وجاهد نفسه فيها حتى عرف ربه ، فقد قال الله سبحانه:{ **إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (37)} [ق]** أي قلب سليم مما سوى الله تعالى ، فهو مملوء بأنوار المحبة القدسية.

ألا وإن هؤلاء الأئمة المرشدين في الأخلاق الباطنة قد عُرفوا بالسادة الصوفية ، ولقد سأل عباد الرحمن ربهم أن يجعلهم أئمة للمتقين ، فقالوا فيما حكى الله عنهم **:{ ... وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (74)}[الفرقان].**

وقد ثبت في مسند الإمام أحمد حدثنا عبد الله حدثني أبي حدثنا الحكم بن نافع أبو اليمان قال حدثنا إسماعيل بن عياش عن راشد بن داود عن يعلى بن شداد قال حدثني أبي شداد بن أوس وعبادة بن الصامت حاضر يصدقه قال : كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم فقال هل فيكم غريب يعني أهل الكتاب فقلنا لا يا رسول الله فأمر بغلق الباب وقال ارفعوا أيديكم وقولوا لا إله إلا الله فرفعنا أيدينا ساعة ثم وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده ثم قال الحمد لله ، اللهم بعثتني بهذه الكلمة وأمرتني بها ووعدتني عليها الجنة وإنك لا تخلف الميعاد ثم قال أبشروا فإن الله عز وجل قد غفر لكم . [(1)] " فجعل الشيوخ الصوفية ذلك أساسا في أخذ العهد إلى يومنا هذا.

هذا، وإن أهم شرط في التصوف هو : أخذ العهد الذي يعبر عنه كتاب " المنقذ من الضلال " للشيخ الغزالي بأن الشرط الجوهري هو :" التأثير الروحي" أو " البركة " وذلك لا يتأتى إلا بواسطة شيخ عارف بالله ، وهذا الشيخ قد أخذ عن شيخ .. وهكذا في سلسلة متصلة الحلقات حتى تنتهي السلسلة بسيد الخلق صلى الله عليه وسلم . وهل السلسلة إلا بركات متحركة أو تأثير روحي من شيخ إلى مريد ، يريد أن يرتبط سلوكا وروحا بالسلسلة المحمدية التي تخلع بركاتها ، أو تأثيرها الروحي النوراني عليه ، ثم يقول الغزالي – قدس الله سره - :" إن التصوف ليس

---

(1) رواه أحمد والطبراني والبزار ورجاله موثقون.

عملا عمليا ولا بحثا نظريا ، إنه لا يتعلم بواسطة الكتب على الطريقة المدرسية بل إن ما كتبه كبار مشايخ الصوفية أنفسهم لا يستخدم إلا كحافز مقوٍّ للتأمل ، والإنسان لا يصير بمجرد قراءته متصوفا .

وإن ما كتبه كبار الصوفية لا يفهمه إلا من كان أهلا لفهمه ، مثل كتاب الفتوحات المكية لابن عربي وغيره.

شروط السير في طريق التصوف:

لابد لمن يريد أن يتصوف وأن يأخذ قضية الدين بقوة العزائم ، لا بالرخص والتأويلات . من سلامة القصد وعلو الهمة واستحضار القلب دائما لاسم الجلالة كنقش ثابت ، تتلاشى وتذوب أمامه جميع الهواجس والأفكار ، إلا ما كان ضروريا للتعايش مع الخلق ، لكنه يجب أن يمرر سريعا وفي كنف فكرة الألوهية التي يجب أن تكون مستحوذة على معظم الفكرة والإحساس إن لم تكن كلها ، إذ الكل منه وإليه سبحانه ، وذلك باتباع الشروط الآتية:

1- **استعداد فطري خاص** – أي فلابد أن تكون نفس المريد مستعدة للتلقي استعدادا فطريا خاصا ، كي يستفيد من الرياضة الروحية سعادة الوصول والاتصال ، فإذا لم تكن النفس مستعدة لاستقبال الاختبارات والأحوال والمقامات والواردات فلن تصل إلى سعادة الوصول، وإن استفادت النفس السلامة – فهناك فرق واضح بين الصديقين أرباب درجة السابقين السابقين وبين غيرهم أهل من درجة أصحاب اليمين . فهذا الاستعداد لا يغني عنه اجتهاد أو كسب.

2- **الانتساب إلى " سلسلة " صحيحة** ، إذ إن البركة التي تحصل من الانتساب إلى السلسلة الصحيحة هي الشرط الأساسي والجوهري الذي لا يصل الإنسان بدونه إلى أي درجة من درجات التصوف حتى البدائية منها.

فهذا معناه أنه لابد من أخذ العهد على شيخ واصل موصل بإذن الله ، متصل بسلسلة من شيوخ مباركين حتى تصل إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . فمن أجل أن يكمل الدين ، وتظهر ثمرة كماله بمقام الإحسان ، ويتوج التوحيد الخالص بحق اليقين واليقين الحق ، فلابد من السقى النوراني عن طريق هذه السلسلة النورانية الممتدة إلى سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم . وإلا ما كان ثمة وصل ولا تحقيق ، كما أن من لم يُسلّم على سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في تشهده في الصلاة ، فصلاته باطلة ولا صلاة له . فالمتصوف عن طريق السلسلة التي ارتبط بها يعايش الرسول صلى الله عليه وسلم معايشة روحية بقدر استعداده ، وارتباطه بهذه السلسلة المباركة.

3- **المجاهدة** ، فالحب تضحية ، والتصوف الحقيقي هو : الجهاد الأكبر : جهاد النفس والشيطان ، ولكي يتحقق هذا الجهاد فلابد من :

التأمل الروحي المستغرق ، وفي الذكر المستمر " سرا وجهرا " ليستفيد ويفيد في عصر طمست فيه جل البصائر بالماديات ، واستوحش الناس فيه أهل الذكر والصلاة ، واستأنسوا أهل الفحش والمحرمات ، فإذا ما استمر المتصوف في الذكر دائما في الخلوات والجلسات ، فقد انتصر في جهاده الأكبر على شياطين الإنس والجن ، فينظر الله إليه بعين الرحمة والقبول ، ويسهل عليه مهمة الوصول ، وقد يتوب الله تعالى على كثير من العصاة بسببه ، فلا يجوز للمتصوف أن يخجل من الطاعة والذكر ما دام لا يداعبه الرياء ، وإنما يقصد وجه بارئ الأرض والسماء.

فالمفروض أن يشارك الجميع في طاعة الله وعرفانه ، حيث إننا لم نخلق جميعا إلا لذلك ، ولكن القضية إنما هي في " التوفيق " ، والتوفيق شيء عزيز ولا يعطى إلا لعبد عزيز على الله :{ ... ومَا تَوْفِيقِي إلاَّ بِاللهِ... (88)} [هود].

إذاً لابد في المتصوف : أن يستحضر الله في كل ما يأتي وما يدع ، وأن يكون في منأى عن المخالفات والبدع ، وأن يكون تركيزه في الملأ الأعلى ، فيصل موفقا من درجة إلى درجة حتى يصل إلى أعلى الدرجات ، وهذه حالة تسمو على حدود الوجود المؤقت ، فيصبح الصوفي ربانيا ، وذلك هو الصوفي الحقيقي.

ويقول العارف بالله سيدي الشيخ أحمد الشافعي أبو خليل رضي الله عنه في الشيخ وأخذ العهد عليه [(1)] .

العهد :" عروة وثقى تربط بين المتعاهدين برباط وثيق بينهما : على طاعة الله وتطهير النفس من حظوظها ، ومما علق بها من النجاسات المعنوية ، ودسائسها الخفية ، مثل : الطمع والغرور ووسوسة إبليس.

فكما أن كل عمل في هذه الحياة : لابد له من معلم يعلّم ، أو مرشد يرشد، أو قائد يوجه ، أو واعظ نصوح يذكر وينذر ، فكذلك من يريد الوصول إلى هذه المقامات الروحية ، فعليه أن يتخذ شيخا له يتبعه ، ليرشده إلى زوال تلك الصفات أو يزيلها هو عنه بمداد النور من روحه المشرقة بأنوار النبوة ، إذ إن تلك الصفات السلبية هي التي تمنعه من الوصول إلى ربه ، وذلك ليصح حضوره وخشوعه في سائر العبادات ، فيعبد مولاه على بصيرة ومعرفة بعد زوال الحجب التي كانت على قلبه".

<u>شروط الشيخ المربي [(2)]:</u>

---

(1) طريق الله في التصوف ج 1 ص 16

(2) طريق الله في التصوف ج 1 ص 17 ، 19

يقول سيدي الشيخ أحمد الشافعي – رضي الله عنه -: وشرطي في الشيخ أن يكون من المتصلين بالله ، على بصيرة ، عالما بعلاج أمراض النفوس ، قد أوتي حظا من العلم ، به عرف حدود الله وحقه على عباده ، وتحلى بقدر من التقوى التي تعصم العقل من الوقوع في الزلل العقلي فلا يغرب، والضمير فلا يغفل ، ووهب نفسا زكية شيَّعها الإيمان بالحق ، وألبسها ثوبا من خشية الله وجبروته ، لينفتح أمام المريد كتاب عهد جديد تتوالى صفحاته بتوافي النفوس على الخير والبر ، وتواطئها على النشاط ، وتحفز الهمم الوانية ، وتوقظ الضمائر الغافلة ، وتهيب بشوارد الأنفس إلى سواء السبيل".

ثم يلخص الشيخ رضي الله عنه ذلك في قوله : ولقد أجمع العارفون رجال الصوفية على أن الشيخ المربي ينبغي أن يتوافر فيه :

1- ذوق صريح. 2- علم صحيح 3- همة عالية.
4- حال مُرْضِيَة. 5- بصيرة نافذة.

<u>أوصاف الشيخ الذي يصلح للتربية:</u>

ليس كل من جلس على أريكة المشيخة يكون شيخًا يصلح لتربية المريدين إذا لم توافه عناية الله ، ولم يَجُبْ طريق الله طولا وعرضا ، أو شغلته الفانية الباقية . فأخذ الطريق جاها يتيه به على أقرانه ، أو منفعة مادية قد اكتفى بها عن آخرته ، فمثل هذا يكون مبتور الصلة من ربه ، فالمقطوع لا يوصل مقطوعا ، وفاقد الشيء لا يعطيه ، فلابد من أوصاف خاصة بالشيخ المربي هي :

أن يربيه الحق من صغره: فتراه في الطفولة معتزلا عن الصبيان ، وكأنه في الصبا شيخ ينبو عن الرذائل ، ويفزع من النقائص ، ثم لا تزال شجرة همته تعلو حتى يرى ثمرها متهدلا على أغصان الشباب ، فهو حريص على العلم ، منكمش على العمل ، ساع في طلب الفضائل ، خائف من النقائص.فلو تصورت التوفيق والإلهام الرباني ، كيف يأخذ بيده إن عثر ، ويمنعه من الخطأ إن همَّ، إنه يقيم على الفضائل ساترا عمله وصلته بربه بحيث لا يطلع على ذلك إلا ربه ، ولا يهمه الخلق مَدَحُوا أم ذَمُّوا ، فإن له خطا واحدا مع ربه ، يستميت فيه ويحرص عليه بروحه ، فهو لا يأتنس إلا بربه ، ويستوحش مما سواه ، فلو تصورت النبوة تكتسب لدخلت في كسبه.

من لا يصلح أن يكون شيخا:

إن من لم تتوافر فيه العوامل والأوصاف السابقة لا يصلح أن يكون شيخا ، ولا ترى ثمرة في اتباعه ، فلا يكون العيب عيب التصوف ومنهجه ، ولكن العيب عيب الشيخ الدَّعيِّ الذي نّصَّب نفسه ، ولم يستحي من ربه وعطل نفسه ، وعطل غيره معه . وهذا من أخطر أسباب انحراف الأمة في هذا العصر ، فمعظم مشايخ الطرق ليسوا على مستوى الدعوة إلى الله تعالى ، وليست لديهم بصيرة يعالجون نفوس العصاة بها ، ولا ترقية أرواح السالكين ، وكذلك غالبية علماء الشريعة والدعاة الآن ليسوا من الصوفية فأصبح علم أكثرهم غير مؤثر في القلوب ، كما كان السلف الصالح ومن تبعهم بإحسان من أهل مقام الإحسان ، من علماء الأزهر الشريف الذين تعلموا وعلموا الناس ابتغاء مرضاة الله وأظهر الله على أيديهم خوارق العادات فخلف من بعدهم خلف منهم من لا يستهويه إلا جمع المال ، ومنهم من يعلن عداءه للأولياء ولا يكلف نفسه القراءة عنهم لكيلا يقع في محاربة مع الله الذي يقول في الحديث القدسي :" من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب" فمهما فسد العصر فلابد من وجود أولياء لله.

فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" الخير فيَّ وفي أمتي إلى يوم القيامة".

ولقد قال صلى الله عليه وسلم :" خير القرون قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم ثم الأقرب فالأقرب " وإن كان بعض علماء الأزهر فيهم خير وحب للأولياء ولكن لم يشغلوا الساحة وكذلك حال العلماء في الأمة.

موقف أئمة الدين من التصوف

لما كان التصوف هو سبيل لإقامة أعظم مقام من مقامات الدين ، ألا وهو : " مقام الإحسان "، فإن أئمة الدين من أهل الفضل من جهابذة العلماء الذين أثروا العالم بعلمهم وورعهم وتقواهم ، كانوا يتتلمذون على أيدي المتصوفين ويشاركونهم في مجالسهم ، ليستفيدوا من علمهم ما لم يكن عندهم ، وليقتدوا بهم في صدق النية والورع والإخلاص.

فالإمام الشافعي والإمام أحمد بن حنبل[1] كانا يترددان على مجالس الصوفية ، ويحضران معهم في مجلس ذكرهم ، فقيل لهما : ما لكما تترددان إلى مثل هؤلاء الجهال؟.

فقالا: إن هؤلاء عندهم رأس الأمر كله، وهو: تقوى الله عز وجل ومحبته ومعرفته . ولقد كانا يكثران من الجلوس مع ولي الله أبي حمزة البغدادي ، ويطلبان الدعاء منه . ولقد قال الإمام أحمد لابنه عبد الله بعد صحبته لأبي حمزة البغدادي رضي الله عنه ،وبعد معرفته لأحوال القوم وأسرارهم ، قال لولده ناصحا : " يا ولدي عليك بمجالسة هؤلاء القوم ، فإنهم زادوا علينا بكثرة العلم والمراقبة والخشية والزهد وعلو الهمة".

ولقد ورد أن السبب في تصوف سيدي داود الطائي كلمة قالها له أستاذه الإمام أبو حنيفة رضي الله عنه ، بعد أن فرغ من الفقه على يديه ، قال :" يا أبا سليمان – كنيته – أما الأداة فقد أحكمناها . قال: وأي شيء بقي يا أستاذي ؟ قال : " العمل بها ".

فشمر داود عن ساعد الجد ، وتصوف حتى صار إماما من أئمة التصوف .

---

[1] طريق الله ج 1

وكان الإمام مالك رضي الله عنه يقول :" ليس العلم بكثرة الرواية ، وإنما هو نور يقذفه الله في القلوب ". وقد نسب إلى الإمام مالك [2] أنه قال :" من تشرع ولم يتصوف فقد تفسق ، ومن تصوف ولم يتشرع فقد تزندق ، ومن تشرع وتصوف فقد تحقق".

وكان الإمام أحمد بن حنبل مع مكانته في العلم يذهب كثيرا إلى سيدي معروف الكرخي ، ويسأله في المسائل الغامضة عليه.

وقال الإمام الشافعي رضي الله عنه :" صحبت الصوفية ، فأخذت عنهم كلمتين قولهم : نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل ، وقولهم : الوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك".

وقال سيدي عبد الوهاب الشعراني رضي الله عنه :" كفى شرفا بعلم القوم " أي بعلم التصوف " قول موسى عليه السلام (**قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا** (٦٦) (الكهف) . وهذا أعظم دليل على وجوب طلب علم الحقيقة أي التصوف وهو : علم الأخلاق الباطنة .

كلام الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه في أئمة التصوف:

قال رضي الله عنه :" لا تخلو الأرض من قائم لله بحجة ، إما ظاهرا مشهورا ، أو خائفا مغمورا ، لئلا تبطل حجج الله وبيناته ، وكم هم ، وأين أولئك؟، والله إنهم الأقلون عددا ، والأعظم عند الله قدرا"، ثم يصفهم رضي الله عنه فيقول :" هجم بهم العلم على حقيقة البصيرة ، فباشروا روح اليقين ، واستلانوا ما استوعره المترفون ، وأنسوا بما استوحش منه الغافلون ، عاشوا بأبدان أرواحها معلقة بالملأ الأعلى ، أولئك خلفاء الله في أرضه والدعاة لدينه".

ثم قال فيهم أيضا :" عقلوا الدين عقل وعاية ورعاية لا عقل سماع ورواية ، فإن رواة العلم كثير ودعاته قليل " أي أهل البصيرة والنور.

---

(2) إيقاظ الهمم لابن عجيبة ص 5 ، 6

موقف الصوفية من العلم والعلماء:

يقول الله تعالى :**{ ... إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ...(28)}[فاطر]** فخشية الله تعالى من الأهداف السامية عند الصوفية ، فالعارفون بالله تعالى أخشى الناس لله ، والمعرفة أساسها العلم بكل معانيه ، وليس العلم الديني فقط ، بل العلم بما تحويه الدنيا من معارف وعوالم تلفت الذهن ، وتمد القلب بطاقات الإيمان بمن أفاض الوجود.

قال الله تعالى :**{ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ (190)}[آل عمران]** ثم يبين القرآن الكريم أن أولي الألباب هم العارفون بالله :**{ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللهَ قِيامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ...(191)}[آل عمران].**

ولذلك يشهد الله لأهل معرفته وصلته بخشيته لأنهم أكثر الناس إيمانا عمليا تطبيقيا . بل إنه سبحانه قصر الخشية عليهم فهم العلماء بالله ، ومن كان عالما بالله يمنحه الله من العلم ما لم يكن يعلم ، **{...وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللهُ ...(282)}[البقرة]**وفي الحديث الشريف يقول الرسول صلى الله عليه وسلم: " من عمل بما علم ورثه الله علم ما لم يعلم".

ولقد ورث الصوفية المتصلون بالله تعالى علما غزيرا في مختلف العلوم ، وبرز منهم من أراد الله ظهوره ، وأخفى الله لحكمته من أخفاه .

وها هو حجة الإسلام أبو حام الغزالي يقول [1] : " لقد إنكشف لي أثناء خلواتي وجلواتي مع ربي أمور وعلوم ومعارف لا يمكن إحصاؤها واستقصاؤها . ولكن القدر الذي أستطيع أن أذكره لينتفع به هو : أني علمت يقينا أن الصوفية ، هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة ، وأن سيرتهم أحسن السير ، وطريقهم : أصوب الطرق ، وأخلاقهم : أزكى الأخلاق.

---

[1] المنقذ من الضلال ص 128.

بل لو جُمع عقل العقلاء ، وحكمة الحكماء ، وعلم الواقفين على أسرار الشرع من العلماء ، ليغيروا شيئا من سيرهم ، وأخلاقهم ، ويبدلوه بما هو خير منه ، لم يجدوا إليه سبيلا ، فإن جميع حركاتهم وسكناتهم ، في ظاهرهم وباطنهم ، مقتبسة من نور مشكاة النبوة ، وليس وراء النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به.

ولم يقتصر علم الصوفية المنبثق من نور النبوة عند التبحر في علوم الشريعة وأنوار الحقيقة فحسب ، ولكنهم برعوا في الكثير من علوم الحياة ، وغالب الظن أن النظريات العلمية وأسس المعرفة التي طلع بها العلماء العرب على العالم ، وأخذها الغرب وبنوا علمهم وحضارتهم عليها : كانت بطريق الإلهام ، كما حدث لأبي الكيمياء جابر بن حيان . الذي أعلن أنه تتلمذ وتصوف على يد أستاذه وشيخه الإمام جعفر الصادق رضي الله عنه ، والذي كان قد عمل في بيته معملا للكيمياء. قبل أن تعرف الجامعات والدراسات النظامية.

نعم لقد برز كثير من الصوفية في علوم الحياة من : تاريخ وتقويم وهندسة وطبيعة ورياضيات وغيرها ممن كانوا في العصور الإسلامية الأولى ، وممن وجد في العصور المتأخرة ، وهاكم أمثلة للتوضيح فقط وليس للحصر:

1- **<u>الإمام المقريزي</u>**- كان ذا صلة قوية بربه- يذكر الإمام السخاوي وهو يقدم لكتاب الخطط ، فيقول:" إنه كان على جانب عظيم من حسن الخلق وكرم العهد وكثرة التواضع وعلو الهمة والمداومة على التهجد والأوراد وحسن الصلاة وملازمته لبيته".

فلقد كانت له المؤلفات المتعددة في التاريخ والخطط والترجمة والسكَّة والأوزان والمقاييس ، علاوة على : التوحيد والحديث والفقه – وإن غلبت شهرة التاريخ عليه".

2- **<u>الإمام الدميري</u>**: الذي لعب دورا هاما في الثقافة الغربية ، واقتبس من علمه كثير من المستشرقين أمثال :" لين " والعلامة "يوكارت" والعلامة "هازل".

إنه صاحب كتاب " حياة الحيوان " الذي كان رائدا لكثير من علماء الفرنجة الذين استفادوا منه وحققوه واشتهر في الأوساط العلمية.

وعن الدميري يقول " لوسين ليكلير ": إنه أعظم عالم في علم الحيوان أنجبته العرب ، إنه كان نموذجا صوفيا عظيما ، ومازال مسجده في حي الحسينية بالقاهرة عامرا وله فيه مشهد يزار ، فهذان مثالان من القرون الإسلامية المتوسطة ، فما بالنا بالقرون الأولى ، فقد كان المسلمون في أوج نشاطهم وعنفوان قوتهم علما ودينا.

وفي القرون المتأخرة بدءا من القرن العاشر الهجري وما تلاه : برز علماء صوفيون آخرون من أمثال : الخواص والشعراني والدباغ ، وكثيرون مما لا يحدهم حصر ولا عد . فمنهم سيدي أبو خليل ومدرسته التي ما زالت تفيض بالمعارف والآداب في كل اتجاه حتى الآن ، ولا حرج على فضل الله تعالى.

1- **<u>الإمام سيدى عبد الوهاب الشعراني</u>** : برز في جميع العلوم الشرعية من أصول وفروع وأحكام وتصوف ، وغيرها مما هو متصل بعلوم الحياة ، وقد ترجمت كتبه إلى لغات أجنبية كثيرة ، وللأسف شُوِّهَ بعض منها مما هو متصل بسيرته الذاتية وتصوفه ، حتى اتخذ معولا لضرب الإسلام بسلاح التصوف المفترى عليه، وقد وصله الدخيل الذي قد دس في كتبه حقدًا وقد تبرأ منه في كتابه تنبيه المغترين ،لكن لم تكن وسائل الطباعة وإحكامها بالقوانين كما هي الآن ، فكانت فرصة للمستشرقين والمستغربين – كما هو الحال في السيرة الذاتية التي لسيدي أحمد البدوي رضي الله عنه التي شوهها الغرب لحقدهم عليه وتدمير معاهد الولاية الربانية التي قد تخرج أمثاله.

وما دروا أن الله فعال لما يريد ، ولابد من وجود علماء بالله وعارفين حتى تقوم الساعة!!.

يرى الإمام الشعراني أن علوم الحياة ضرورة دينية لتعمير الحياة ، فما شرعت الأحكام الشرعية إلا لتحقيق المصلحة ، فحيثما وجدت المصلحة فثم شرع الله تعالى . بل إنه يرى أن ذلك وسيلة للتقرب إلى الله عند أهل الحق والتصوف ، وكيف لا!! والرسول صلى الله عليه وسلم يقول:" من سعى في حاجة أخيه قضيت على يديه أم لم تقض كان كمن اعتكف في مسجدي هذا سنتين " ويقول الإمام الشعراني في كتابه " درر الغواص": إن أهل الحق

يشهدون جميع العلوم حتى الحساب والهندسة وعلوم الرياضيات والمنطق والعلم الطبيعي ، وإن هذه العلوم لها دلالة وطريق إلى العلم بالله".

2- **العارف بالله تعالى سيدي الخواص:** قبل أن يقول بالنظريات التجريبية " باكون وديكارت" قالها الحسن بن الهيثم عن الصوفية الذين كانت تتناثر العلوم من بين ثناياهم.

فها هو سيدي الخواص رضي الله عنه وهو الأمي الذي لم يدرس العلوم التقليدية ولكنه قد فاز برأس الأمر كله " تقوى الله ومحبته ومعرفته " فعلّمه الله ما لم يكن يعلم ، ففي القرن العاشر الهجري ، قد ألهمه الله تعالى أن يلقي بعض مسائل للشيخ عبد الوهاب الشعراني ، فكان منها ما يناسب قول الله سبحانه **:{... وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ...(44)}[الإسراء]** فقد أخبره بأن كل شيء في الوجود حي يدرك حتى الجمادات ، وأن الأشجار تتعاشق وقد تتلاقح ، فلقد أظهر على يد الشيخ الخواص بعض العجائب العلمية ، ليثير في المسلمين روح التعلم ، لأن هذا من شأن القدوة ، فلابد للحق من قوة تسانده ألا وهي قوة العلم.

3- **الشيخ الدباغ:** قد سئل عن تسبيح الحصى : فقال: إن كلام الحصى وتسبيحه دائم ، وأفاد أن الجمادات تعرف ربها ، كسائر الحيوان وأنها عابدة خاشعة ، قال الله سبحانه **:{... وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ...(44)}[الإسراء].**

ثم قال الشيخ الدباغ أيضا:" إن للأرض علما هي حاملته وعرفة به ، كما يحمل أحدنا كتاب الله تعالى ". ولقد علق الشيخ طنطاوي جوهري فيلسوف الإسلام في كتابه :" تفسير الجواهر" على ذلك فقال :" إن كلام الصوفية هذا هو ما كشفته العلوم الحديثة الآن ، فتعاشق الأشجار الذي قال به الخواص هو نفس ما أثبته العلم الحديث في نظرية التلاقح".

وقد ذكر العلماء حديثا : أن كل الجمادات متحركات ، ومعنى ذلك : أن كل قطرة مائع ، أو قطعة حجر مركبة من ذرات صغيرة ، وهذه الذرات الصغيرة ترجع إلى جواهر فردة ، والجواهر الفردة ترجع إلى عناصر أولية كالأكسجين والأيدروجين ، وهذه العناصر متى تحللت ترجع إلى الكهرباء ، فما هي إلا تموجات ، بينها مسافات متباعدات ، يدور بعضها على بعض ، كما تدور الكواكب حول بعضها ، وحول الشمس ، فالعوالم كلها متحركة دائما

لا سكون ، وحركات تلك الذرات لا فتور فيها ، فهي لا تهدأ من يوم أن خلق الله العالم إلى أن يفنى.

فالخلاصة :" أن كل موجود حي".

ثم قال العلامة الجوهري : إن كشف العصر الحديث قد أتى بثلاثة أرباع ما قاله الشيوخ الصوفية من باب الإلهام ، وقد نبه هؤلاء الصوفية الناس على وجوب الأخذ بأسباب العلم.

4- **<u>المدرسة الخليلية بالزقازيق</u>**: في العقد قبل الأخير من القرن التاسع عشر ظهر عارف بالله تعالى وهو سيدي الحاج محمد أبو خليل رضي الله عنه ، وبرغم أنه كان أميا يحفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب ولم يتلق علما في جامعة ولا مدرسة ولا معهد ، إلا أنه رضي الله عنه كان آية من آيات الله تعالى في هذا العصر ، فكان الله يفيض عليه في جميع العلوم الدينية والعلوم المتصلة بالإنسان والكون والحياة، ولا يقتصر الأمر على شذرات منها ومقتطفات كمن سبقه من الصوفية ، وإنما كان يتحدث في الكيمياء والفيزياء والهندسة والطب والرياضيات والعلوم الاجتماعية والكونية كمتخصص بارع ، بل كان يكشف للمتخصصين في هذه العلوم ما أشكل عليهم فيها، ناهيك عن علوم التفسير والحديث والتوحيد والفقه والأحكام والأدب والتاريخ والفلسفة والجغرافيا وكافة العلوم ، بل تعدى الأمر والفتح الرباني منه إلى أبنائه صلبا وعهدا ، فيوجد من يقرض الشعر الصوفي في محبة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم ، ويعالج قضايا العلم من خلاله: من علوم البحار، وعلوم الأجنة ، والذرة والكون، حتى ولو كان الملهم أميا أو شبه أمي ، أو غير متخصص ولا قارئ لما يقوله، وقد يفيض الله على قلبه بما يريد الله أن يبشر به العبد ، لتستقر نفسه ، ويطيب قلبه ، فتزاح عقده النفسية ، ويفرح بالحياة التي لمس فيها نور أحباب الله ، وليتحقق وعد الله في قوله سبحانه : **{ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ...(64)}**[يونس] وبذلك يقوي الإيمان ، ويحل اليقين ويتوب العاصي إلى ربه بسبب ذلك العطاء الرباني وشعر الإلهام.

وينشط طالب العلم ، ويستقيم المنحرف بسبب ذلك العلم الرباني والفتح الصمداني الذي يأتي من عالم الغيب بسبب دعاء الشيخ .

فكم رأينا هذه الفتوحات والإلهامات آلاف المرات ، ويشهدها حتى الآن كل من أتيحت له فرصة زيارة سيدنا الشيخ ولا حرج على فضل الله .

ولقد سمعت في إحدى المرات مريدا شبه أمي – أي – يكتب اسمه فقط بحروف ضخمة – فظل ينشد إلهاما مرتجلا لمدة ثلاث ساعات متواصلة بعربي فصيح ، موزون ومقفى في موضوع "علوم البحار".

وذلك كله من فضل الله تعالى وببركة حضرة النبي صلى الله عليه وسلم وسيدنا الشيخ أبي خليل ومدرسته المحمدية النورانية المتمثلة في أبنائه.

لأن الإلهام ينقي الصدور من صدئها ، ويرقي الأرواح، ويهذب النفوس ، لأنه من الملك القدوس.

وقديما تابت إلى الله تعالى شهيدة الحب الإلهي ستنا السيدة رابعة العدوية رضي الله عنها بسبب أربعة أبيات من الإلهام ساقها الله إلى قلب سيدنا ذي النون المصري رضي الله عنه ، حينما قال لها وهي تغني لشاربي الخمر في زورق في نهر دجلة:

أحسن من قينة ومزمار *** في غسق الليل نفحة البـاري

يا حسنه والجليد يسمعه *** بطيب صوت ودمعه جاري

وخده في التراب منعفر *** وقلبه في محبة البـــاري

يقول يا سيدي ويا سندي *** أبعدني عنك ثقـل أوزاري

فلما وصلت إلى الشاطئ ذهبت إلى دارها وتطهرت وصلت وظلت باكية مستغفرة حتى الصباح ، فلما رأتها خادمتها " عبدة" قالت : هل بك مرض يا سيدتي ؟ قالت : لا يا عبدة لقد سمعت البارحة شعرا من ذي النون كان كأنما يسَّاقط عليّ من السماء ، وتجلى الله لي محبوبا لا أستطيع أن أصف مداه".

وخلاصة ذلك أن التصوف: يشجع على العلم ويحث عليه ، سواء أكان علما دينيا أم علما متصلا بالإنسان والكون والحياة ، فالتصوف لا يعرف الجهل ولا الرهبانية ولا الشعوذة والدجل ولا البطالة ولا ادعاء الولاية والغيب ، فالولي لا يقول عن نفسه إنه ولي ولا يدعي أنه يستطيع أن يظهر كرامة ، بل إنه يسعى ليستر حاله عن الخلق ، وهو يتستر على كرامته حياء من الله الذي أظهرها ولا دخل للولي في ظهورها إلا أنها قد ظهرت على يده تكريما له وتشجيعا للعصاة في أن يتوبوا إلى الله تعالى ويقتدوا بذلك الرجل الصالح ، فالكرامة ليست للمتاجرة ولا للمفاخرة ، فهي فعل الله وحده ، وهي هادفة لفعل الخير وتجديد الروح الإسلامية في العصر المادي ، والعلم الحديث لا ينافي التصوف ، بل هو طريق من طرق الوصول إلى الله تعالى ، لأنه يدل عليه سبحانه ، ويوصل إلى أسرار جديدة من أسرار الكون :**{ قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ (101)}[يونس].**

الروح الإنساني

لقد حبا الله الإنسان بميزة جعلته سيد الكائنات ، إذ خلقه في أحسن تقويم حيث جمع تكوينه من عنصرين متضادين :

1- عنصر الجسد الذي يتناسب مع مهمته في الأرض، ليعمرها وفق منهج الخالق جل شأنه.

2- عنصر الروح الذي يضبط المسيرة ، ويمتد أثره من عالم الملك إلى عالم الملكوت، فيشارك ملائكة السماء في روحانيتهم وسبحاتهم ، وتنهال أشعة منه على العنصر المادي في الأرض (فتحكم) سيره وتنظم حركته ليؤدي الإنسان رسالة لحياة مزدوجة العنصر ، ثنائية الهدف ، مشفوعة المكان ، وكيف لا !! وهو من اختاره الله خليفة له ، فلا يصلح غيره ليحقق خلافة الله تعالى في أرضه . ولذلك فقد سخر الله له جميع الكائنات ، حتى الملائكة الذين خلقوا من عنصر واحد نوراني بحت ، جعلهم في طاعة وعبادة لله تعالى مستمرة :**{... لاَّ يَعْصُونَ اللهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ(6)}[التحريم]** فقد وَظَّفَ الله سبحانه من بينهم من يقوم بشأن الإنسان ، ويسهل له مهمته في كون الله ، بل لقد أسجدهم الله سبحانه لأول إنسان ظهر في هذا الوجود ، وهو سيدنا آدم عليه السلام (أبو البشر) ، سجود تشريف ومحبة وتوقير لما فيه من تأهيل لتلك المهمة الشاقة :**{ لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ (4)} [البلد]:** مشقة وعناء تحيط به من كل جانب إحاطة الظرف بالمظروف . ولكن سرعان ما يأمره الله سبحانه بتحريك أشواق الروح إلى بارئها ، فتنهال عليه بوارق النور والراحة والطمأنينة ، إذ يقول صلى الله عليه وسلم (أرحنا بها يا بلال) وذلك لأن الصلاة وهي صلة بين العبد وربه ، تكون معراج الوصول إلى مراقي الكمال في الملأ الأعلى ، فالإنسان: حفنة من تراب الأرض ونفخة من روح الله ، فإذا كان للجسد غذاؤه المادي ، فللروح غذاؤها المعنوي:**{ فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (29)}[الحجر]**. فقد سواه جسدا ثم نفخ فيه روحا من أسرار الله ، فقد خلق الله سبحانه آدم من : تراب – حمأ مسنون – صلصال كالفخار ،

فكل من فَكَّر في هذه القضية الخلقية ، فسوف يجد انتقالات عجيبة ، فيها صورة لتسوية متدرجة في أطوار من الخلق ، تتجه إلى غاية نقية فيها استعداد لقبول الروح واستقرارها في الجسد ، حسب مشيئة الخالق سبحانه كما وكيفا ، حالا ومآلا.

وتسكين الروح في الجسد في فترة التكليف هو : بداية الجود الإلهي المفاض عليه بالروح وتسكينه في المخلوق البشري الأول عليه السلام.

لقد اتضحت تلك القوى في بدن آدم عليه السلام ، وقد ظهرت بالفعل في أبنائه ونسله بعد ذلك مدى الحياة الدنيا ، ألا وإن تلك المواليد المنسولة باتت تسير في أطوار سبعة حتى تبلغ التسوية الصالحة لقبول الروح وإمساكها.

وهذه الأطوار – كما بين القرآن الكريم – هي :

سلالة من طين – نطفة – علقة – مضغة – عظام – لحم كاس للعظام – روح (خلق آخر) ، وذلك ما جاء في قول الله تعالى:

{ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن سُلالَةٍ مِّن طِينٍ (12) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ (13) ثُمَّ خَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنْشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ(14) }[المؤمنون]

السر في ترتيب الأطوار : أن النطفة مرتبة على السلالة الطينية وذلك بـ "ثم" العاطفة التي تفيد الترتيب والتراخي الزمني ، وذلك الزمان هو الذي تتولد فيه الأغذية ويحدث بها النماء.

والعلقة مرتبة على النطفة المستقرة في قرار مكين بـ "ثم" : لحاجة النطفة في الاستكنان إلى زمن حتى تتحقق بتسلط الحرارة وإحاطة الأغشية وتفتح فوهات العروق فإن العطف هنا بثم يفيد الزمن المطلوب.

وجاء العطف فيما بعد ذلك من المراتب بالفاء التي تفيد الترتيب والتعقيب: لسهولة الانتقال فيها ، فلا تقتضي مهلة ، إذ تحوُّل العلقة إلى مضغة ليس إلا بالتصلب . والمضغة إلى عظام بزيادة التصلب ، وإكساء العظام باللحم متيسر من الغذاء.

أما المرتبة السابعة ، وهي إنشاؤه خلقا جديداً ، فقد عادت الآية إليه بالعطف الأول – أي بثم : لأنها مرتبة نفخ الروح التي لها وضع خاص، وتفاض بكيفية خاصة، فالمهلة هنا : تصعيب وتهويل – على غير المبدع المصور .. لإلزام النفوس الإقرار بالقهر وعظمة الخالق ، بخلاف "ثم" الزمنية في المرتبتين الأوليين[1] .

حقيقة الـــروح

إن الروح سر من أسرار الله تعالى لم يأذن الخلاق العليم في كشفه رحمة بعباده وحفظا لعامة الخلق من تكليفهم بإدراك ما لا يستطيعون إدراكه.

وصدق الله سبحانه إذ يقول :**{ وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوح قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً(85)}[الإسراء].**

وها هو الإمام علي زين العابدين رضي الله عنه يقول :

يا رُبَّ جوهر علم لو أبوح بــه * لقيل لي أنت تعبد الوثنـــا**

ولاستحل رجال مسلمون دمي * وكان أقبح ما يأتونه حسنا**

الروح وكبار الصوفية والعلماء:

لقد رأى كبار الصوفية والمحققون من علماء التوحيد أن الروح : جوهر مجرد عن المادة الجسمانية وعوارضها ، لها تعلق بالبدن : تعلق التدبير والتصريف ، فالموت عبارة عن قطع هذا التعلق ، وهذا الرأي قد دلت عليه نصوص الكتاب والسنة ، وقادت إليه الإمارات الحدسية والمكاشفات الذوقية[2] .

---

(1) تذكرة الأنطاكي ج 2 ص 5 ، الهوامل والشوامل لأبي حيان وابن مسكويه ص 25.

(2) الكشكول للبيهقي مع بعض تصرف ص 543.

ويرى ابن مسكويه أن : الروح شيء يضاد الأجساد والأعراض ، فليست بجسم ولا عرض ، لأنها لا تستحيل ولا تتغير ، وأنها تدرك جميع الأشياء بالسَّوية، ولا يلحقها فتور ولا كلال ولا نقص [3] ، كما أن في الروح شوقا إلى ما ليس من طباع البدن ، وفيها حرص على معرفة حقائق الأمور الإلهية ، وميل إلى ما هو أفضل من مطالب البدن ، وأن انصرافها أحيانا عن اللذات البهيمية يدل دلالة واضحة على أنها من جوهر أعلى ، لأنه لا يمكن في شيء من الأشياء أن يتشوق إلى ما ليس من طبيعته ولا يأتلف مع طباعه [1] .

وإذا كانت الروح تأخذ كثيرا من مبادئ العلوم عن الحواس ، فإن لها من ذاتها مبادئ أخر وأفعالا لا تأخذها عن الحواس ألبتة كالمبادئ الشريفة العالية ، والقياسات العقلية الصحيحة [2] .

غرض الصوفية من الروح:

تأكيدهم بأن الروح لديها استعدادا لقبول الفيض الإلهي ، والقرب من منبعها الأصيل ، وهي الحال التي يسميها الصوفية بالقرب أو الجمع أو الفناء.

وبذلك اتضح الفرق جليا بين عالم الروح وعالم البدن ، فما كان يشغل حيزا من الفراغ وله تقدير كمي وأعراض فهو من عالم المادة.

وما لم تكن له كمية ولا مساحة ولا تحيز ، فهو من عالم الروح.

إلا أن الله سبحانه قد خلق الإنسان جامعا لهذين العالمين ، وقيل : إن الروح أُدِعت الجسد لتكسب بعض الكمالات من المجاهدات التي تتم بينهما ، حتى تتم لها الرؤية والمشاهدة فيصدق الإيمان [3] ، ثم تصير إلى أهلها ، وتسبح في بحر الحقيقة وتذوق فيض الجلال والكمال، وترى مشرق الأنوار [4].

---

[3] تهذيب الأخلاق لابن مسكويه ص 7

[1] تهذيب الأخلاق لابن مسكويه ص 9

[2] تهذيب الأخلاق لابن مسكويه ص10

[3] شجرة الكون لابن عربي ص 7

[4] الكشكول للبيهقي ص481

وفي " حياة القلوب"- على هامش " قوت القلوب " أن الروح:
تطلق ويراد بها: البخار اللطيف الذي يصعد من منبع القلب ويتصاعد إلى الدماغ إلى جميع أجزاء البدن بواسطة العروق ، فيعمل في كل عضو بحسب ما يقتضيه مزاج ذلك العضو واستعداده وهو منبع الحياة، وهذا البخار كالسراج في البيت ، وقد تطلق الروح ويراد بها: الملك المنزل بالوحي على الأنبياء ، والصوفية إذا أطلقوا لفظ الروح والنفس والعقل فإنهم يريدون بذلك : النفس الإنسانية التي هي محل التعقل.
وقد يقال : إن الروح والعقل والقلب: سر من أسرار الله تعالى فلولا معرفتكم في نظركم لكان للوضع أساسه.

<u>الروح عند أهل التحقيق من أهل السنة:</u>

1- يرى بعضهم : أنها الحياة.
2- يرى البعض الأخر أن الروح: أعيان مودعة في هذه القوالب:
فالروح : لطيفة مودعة في هذا القالب، هي محل الأخلاق المحمودة.
فالروح والنفس : من الأجسام اللطيفة في الصورة ، ككون الملائكة والشياطين بصفة اللطافة، وكما يصح أن يكون البصر محل الرؤية ، والأذن محل السمع، والأنف محل الشم، والفم محل الذوق.
والسميع والبصير والشام والذائق إنما هي الجملة ، التي هي الإنسان ، فكذلك محل الأوصاف الحميدة : القلب والروح ، ومحل الأوصاف المذمومة : النفس والنفس ، جزء من هذه الجملة ، والقلب جزء من هذه الجملة ، والحكم والاسم راجع إلى الجملة [1] .

<u>السـر</u>

---

[1] الرسالة القشيرية للإمام القشيري ص 249،250.

وأما السر فمنهم من يرى أنه : لطيفة مودعة في القالب كالأرواح.

وهو محل المشاهدة ، كما أن الأرواح محل للمحبة ، والقلوب محل للمعارف.

وقال آخرون : السر: ما لكَ عليه إشراف ، وسر السر : ما لا اطلاع عليه لغير الحق سبحانه.

ويرى الصوفية في كافة اصطلاحاتهم أن : السر ألطف من الروح ، والروح أشرف من القلب .

ويقولون : الأسرار معتقة عن رق الأغيار من الآثار والأطلال .

ويطلق لفظ " السر " على ما يكون مصونا مكتوفًا بين العبد والحق سبحانه في الأحوال : أي في الواردات على العبد – وعلى هذا الرأي يحمل قول من قال:

أسرارنا بِكْرٌ لم يفتضها وَهْمٌ واهم.

ويقولون: صدور الأحرار قبور الأسرار.

وقالوا: لو عَرَفَ زرِّي سري لطرحته.

فهذا طرف من تفسير إطلاقاتهم ، وبيان عبارات القوم فيما انفردوا به من ألفاظ ذكرناها على شرط الإيجاز.

الإسلام وثنائية الكائنات:

لقد سبق القرآن الكريم العلم في إحدى قضاياه المعاصرة وهي:

" ثنائية الكائنات وازدواجها " قال الله سبحانه **:{ وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ(49)}[الذاريات]** فهذا إخبار من الله جل شأنه يشمل أشياء الكون كلها بلا استثناء بلا نقص ولا نسخ حتى تقوم الساعة.

أنواع الثنائيات:

لاشك أن الإنسان يعجز كل العجز عن أن يحيط بثنائية كل شيء خلقه الله تعالى ، فذاك مطلب يستحيل تحقيقه ، ولكن مالا يدرك كله : لا يُترك كُلُّه.

فهناك الثنائية النوعية : ذكر وأنثى ، وهناك ثنائية عقدية : مؤمن وكافر . وثنائية سلوكية : مطيع وعاص ، ملائكي النزعة وشيطاني المنزع ، ذاكر وغافل ، ولي مقرب ومحجوب مبعد ... إلخ.

الكشف العلمي التجريبي وازدواجية الكائنات:

إن الكشف العلمي قرر أن عيون الناس وخواطرهم قد رأت هذا الازدواج في الذكر والأنثى والسماء والأرض ، والقرب والبعد، والطاعة والعصيان ، والحياة والموت ، ورأته عيون الآلات والمجاهير في السالب والموجب ، والانتظام والانحلال ، فصارت الأشياء التي رأتها العيون أمثلة للازدواج "صغرى".

وصارت الحقائق التي رأتها الآلات والمجاهير أولا كبرى ، وصار من حق هذا الكشف العلمي أن يكون الدليل الأول على صدق قضية القرآن ، وبمعنى أدق يكون القرآن دليلا على صدق الكشف العلمي ، وأنه قد وصل غايته ولن يبطل باكتشاف آخر يناقضه.

الكشف الرباني لدى العارفين بالله تعالى:

الكشف: نور في القلب يدرك به الولي عين الشيء بقوة البصيرة ، فيطلعه الله على ما يشاء أن يطلعه عليه بحسب حاله، وهذا من عظمة شريعة الإسلام ولاسيما مَنْ تَنَوَلَهَا مذاقا صافيا من يد الورثة المحمديين من آل بيت النبوة الذين يدأبون في تطبيق روح الشريعة، وذلك : تهذيبا للنفوس ، وترقية للأرواح ، وتصفية للقلوب ، وتطهيرا مستمرا للأشباح حتى تكون محلا لتلقي الأنوار من الرب الفتاح،فيغدو المسلم إسلاما حقيقيا،والذي انهالت على قلبه الذي صفا بنور

المصطفى صلى الله عليه وسلم : ذا مرآة صافية تنعكس على صفحة قلبه صور الأشياء منحة من الله لذلك الولي وبشرى عاجلة من بارئ الأرض والسماء ، قال الله سبحانه : **{ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ...(64)}**[يونس] وهذا فضل من الله ونعمة لهذه الأمة ، لأنه يرجع على أفرادها من محبي الأولياء : بالتوبة وصفاء القلوب بحلاوة الحب والإيمان.

ولا دل على ذلك من أن الصحابة رضوان الله عليهم كانت لهم مَرَاءٍ قلبية، ومكاشفات وأحوال ربانية لاعتصامهم بحبل الله تعالى:**{... وَمَن يَعْتَصِم بِاللهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (101)}[آل عمران].**

ولقد كان أسوتهم ونبراسهم خير البرية صلى الله عليه وسلم ، وهو النور الذي نزل عليه النور ، فكان نورا يتحرك بين الناس :**{... قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ (15) يَهْدِي بِهِ اللهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ(16)} [المائدة]** فكانوا نعم المتقين لله ، والمتأسين برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فمنحهم الله السكينة والأمن ، وتغشاهم برحمته ، وكشف لهم عين البصيرة ، فساروا على نور الله ، حتى ملكوا ما بين الخافقين ، وامتدت دعوتهم حتى طوقت المشرقين.

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُوراً تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(28)}[الحديد].

فلنأخذ دليلا على أنهم كانوا يرون بنور الله تعالى ، ويكشف الله لهم عن الأشياء:

الخليفة العادل سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي كان يخطب المسلمين على منبر النبي صلى الله عليه وسلم في المدينة المنورة.

وكان قد سَيَّرَ جيشا للمسلمين في بلاد الشام لقتال الكفار هناك.

فبينما سيدنا عمر يخطب على المنبر ، إذ به يرى بنور الله تعالى الذي في قلبه : الجيش الإسلامي في موقعه الحربي ، ويكشف خطة الكفار التي حيكت لتطويق الجيش بواسطة فرقة الفرسان من خلف الجبل الذي يحمي ظهر المسلمين ، فنادى على قائد جيش المسلمين :" يا ساريةُ الجبلَ، يا ساريةُ الجبلَ "، فيسمع القائد المؤمن نداء الخليفة المؤمن ، فيرسل إليهم من

واجههم من فرسان المسلمين فأبادوهم ، وتضيع خطة جيش الكفار وينتصر المسلمون . ثم نعرج بدليل ثان تأكيدا لموضوع كشف الصحابة وفراستهم الإيمانية ، وذلك أن سيدنا عثمان بن عفان رضي الله عنه ، وفي زمن خلافته كان يجلس مع بعض أصحابه ، فدخل عليه أحد المسلمين الذي كان قد نظر إلى امرأة أجنبية في الطريق شزرا وتأمل محاسنها ، فقال ذو النورين رضي الله عنه لمن حوله والرجل من بينهم :" يدخل عليَّ أحدكم وآثار الزنا بادية على عينيه؟!! فقال الرجل منكرا:" أوَحْيٌ منزل بعد رسول الله ؟!! فقال الخليفة :" لا، ولكنها فراسة وبصيرة ونور إيمان ".

ولقد قرر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وأمر باتقاء هذه البصيرة حتى يضمن صيانة الأحكام الشرعية ، والالتزام بسلوكيات الإسلام فقال صلى الله عليه وسلم :" اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله". فهذا قُل من كُثر من شفافية الصدر الأول للإسلام ، وذلك الفضل حاصل وموجود حتى الآن بما يحيي أموات القلوب ، وينير الطريق للسالكين للوصول إلى رضاء علام الغيوب ، فالحمد لله الذي جعل في أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هذه النماذج الداعية إلى الله تعالى على بصيرة الإيمان إلى قيام الساعة: فلا تقل ذهب الأولون فكل من سار على الدرب وصل.

أنـواع الكشف:

إن الكشف على ثلاثة أنواع :

النوع الأول : قوة الخاطر وسرعة الفهم وتخيل الأشياء ، وتكرر ذلك مع صدق الخاطر في كل مرة ، فيصير في قوة الكشف وهو طوالع الكواشف.

النوع الثاني: تمثُّل الأشياء الغيبية ومواقعها في القلب ، فَتُدْرَك بالتحقيق عند وقوعها ويتكرر ذلك.

<u>النوع الثالث</u>: إدراك الأشياء بقوة البصيرة فيقول باطلاع محقق يطلعه الله سبحانه وتعالى عليه متى شاء.

<u>علاقة السمع والبصر بالكشف:</u>

إن السمع والبصر قوتان من قوى الكشف ، ودرجتان عظيمتان يهبهما الله سبحانه وتعالى للولي .

ولقد قال سيدنا الأستاذ الشيخ أبو خليل رضي الله عنه لأحد مريديه المشهود لهم بالاجتهاد :" إن الله سبحانه وتعالى يعطي الولي درجتي السمع والبصر ، فيرى الولي من هو في أقصى الأرض ويسمع من يناديه كذلك".

وبحمد الله سبحانه وعونه قد أمد الله شيوخ هذه الطريقة ، ومازال الإمداد يتزايد يوما بعد يوم ولا حرج على فضل الله سبحانه وتعالى ، الذي يقول في الحديث القدسي **:" ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ، ورجله التي يسعى بها ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذ بي لأعيذنه"**.

<u>موقف بعض العلماء من هذا الحديث من ناحية مدلوله:</u>

يرى بعض العلماء أنه يجب صرف السمع والبصر والبطش والسعي عن ظاهرها إلى المعاني الكنائية والمجازية، وأن اللفظ ليس له حقيقته ، لأنهم وقعوا في فهم ضيق قد ألمح إليه المستشرقون ليفسدوا المعنى الحقيقي ألا وهي قضية الاتحاد والوحدة والحلول التي تقول بها الفلسفة الإغريقية ، ويرمي المستشرقون والمستغربون وبعض علماء المسلمين بها بعض الصوفية مثل ابن عربي والحلاج.

بينما يرى العلماء المحققون وأكثر الصوفية خلاف ذلك من وجوه:

الأول : أننا في معرض تكريم الله لأحبابه وأوليائه الذين تفانوا في طاعته ومحبته ، فإذا كان اللفظ منصرفا عن حقيقته ، فما معنى تكريم الله لأوليائه إذا كان سمعهم سيكون سمعا عاديا ، وبصرهم بصرا عاديا .. إلخ.

الثاني: أن اللفظ على حقيقته ، لأن المعنى في " كنت سمعه الذي يسمع به " أي أصبح لا يسمع السماع العادي كالأفراد العاديين بقوانين السمع العادية ولكن الله تعالى قد منحه قوانين أخرى للسمع لأنه أصبح يسمع بالله ، ولما كانت قدرة الله غير مقيدة ولا محددة بقوانين فقد أصبح الولي يسمع بالله المطلق سماعا مطلقا ، أي يسمع كل ما في الكون بالتجرد عن الماديات التي تنطبق قوانينها على ذويها . فمن المعروف أن الميت بخمود حركته المادية فإنه يسمع كل ما في الكون فهل هذا السمع يجعله يشارك الربوبية في عظمتها وتفردها كما يقول بذلك من قاسوا المسألة بمقاييسهم الضيقة؟!!.

وكذلك في البصر ، فإن الولي أصبح يؤمن بالغيب إيمانا قويا هو : إيمان حق اليقين ، نعم لقد آمن بالغيب كأنه شهادة فصير الله له الغيب أمامه شهادة ، لأن الجزاء من جنس العمل، فإذا أبصر فإنه لا يبصر بقوانين الإبصار المعروفة المحددة بقوانين المادة من مسافة وزمن وما إلى ذلك ، وإنما أصبح يبصر بالله المطلق ، بصرا مطلقا ، فهو يبصر كل ما في الكون ، سواء أكان الولي حيا أم منتقلا . ومما يدل على أن الولي يسمع كل ما في الكون ويبصره ، سواء أكان حيا أم منتقلا ، وبما أن الحي لا يتكلم عن نفسه ، بل يحافظ على كرامته ويتستر عليها ، حياء من الله سبحانه وتعالى الذي أظهرها على يده ، ولكن الولي المنتقل غاب عن دائرة التكليف ، فيمكن التحدث بما كان منه .

إذًا الكرامات لا يولها العارفون ، ولا يتحدثون بها ، لكن من رآها منهم يمكنه أن يتحدث بها على أنها هادفة إلى تتويب العصاة ، وتنشيط الروح الإسلامية في العصر المادي ، وهي بحمد الله وتوفيقه كثيرة جدا في الطريقة الخليلية، ولا تحصى بكمٍّ ولا كيف ، نظرا لعناية الله بشيوخها ، وحب الرسول صلى الله عليه وسلم الفياض لهم ولمريديهم الذين يرفعون راية الإسلام خفاقة

في كل مكان وجدوا فيه كنماذج إسلامية رفيعة المستوى الديني والروحي والعملي بلا ادعاء ولا شطحات ولا بدع ولا مخالفات ، وإنما ذكر الله دأبهم ، وحبه شغلهم ، وشيوخهم أدلاء على الله وقدوة لهم ظاهرا وباطنا.

دليل سماع الولي المنتقل

ومما يدل على سمع الولي وبصره لكل من في العالم بعد موته تلك الواقعة التي حدثت من الصحابي الجليل: ثابت بن قيس رضي الله عنه.

فبعد أن استشهد في موقعة " اليمامة " مَرَّ به واحد من المسلمين وكان حديث عهد بالإسلام فرأى على جثمان " ثابت " درعه الثمينة، فظن أن من حقه أن يأخذها لنفسه ، فأخذها ... وبينما رجل من المسلمين نائم : أتاه ثابت في منامه ، فقال له : " إني أوصيك بوصية ، فإياك أن تقول هذا حلم فتضيعه...

" إني لما استشهدت بالأمس ، مر بي رجل من المسلمين، فأخذ درعي ، وإن منزله في أقصى الناس ، وفرسه يستن في طوله ، أي – في لجامه وشكيمته.

" وقد كفأ على الدرع برمة ، وفوق البرمة رَحْلٌ ، فأت خالدا ، فَمُرْهُ أن يبعث فيأخذها ، فإذا قدمت المدينة على خليفة رسول الله أبي بكر ، فقل له : إن عليَّ من الدين كذا وكذا فليقم بسداده ". فلما استيقظ الرجل من نومه ، أتى خالد بن الوليد ، فقص عليه رؤياه ، فأرسل خالد من يأتي بالدرع ، فوجدها كما وصف ثابت تماما ، ولما رجع المسلمون إلى المدينة ، قص المسلم على الخليفة الرؤيا، فأنجز الخليفة وصية ثابت . وليس في الإسلام وصية ميت أنجزت رسميا بعد موته سوى وصية ثابت بن قيس رضي الله تعالى عنه.

الروح وغذاؤها النوراني

إن الله سبحانه قد أهلَّ الإنسان ليكون خليفة له في أرضه : بأن خلقه في أحسن تقويم :**{ لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ (4)}[التين]** بأن جمع في خلقته بين الجسد المادي الترابي ، وبين الروح النورانية التي تشرف وتستشرف وتُشْرِف على الملأ الأعلى ، عالم الملائكة العلوي.

وأما الجانب الجسدي الترابي ، فهو يتعامل مع أصله ومنبته : الأرض .

وبذلك يكون للإنسان تعاملان في وقت واحد:

1- تعامل مادي مع الأرض : يشيدها ويعمرها ويتحرك عليها ، ويغذي عنصر الجسد منها طعاما وشرابا ومناما ، ويؤدي رسالته من خلالها وفق منهج الله تعالى:**{.. فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا ... (15)}[الملك].**

2- تعامل روحي مع السماء : بالذكر والحب والعمل الصالح :**{... إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ...(10)} [فاطر]، {... مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءْ (24)تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا..(25)}[إبراهيم]** فالكلمة الطيبة: كلمة الإخلاص والتوحيد " لا إله إلا الله " وفي الأثر الثابت " لو وضعت لا إله إلا الله في كفة والسموات السبع والأرضون السبع في كفة أخرى لرجحت كفة لا إله إلا الله ".

ولقد حُرِمَ الكفار والعصاة من الغذاء الروحي أي من التعامل مع السماء ، ولم يبق لهم إلا الغذاء الجسدي الناتج من التعامل مع الأرض وفق منهجهم الوضعي المادي البحت فحرموا الأجر عليه رغم تفانيهم في الأخذ بأسباب العلم الدنيوي والعمل الجاد المثمر لرفاهية الحياة فحبط عملهم لبعدهم عن حقائق الإيمان وإدبارهم عن الآخرة.

قال الله سبحانه في تقييم عملهم المادي المجرد :**{ وَقَدِمْنَا إِلى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَّنثُوراً(23)}[الفرقان].**

ونظرا لفشلهم في التعامل مع السماء ، فقد بطل – أخرويا – تعاملهم مع الأرض .

ولما لم يستطيعوا تحقيق الموازنة مادة وروحا ، تبرأت منهم الأرض والسماء، لأنهم لم يأخذوا منهج حركتهم من خالق الأرض والسماء فباءوا بالخسران والخذلان ، ولا يمهلون في قضية العذاب الأليم ، بل يسرعون إليه بمجرد خمود حركتهم بالموت.

قال الله سبحانه وتعالى في حقهم :**{ فَمَا بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ وَمَا كَانُوا مُنظَرِينَ(29)}[الدخان]** وبهذا خرجوا عن دائرة الخلافة ، وباءوا بالخذلان الأكبر ، وما ظلمهم الله ولكن الناس أنفسهم يظلمون.

لكن "المؤمن" الذي غذى قلبه وروحه بالمعارف الإيمانية ، وذكر الله على جميع حالاته ، وأطاع خالقه واتقاه ، فإنه قد حقق خلافة الله له على هذا الكوكب ، وأدى رسالته في السماء ، ودليل نجاحه أنه يوم يموت يبكي عليه كل مكان في الأرض قد عبد الله فيه : فكرا أو ذكرا أو صبرا أو شكرا . قياما أو قعودا أو سجودا . فمحل سجوده في كل مكان سجد فيه لله سبحانه سجدة يبكي عليه، هو والمكان الذي يواجهه في كل سماء لتصعد إلى الله .

وقد ورد أن ذكر الذاكرين بإخلاص يصعد إلى السماء وله دويٌّ عند الملائكة ، فتقول حملة العرش: صوت من؟ فتقول ملائكة من غيرهم : صوت عباد لله يذكرون الله في الأرض.

<u>الصورة المحمدية الأزلية والنور الذاتي:</u>

من كتاب" الإنسان الكامل"للعلامة: عبد الكريم الجيلي :" أن الله تعالى خلق الصورة المحمدية من نور اسمه :" البديع القادر"، وقد ورد في عدد من الأحاديث : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد خُلِقَ من نور ، وأن الذي خَلَق ذلك النور هو " رب العزة " جل وعلا:

وبناء على ذلك فإن بعض المحبين للرسول صلى الله عليه وسلم يردد هذه العبارة :" يا نورا من نور الله".

والواقع أن ذلك تعبير عن حبهم ، وامتداحهم للحبيب صلى الله عليه وسلم ، ولا بأس فيه ولا نكران، فنحن مأمورون بحبه والاقتداء به صلى الله عليه وسلم.

ومن بواعث المدد والإمداد بالنور ، فإننا نجد في نفس المرجع صيغة للصلاة على الحبيب صلى الله عليه وسلم ، وهي تحتاج إلى توضيح مع أنها مجربة في تقوية البصر عند ترددادها بكثرة ، وقد تُقَوِّى من شحنات النور إلى القلب ، فتقوي البصيرة أيضا لدى العشاق والسالكين طريق النبي صلى الله عليه وسلم على يد عارف بالله سبحانه وتعالى يكون من المنفوحين من النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد ينعم الله عليه برؤيته صلى الله عليه وسلم يقظة ومناما ، وقد أكرمه ربه بسجود قلبه دائما لمولاه ، فما في قلبه إلا الله والانصراف عما سواه . وهذه الصيغة هي:
اللهم صل على سيدنا محمد النور الذاتي والسر الساري في جميع الأسماء والصفات.

موقف علماء أهل السنة والجماعة من تلك الصيغة:

إن هؤلاء العلماء يقولون : إن أسماء الله تعالى على قسمين : أسماء وصفات، وأن الله جلت قدرته ، قد تجلى على نبينا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بأسماء الذات ، وتجلى على بقية الأنبياء بأسماء الصفات.

ولذا يقال: إن نوره صلى الله عليه وسلم "ذاتي" أي أن الله سبحانه قد أفاض عليه بمعرفة أسماء الله الذاتية أي التي تتعلق بالذات ، وأن الله سبحانه قد تجلى على الأنبياء السابقين بمعرفة أسماء الله الصفاتية . والله أعلم .

أصل المخلوقات ونورها:

إن رسولنا صلى الله عليه وسلم أصل لجميع المخلوقات ، فهي من نوره وجدت ، وبذلك يكون بحق: النعمة المسداة والرحمة المهداة لجميع خلق الله ، فبسببه ومن أجله خلق الخلق : ناطق وصامت ، فلا عجب أن يقول خالقه سبحانه في محكم تنزيله : **{ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ(107)}[الأنبياء].**

العلم الحديث وموقفه من النور المحمدي:

قبل التقدم العلمي الحديث ، كان علماء الشريعة يتحرجون من موضوع أولية النور المحمدي ، وأنه أصل لجميع المخلوقات ، مع وجود أحاديث ثابتة بروايات متعددة رويت بطرقها وأسانيدها عن : جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ، وكم أثيرت مناقشات ، وحمى وطيس الجدل واحتدم النزاع، حتى آثر الكثيرون عدم التعرض لهذا الموضوع ، وخصوصا : ما أثير حول الحديث القدسي :" خلقت الأشياء من نورك وخلقتك من نوري " فلقد تَوَهَّم المانعون أن نور النبي صلى الله عليه وسلم جزء من نور الله تعالى ، وهذا ظاهر الاستحالة واضح البطلان ، لأن ذات الله تعالى غيب فلا يجوز التفكر فيها ، وقد أجمع المحققون من علماء التوحيد أن الشيطان إذا حاول أن يحدث النفس في هذه القضية ، فما على المسلم إلا أن يقول في نفسه:" لا يعلم ذات الله إلا الله "، نعم لا أحد على الإطلاق يعرف عن حقيقة ذات الله تعالى شيئا : لا نبي ولا ولي ولا ملك فلا يعرف ذات الله إلا الله. وأما حديث العروج إلى السماء فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد تلاشت صفاته البشرية تماما فرجع إلى أصله "النوراني" حيث قد أصبح هيلولة نورانية ليس فيها من
صفات البشرية شيء .

حتى رأى النورُ النورَ ، وسمع النورُ النور. والدليل على ذلك أن الصحابة قد سألوه صلى الله عليه وآله وسلم في صبيحة المعراج : كيف رأيت ربك؟ قال :" نوراً أنَّى أراه"، وفي رواية:" رأيت نورا".

انشطار الذرة:

وحينما حدث التفوق العلمي بانشطار الذرة ، وجد أن أصغر وحدة فيها وهو ذلك الجزئ الذي لا ينقسم أبدا وهو :"إلكترون": شعاع من النور ، سواء أكانت ذرة حديد أم خشب أم ماء أم تراب ، ذرة في العالم العلوي أو في الأرضي .

وبذلك يكون انشطار الذرة قد أعاد إلى الحديث رونقه الطبيعي الذي جعله مغمورا فترة من الزمن، ويكون المعنى:

خلقت ذرات الأشياء كلها العلوي والأرضي من نورك.

ومعنى :" وخلقتك من نوري " ليس جزءا من كل ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، وإنما المعنى : وخلقتك من نور مخلوق لي ، حيث قلت له : كن نورا فكان نورا مخلوقا **:{ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ(82)}[يس].**

وبذلك يجمع بين الأحاديث الثابتة كلها ، ويظهر الحق لكل ذي عينين .

فحمدًا لله تعالى حيث قد انتفت الشبهة الإيهامية التي كم لصقت بعقول الكثيرين ، فرفضوا أحاديث واردة بإثباتها ونُقّولها عن العدول أهل الضبط والكمال . ولتمام الإفادة نكرر شرح الحديث:

فالعبارة الأولى :" خلقت الأشياء من نورك" أي خلقت ذرات الأشياء كلها من نورك . إذ إن العلم المعاصر قد كشف إعجاز الإسلام فيه ، وصدق الرسالة المحمدية الخالدة.وبرهن على أنه صلى الله عليه وسلم أصل جميع الموجودات ، لأنها قد خلقت من نوره ، فإنه لما حدث الكشف العلمي الهائل للطاقة بانفجار الذرة : وجد أن أصغر وحدة فيها التي قسيم لها ولا تنشطر ، وهو ما يسمى بالجزئ الذي هو :" إلكترون" ما هو إلا شعاع من النور ، وذلك يكون في أي ذرة في الوجود لجامد أو مائع ، علوي أو أرضي ، عاقل أو غيره ، ناطق ، أو صامت.

إذًا معنى الحديث : خلقت ذرات الأشياء كلها من نورك.

وأما معنى :" وخلقتك من نوري":

أي وخلقت نورك بأمري وتكويني : كن نورا فكنت نورا . فهو صلى الله عليه وسلم من نور مخلوق لله تعالى بقول :" كن فكان " وليس معناه من نور ذاته الصمدانية ، تعالى الله سبحانه عن ذلك علوا كبيرا.

وبذلك يستقيم معنى هذا الحديث ، وأحاديث جابر الثابتة رضي الله عنه التي منها :" **ألم تعلم أن الله خلق الأشياء من نور نبيك يا جابر** " أي خلق ذرات الأشياء وأصل المكونات للذرة من نوره صلى الله عليه وسلم الذي خلقه الله بأمره ليكون أصلا للموجودات.

فقد أخرج الإمام أحمد والبخاري في تاريخه وصححه الحاكم من حديث " ميسرة الفجر" : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" كنت نبيا وآدم بين الروح والجسد " وهذا الحديث يوجد في المراجع الآتية لمن ليس عنده الكتب الصحاح:

1- كتاب تمييز الطيب من الخبيث لابن الدبيغ الشيباني ص122.
2- كتاب الخصائص الكبرى للشيخ الإمام جلال الدين السيوطي جـ 1 ص 9.
3- كتاب المواهب اللدنية للقسطلاني جـ 1 ص6.
4- كتاب الوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزي جـ1 ص 67.

فهذا الحديث السابق يوضح ويدلل حقيقة على أن : سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم :" أول خلق الله ".

ولقد روى أبو نعيم والديلمي وغيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" كنت أول النبيين وآخرهم".

وروى ابن سعد عن قتادة بلفظ :" كنت أول الناس".

خلاصة هذا الموضوع:

أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخبر عن نفسه بأن الله أوجده قبل كل شيء ، وأن المخلوقات وجدت منه صلى الله عليه وسلم عاقلة وغير عاقلة : من عالم الملك أو من عالم الملكوت ، وأنه صلى الله عليه وسلم : قد عبد الله قبل أي مخلوق ، حيث قال سبحانه **{... فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ(81)}[الزخرف]**وهو : صلى الله عليه وسلم : أول المسلمين على الإطلاق ، فقد قال تعالى **:{ ... وأنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ(163)}[الأنعام]** . ولقد أخبرنا بأن نوره قد أضاء ما بين المشرق والمغرب ، فلنقرأ في ذلك قول الله سبحانه وتعالى **:{... قَدْ جَاءَكُم مِّنَ اللهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُّبِينٌ(15)}[المائدة].**

وقد وردت أحاديث نبوية عدة تؤكد ذلك ويضيق الحصر عنها ، ولكنا نلمح إليها فقط ، فمنها حديث السيدة عائشة حيث كانت إذ وقع المخيط من يدها في ظلمة فإنها تراه إذا دخل الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الغرفة بسبب نوره ، وحديث اعتراض الكدية في حفر الخندق فلما ضربها صارت كثيبا أهيل، فج منها نور ظهرت على ضوئه أماكن كسرى وقيصر وقصورهما في بلادهما .

ومنها حديث الأعرابي الصحيح :" يا ابن الذبيحين " وذلك يثبت حفظ النور في الأصلاب الطاهرات والأرحام الزاكيات . ومنها : حديث المعراج ووقوف جبريل عند حده " سدرة المنتهى" واختراق الرسول صلى الله عليه وسلم حاجز النور الملكوتي وتجلى الله عليه بالمرائي والآيات الكبرى.

ومنها ما رواه الديلمي عن ابن عباس مرفوعا ، ومنها ما أخرجه الطبراني عن ابن عباس أيضا . ومنها حديث أبي سعيد الخدري وابن عمر رضي الله عنهم حيث قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم :" أتاني جبريل فقال : إن الله تبارك وتعالى يقول : لولاك ما خلقت الجنة ولولاك ما خلقت النار " قال السيد الأهدل رضي الله عنه في كتابه " فتح القريب": له حكم المرفوع . وحديث آدم على نبينا وعليه السلام الذي رواه الإمام علي كرم الله وجهه.

وحديث آدم على نبينا وعليه السلام :" يا رب لم سميتني أبا محمد...

والحديث الذي أخرجه الحاكم والبيهقي والطبراني في الصغير وأبو نعيم عن ابن عساكر عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه في توسل آدم بالنبي صلى الله عليه وسلم.

وحديث أنه النجم الذي تعرف به سيدنا جبريل عليه السلام على سنى عمره ، فلكل هذه الأدلة التي منها المرسل والحسن والصحيح بحسب التخريج.

لا يمكن للعقل أن يقبل القول : بأن أولية خلقه صلى الله عليه وسلم على هذا النحو ، وبتلك الصورة النورانية والروحية " شيء تقديري" كما تورط في ذلك علماء أجلاء لهم باع في أصول العقيدة والتفسير ، ولقد صفق لهم بعد مماتهم كل المستشرقين والمستغربين ، وذلك لأن المسألة لا تحتاج إلى تأويل ، فالنصوص واضحة وصريحة لا تحتاج إلى صارف ، وإلا فهذا هو ظاهر القرآن الكريم يدعم قضية الأولية النورانية ، ويزيدها قوة ، وذلك ما ارتآه علماء الحديث حينما تَوَفَقَ ظاهر السنة مع ظاهر القرآن الكريم ، فيتم التعانق النصي كتابا وسنة ، وعندئذ فلا يجوز البحث عن مغاير الدلالة ، وذلك موجود أيضا عند: علماء الأصول الذين يؤكدون في مثل هذه المسائل ، أنه :" لا اجتهاد مع النص": إذ إن المسألة تتعلق بشيء غيبي، فما علينا إلا أن نستوثق من المصادر فقط ، وهل يوجد مصدر كالقرآن الكريم الذي تعانق فيه ظاهر نصه مع الأحاديث آنفة الذكر ، وليس ذلك فحسب ، بل إن القرآن الكريم أيضا ، يوضح في جلاء ودلالة يقينية : أن الله تعالى قد خلق أرواح الخلائق جميعا أزلا ، وأخذ عليهم العهد والميثاق على ربوبيته ووحدانيته ، أما الرسول سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فقد سبق خلقه قبل هذه المخلوقات أي نورا ، يقول الله تعالى:**{ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَن تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ(172)}[الأعراف].**

أيضا فالله قد أخذ العهد والميثاق أزلا على أرواح جميع الأنبياء والمرسلين ، أن يؤمنوا برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، وأن يناصروه في دعوته ، وذلك بتوصيتهم لأممهم وأجيالهم المتعاقبة ، إذ يقول الله تعالى في ذلك :{**وإِذْ أَخَذَ اللّهُ مِيثَاقَ النَّبِيِّينَ لَمَا آتَيْتُكُم مِن كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَى ذَلِكُمْ**

إصْرِي قالُوا أقْرَرْنَا قالَ فَاشْهَدُوا وَأنَا مَعَكُم مِّنَ الشَّاهِدِينَ(81)}[آل عمران]. فكيف تكون هذه المسائل تقديرية أو تمثيلية مع واقع الأرواح في عالم الأزل كي يتحقق مضمونها فيما لا يزال.

فلننظر إلى تصدير هاتين الآيتين بـ " إذا" التي هي للزمان الماضي ، فهذا ما يقول به علماء اللغة وجميع المفسرين ، فيكون المعنى : واذكر يا محمد وقت أن أخذ الله عهد الإيمان به على ذرية آدم، واذكر يا محمد وقت أن أخذ الله على أرواح جميع الأنبياء بالإيمان بك ونصرة دينك ، فهو سبحانه يذكر بصورة حال ماضية.

إذًا لابد أن يكون موجودا هذا النبي: كنور في عالم الأزل شاهد للميثاقين ، وإلا لما عبَّر الله تعالى بـ"إذا" التي تفيد الظرف الماضي وخصوصا فإن نصوص الأحاديث الشريفة تؤكد هذا المعنى.

فالمعنى واضح كل الوضوح ولا يحتمل التأويل وبخاصة في موضوع غيبي هام يعلّق الأمة برسولها صلى الله عليه وسلم ، فتزداد له حبا – وبذلك تتهيأ قلوبها لاستقبال موجات النور المحمدي الذي لن يطفأ أبدا ، ولن يخبو سرمدا ، قال الله تعالى **:{ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا(45) وَدَاعِيًا إلى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا(46)}[الأحزاب].**

فما دامت رسالته باقية ، فالسراج المنير ينير دائما بلا انقطاع ، وهذا ما يفارق الشمس التي وصفها الله تعالى بأنها (سراجا وهاجا) والسراج الوهاج فيه مع الضوء ومنه أذى وحرقة وفيه انقطاع بمغيبه بالليل عند أناس ، وظهوره لدى أناس آخرين بالتعاقب.

{ لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أن تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ(40)}[يس]

ولقد اتضح من حديث جابر المطول والذي لم نذكره هنا : أن نور سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قد تجزأ ، فخلق من كل جزء ما خلقه الله من الكائنات ، فثبت وجود هذا النور بالحس ، ووجوده بتقدير سيدنا جبريل عليه السلام عُلِمَ بالحس ، فكيف التعبد لسبعمائة سنة تسبيحا منه لله تعالى ، ومماثلة الملائكة لتسبيحه صلى الله عليه وسلم لشيء لا حقيقة لوجوده؟!!.

فما نقل عن الإمام الغزالي رحمه الله : من أن أولية خلق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم :" أمر تقديري" وليس إيجادا من العدم بالفعل، إنما رأى الإمام : اجتهاد منه ، وكل يؤخذ منه ويرد عليه إلا المعصوم صلى الله عليه وسلم ، وها هو شيخ مذهب الإمام الغزالي " في الفقه" وهو الإمام الشافعي رضي الله عنه يقول: إن صح الحديث فهو مذهبي واضربوا بقولي عرض الحائط.

وقد ثبت أن الرسول صلى الله عليه وسلم في رواية أخرى عن سيدنا جابر رضي الله عنه قال:" ألم تعلم أن الله تعالى قد خلق الأشياء من نور نبيك يا جابر"؟

وقد ثبت عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال :" كنت نبيا وآدم مجندل في طينته".

وقد روى الإمام أحمد والحاكم وصححه عن ميسرة الفجر رضي الله عنه قال : قلت يا رسول الله : متى كنت نبيا؟ قال:" وآدم بين الروح والجسد".

قال ابن رجب الحنبلي : وقد دل خبر ابن سعد عن عامر الشعبي مرسلا أن رجلا قال:

يا رسول الله متى استنبئت؟ قال: وآدم بين الروح والجسد حين أخذ مني الميثاق".

وأخرج أبو سهل القطان في جزء من أماليه عن سهل بن صالح الهمداني قال:

سألت أبا جعفر محمد بن علي : كيف صار سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم يتقدم الأنبياء وهو أخر من بعث ؟ قال : إن الله لما أخذ من بني آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم : ألست بربكم . كان سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم أول من قال : بلى ولذلك صار يتقدم الأنبياء وهو آخر من بعث صلى الله عليه وآله وسلم.

وقد ثبت أن الأرواح قد خلقت قبل الأجسام بألفي عام والله تعالى أعلى وأعلم وأعز وأكرم ، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وعترته وصحابته وأهل محبته.

<u>سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو الإنسان الكامل</u>

من كتاب " الإنسان الكامل" للشيخ الأكبر سيدنا محيي الدين بن عربي يقول:

" اعلم أن مرتبة الإنسان الكامل من العالم هي : مرتبة النفس الناطقة من الإنسان – أي مرتبة الروح من الإنسان – فهو الكامل الذي لا أكمل منه وهو : سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فهو الإنسان الكامل الذي ساد العالم في الكمال ، سيد الناس يوم القيامة.

ومرتبة الكُمَّل من الأناسي النازلين عن درجة هذا الكمال الذي هو الغاية من العالم : منزلة القوى الروحانية من الإنسان ، وهم الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم ، ومنزلة من نزل في الكمال عن درجة هؤلاء من العالم : منزلة القوى الحسية من الإنسان ، وهم الورثة رضي الله عنهم ، وما بقي ممن هو على صورة الإنسان الكامل في الشكل هو : من جملة الحيوان ، فهم بمنزلة الروح الحيواني في الإنسان . واعلم أن العالم اليوم يفقد جمعية سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في ظهوره : روحا وجسما، وصورة ومعنى، نائم لا ميت. وأن روحه الذي هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو من العالم في صورة المحل الذي هو فيه روح الإنسان عند النوم إلى يوم البعث الذي هو مثل يقظة النائم هنا.

وإنما قلنا في سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم على التعيين أنه"الروح" الذي هو النفس الناطقة في العالم ، أعطاه الكشف . وقوله صلى الله عليه وسلم : إنه سيد الناس ، والعالم من الناس ، فإنه الإنسان الكبير في الجِرم ، والمقدم في التسوية والتعديل ، ليظهر عنه صورة نشأة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

فقبل ظهور نشأته صلى الله عليه وسلم كان العالم في حال التسوية والتعديل كالجنين في بطن أمه وحركته بالروح الحيواني منه الذي صحت له به الحياة.

فإذا كان في القيامة حيى العالم كله بظهور نشأته مكملة صلى الله عليه وسلم موفور القوى ، فليس العالم إنسانا كبيرا إلا بوجود الإنسان الكامل الذي هو نفسه الناطقة.

ولا تكون كاملة هذه النفس الناطقة من الإنسان [الذي هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم] إلا بالصورة الإلهية المنصوص عليها من الرسول صلى الله عليه وسلم .

فكذلك نفس العالم الذي هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم حاز درجة الكمال بتمام الصورة الإلهية في البقاء والتنوع في الصور وبقاء العالم به فقد بان لك حال العالم قبل ظهوره صلى الله

عليه وسلم : إنه كان بمنزلة الجسد المسوى وحال العالم بعد موته بمنزلة النائم وحالة العالم ببعثه يوم القيامة بمنزلة الانتباه واليقظة بعد النوم " [1]

الحياة البرزخية:

البرزخ: هو الحاجز والفاصل بين الشيئين ، قال الله تعالى **:{ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ(19) بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لاَّ يَبْغِيَانِ(20)}[الرحمن]** أي بسبب البرزخ الذي يفصل بينهما فإنه لا يطغى أحدهما على الآخر.

وأما البرزخ المعنيّ هنا ، فهو تلك الحياة التي تكون للمنتقل إلى رحمة ربه في فترة زمنية تفصل الحياة الدنيا عن الحياة الآخرة وهي حياة بكيفية خاصة لا يعلمها إلا الله سبحانه،وهي عامة للأنبياء السابقين ولسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وللأولياء ، ولسائر الناس ، فتختلف باختلاف درجاتهم عند ربهم ، وإيمانهم من عدمه ، وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ يقول **:" القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار".**

والبرزخ هو : أول منزل من منازل الآخرة ، فمن مات فقد قامت قيامته.

درجات الحياة البرزخية

أ- حياة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في البرزخ هو وسائر الأنبياء:

الواقع أن الموت بوجه عام ليس موت فناء تام للإنسان جسدًا وروحًا لأن الروح وهي أساس الحياة لا تفنى ولا تموت ، وإنما الموت انتقال من حياة الفناء إلى حياة البقاء ، وتلك الحياة البرزخية الروحية تختلف في طبيعتها من إنسان لآخر . فمنهم المنعَّم في روضته ، ومنهم المعذب في حفرته ، ومنهم المسجون في برزخه حتى يُقضى دَيْنهُ ، ومنهم ذو الروح الطليقة يؤذن لها بالتحرك في عالم الدنيا متى شاءت ، ومنهم من لا تتحرك روحه إلا بإذن خاص ،

---

[1] الإنسان الكامل ، لمحيي الدين بن عربي، ص 25.

ومنهم من يوظفه الله تعالى في وظائف كونية لمساعدة الخلق كالملائكة ، ومنهم من يؤمِّنون على دعاء الداعين الذين يزورونهم في قبورهم .والأموات جميعا يعرفون زوَّارهم ويردون السلام على من سلم عليهم من الأحياء . وهم يعرفون أخبار الأحياء أولا بأول ، بل قد يعرفون ما سيحدث لهم قبل أن يحدث ، لأنهم في عالم التجريد والبعد عن المادة الكثيفة.

روى ابن ماجه عن أبي الدرداء رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له: " أكثر من الصلاة عليَّ يوم الجمعة فإنه مشهود تشهده الملائكة ، وإن أحدا ليصلي عليَّ إلا عرضت عليَّ صلاته حتى يفرغ منها ، قال : قلت : وبعد الموت؟

قال:" إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء عليهم السلام".

ووافق ابن ماجه أحمد وأبو داود وابن حيان والحاكم في رواية قوله صلى الله عليه وسلم :" إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء".

ومن ذلك : ما رواه ابن سعد والبزار بسند صحيح ، ورواه أيضا القاضي إسماعيل والحارث في سنده وهو قوله صلى الله عليه وسلم :" حياتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم : أي تحدثون شئونا ويحدث لكم حلها وأحكامها – فإذا أنا مت كانت وفاتي خيرا لكم ، تعرض عليَّ أعمالكم ، فإن رأيت خيرا حمدت الله ، وإن رأيت شرا استغفرت لكم ".

فهذه أعمال بأسرها تعرض عليه صلى الله عليه وسلم.

وأخبر صلى الله عليه وسلم وهو الذي لا ينقطع مده عن أحبابه وأحفاده ، ولا ينطق عن الهوى أن الأعمال تعرض عليه ، فيحمد الله لخيرها، ويستغفره لشرها . فكيف ينكر عاقل مَنْ هذا حاله؟!! ولا ينبغي أن يفهم أن هذا العرض " على الروح" فقط دون البدن، بل هو على الروح والبدن معا من غير شك [1].

كما يفاد ذلك من قوله صلى الله عليه وسلم :" إن الله حرم على الأرض أن تأكل أجساد الأنبياء" وذلك جوابا لمن قال للنبي صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، عَرَّفْنَا كيف نصلي

---

[1] طريق الله في التصوف للعارف بالله سيدي الشيخ أحمد الشافعي أبو خليل ص56 ، 57

عليك، فكيف نسلم عليك وقد أرمت – أي بليت وفنيت – فقال صلى الله عليه وسلم :" إن الله تعالى حرم على الأرض أجساد الأنبياء".

ومما يؤكد حياة الأنبياء في قبورهم ، ما رواه أبو يعل والبيهقي من حديث أنس رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" الأنبياء أحياء في قبورهم يصلون" [2]

فهذا الحديث كما هو واضح منه لا يقتصر على إثبات حياة نبينا صلى الله عليه وسلم في قبره، بل تعدى إلى حياة جميع الأنبياء ، فحكم عليهم خيرا بأنهم في قبورهم ، يفعلون فعل الأحياء في الدنيا ، وهو " الصلاة" ذات الركوع والسجود والقيام والقعود والقراءة وذكر الله تعالى ، وهي اعمال لو شكَّ أي شاك في حياة فاعلها لكان شاكا في حياة نفسه ، وقد جاء هذا المعنى في قوله صلى الله عليه وسلم :" مررت ليلة أسرى بي على موسى عند الكثيب الأحمر وهو قائم يصلي في قبره " رواه الطبراني والنسائي ومسلم وابن حبان وابن خزيمة ، ولا يتردد أحد في : أن الصلاة هي ذات الركوع والسجود ، لأن الشرع إذا أطلق الصلاة لا يفهم منها إلا ذلك المعنى.

وقد روى مسلم في حديث الإسراء أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" لقد رأيتني في جماعة من الأنبياء"، إلى أن قال :" وإذا إبراهيم عليه السلام قائم يصلي أشبه الناس به صاحبكم – يعني نفسه – فحانت الصلاة فأممتهم " فهذا الحديث يذكر شبه سيدنا إبراهيم وشبهه إنما يكون ببدنه الحقيقي ، فدل ذلك قطعا على أنه صلى الله عليه وسلم وقد صلى بهم إماما وهم بأبدانهم التي كانوا عليها في الدنيا.

وكذلك جاء وصف أجسامهم صلى الله عليهم جميعا وسلم في قوله صلى الله عليه وسلم " رأيت عيسى وموسى وإبراهيم ، أما عيسى ، فأحمر جعد – أي مجتمع الخلق شديده ، عريض الصدر ، وأما موسى فآدم أي أسمر ، جسيم سبط، حسن القد ، كأنه من رجال الزط، وهم صنف من السودان والهنود – وأما إبراهيم فانظروا إلى صاحبكم ، يعني نفسه صلى الله عليه وسلم.

---

[2] أورده البيهقي في كتاب حياة الأنبياء ص4

التعليق والتوضيح لحياة الأنبياء في قبورهم بأدلة أخرى:

أننا قد رأينا سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم وهو يصف بدن سيدنا عيسى الحي، فإنه يصف بدن سيدنا موسى وسيدنا إبراهيم عليهم السلام والمنتقلين من هذه الدار إلى عالم البرزخ.

وهل قال عن سيدنا موسى : أنه " جسيم وحسن القد " إلا لحيٍّ بجسمه الحقيقي الذي خلق به ؟، ومما يوضح المسألة أكثر وأكثر ما ذكره إمام التصوف في عصره سيدنا الشيخ أحمد الشافعي أبو خليل رضي الله عنه من أحاديث ، على الوجه التالي:

فقد روى الطبراني أنه صلى الله عليه وسلم قال : كأني أنظر إلى موسى في هذا الوادي محرما بين قطوانيتين" فالقطوانية : العباءة البيضاء المنسوبة إلى بلدة بالعراق يقال لها : قطوان.

وروى ابن ماجه وأحمد ومسلم أنه صلى الله عليه وسلم قال:" كأني أنظر إلى موسى هابطا من الثنية – مكان مرتفع – وله جؤار – صوت مرتفع – إلى الله تعالى بالتلبية، وكأني أنظر إلى يونس بن متى على ناقة حمراء جعدة ، مجتمعة الخلق شديدته، عليه جبة من صوف ، خطا بناقته خلية. مارا بهذا الوادي ملبيا".

فهذا الحديث وما قبله يثبتان : أن الأنبياء عليهم السلام يخرجون من قبورهم بأبدانهم الحقيقية ، لابسين الثياب ماشين أو راكبين ، ويذهبون إلى حيث يحجون ويلبون ويراهم بعينه من كشف الله عن بصيرته من العباد.

فلا شك أن سيدنا موسى وسيدنا يونس قد انتقلا إلى الرفيق الأعلى قبل أن يوجد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بدهور ، وإذًا فإن نظره إليهما وهما ذاهبان إلى الحج يلبيان ، إنما كان وهما في عالم البرزخ، وهذا أمر متحقق له دلالته ومبني على قواعد الوضع العربي تفهمه العقول لأول وهلة.

فليس هناك استحالة عقلية أو شرعية تمنع من فهم الحديث على ظاهره ، فنخلص من ذلك إلى الاعتقاد بحياة الأنبياء في قبورهم الحياة الحقيقية التي يؤدون من خلالها ما يؤديه أقوياء الرجال في دنياهم ، فإن السفر إلى الحج ليس من الأمور التي يستطيعها كل حي ، فإذا ما ترددنا في فهم حياة الأنبياء مع هذا الاستدلال نكون قد وقعنا في محظور أمام كلام الرسول صلى الله عليه وسلم وكأنه موقف التكذيب الذي لا يقره ولا يقوى عليه ذو دين.

وخصوصا إذا ما لاحظنا : ما قدره العلماء من أن العدول عن ظواهر النصوص الثابتة من غير مقتضٍ قاطع إلى معان وتلبيسات يدعيها أهل الباطل : فيكون ذلك كفرا وإلحادا والعياذ بالله تعالى لأنه نكران للشريعة.

ومنها : حديث المعراج:

أن حديث المعراج مروي في الصحيحين ومتفق عليه ، وهو يصرح في غير ما لبس أنه صلى الله عليه وسلم قد رأى في السموات جماعة من الأنبياء : سيدنا آدم ، وسيدنا إبراهيم ، وسيدنا يوسف ، وسيدنا موسى ، وسيدنا هارون ، وسيدنا يحيى ، وسيدنا عيسى عليهم الصلاة والسلام ، وكلّمه كل واحد منهم بما كلمه به.

ومنها: المراجعة في شرعية الصلاة الكمية

لقد أكرم الله تعالى هذه الأمة وإلى يوم القيامة براحة ما أجملها وما أعظمها وهي : راحتنا بأداء خمس صلوات فقط في اليوم والليلة وثواب خمسين صلاة.

حيث أشار الكليم على سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم بأن يسأل ربه التخفيف عن أمته فراجع ربه وسأله التخفيف مرة ثم مرة حتى وصلت إلى خمس في الأداء خمسين في الأجر والثواب ، فالله تعالى يعلم أنها ستصل إلى ذلك ولحكمة كان التشريع على هذا النحو .

ومنها : هدية خليل الرحمن لأمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

إننا لا ننسى تلك الهدية التي منحها خليل الرحمن وهو في عالم البرزخ في السماء السابعة ليلة المعراج ، حينما سلم عليه بصحبة جبريل عليه السلام ، وعرفهما ببعضهما ، ورحب به جده عليه السلام قائلا: مرحبا بالابن الصالح والنبي الصالح ، ثم قال : يا محمد أقرئ أمتك مني السلام ، وأخبرهم بأن الجنة طيبة التربة وعذبة الماء وأنها قيعان وأن غراسها : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر . وذلك من حديث رواه الطبراني.

أثر حياة الأنبياء البرزخية:

أ – لقد ظهر واتضح مما سبق أن الأنبياء أحياء في قبورهم ، وأن لهم صلاة في عالم البرزخ ولقاءات ، وأننا لا ننسى الحديث الذي أخرجه البزار في مسنده ، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" حياتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم ، فإذا مت كانت وفاتي خيرا لكم ، تعرض علي أعمالكم ، فما وجدت من خير حمدت الله وإن وجدت شرا استغفرت الله لكم".

ب – إن حياة البرزخ لغير النبي صلى الله عليه وسلم من الصحابة ومن اتبع من الأولياء بعد ذلك لها قوانين وآثارها ، كما يتضح من الآتي:

أ – روت السيدة عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها ، أنه بعد دّفْن عمر رضي الله عنه كانت تستتر حياء منه ، وتقول " كان أبي وزوجي ، فأما عمر فأجنبي"، تعني بذلك : أنه يراها فتستتر ، ولم تكن تستتر – قبل دفن عمر – من أبيها وزوجها رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن كانا يريانها فإذا ما وقفنا أمام القبر الشريف أو الضريح الأنور ، وخاطبناه صلى الله عليه وسلم ، فخاطبنا معه له أصل في الدين ، وهو نفس خطابنا في تشهدنا لكل صلاة نؤديها بـ "السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ".

ب – نعم : إنه صلى الله عليه وسلم له روح عالية الدرجات ، موهوبة منه سبحانه وتعالى بفضائل لا يعلمها إلا الله الوهاب ، وأنه تعالى يخبره ، ويعلمه بصلاة المصلين ، وخطاب الحاضرين والغائبين [1] .

جـ - ومما يوضح أن الأموات لهم أحوال وأعمال بعد موتهم ، ما رواه البخاري مختصرا والطبراني مطولا : فعن أنس رضي الله تعالى عنه قال : لما انكشف الناس يوم اليمامة قلت لثابت بن قيس رضي الله عنه : ألا ترى يا عم ، ووجدته يتخبط متحيرا يريد ثبات المسلمين بقوة شكيمة أمام الأعداء فقال : ما هكذا كنا نقاتل مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بئس ما عودتم أقوامكم ، اللهم إني أبرأ إليك مما جاء به هؤلاء ، وما صنع هؤلاء . ثم قاتل حتى قتل ، وكان عليه درع نفيسة فمر به رجل مسلم : قريب عهد بالإسلام "، فأخذ الدرع ، فبينما رجل من المسلمين نائم إذ أتاه ثابت في منامه فقال : إني أوصيك بوصية ، إياك أن تقول هذا حلم فتضيعه إني لما قتلت أخذ درعي فلان ، ومنزله في أقصى الناس : وعند خبائه فرس تستن – أي تذهب وتجئ عدوا – في نشاط ومرح، ولا راكب عليها ، وقد كفئ على الدرع بُرْمَة وفوقها رَحْلٌ.فأت خالدا فمره فليأخذها ، وليقل لأبي بكر : إن عليَّ من الدين كذا كذا ، وقل له أيضا : إن فلانا – الرقيق الذي كان قد خدمه فترة طويلة – عتيق ، أي أنه يريد أن يكون حرا لا عبدا.

فاستيقظ الرجل ، فأتى خالدا فأخبره ، فبعث إلى الدرع فأُتي بها . وحدَّث أبا بكر برؤياه فأجاز وصيته " هذا هو : لفظ ابن حجر في " الإصابة " في ترجمة ثابت بن قيس.

التعليق الذي يظهر أثر الحياة البرزخية:

إن هذا رجل ميت يغضب على تركته أن يأخذها غير وارثه ، فيأمر من يذهب إلى قائد الجيش يخبره بمكان درعه ليردها إلى ورثته ، ولما سمع هذا القائد ذلك بعث إلى الدرع فأتى

---

[1] الرد المحكم المنيع . م يوسف الرفاعي ص 90.

بها ، ثم أمر قائد الجيش أن يخبر الخليفة بما عليه من الدين ليؤديه عنه فيستريح في قبره من ناحيته ، وحتى لا يندم أمام رب العالمين على ضياع ماله بموت المدين ، وأن يخبر الخليفة بوصيته بعتق غلامه ، لينفذ هذه الوصية بما له من السلطة العامة ، وليكون قد قام بمكافأة ذلك الغلام الرقيق على طول خدمته له في حياته ، فنفذ أبو بكر رضي الله عنه ذلك.

ولننظر موقف الميت حينما ذهب إلى النائم في الرؤيا وشدد عليه أن يبلغ ما يوصيه به ، وأفهمه أن الأمر جد لا هزل فيه وحق لا باطل ، ليدفع بذلك التردد الذي قد يقع في بعض النفوس حينما توافيه رؤيا منامية ، ثم انظر كيف يصف المكان الذي به الدرع مع مبالغة آخذها في إخفائها ، ثم انظر كيف فطن هو وحده لذلك الآخذ مع أنه ميت ولم يفطن له الأحياء ممن كانوا حوله من المحيطين به من كل مكان في الأرض التي أقاموا بها عقب المعركة . فهذا كله يؤكد تأكيدا قاطعا بأن الميت بعد موته يرى رؤية مطلقة،ويسمع سماعا مطلقا، وله حركة وقول يعرفه من خاطبه في صورة رؤيا يريدها الله تعالى ، فإذا ثبت لدينا ذلك فعلى من يحكمون بالشرك والوثنية والقبورية أن يعودوا إلى حظيرة دينهم وأن يرجعوا إلى ملة الإسلام بلا مكابرة أو عناد أو كبر أجوف وإلا ماتوا على غير الإسلام لقول الرسول صلى الله عليه وسلم :" من كفر مسلما فقد كفر" وفي رواية :" فقد باء به أحدهما".

فلا يجوز للمسلم أن يخاطر بدينه وملته ، بأن يعتقد برأي واحد : سمعه أو قرأه ، فقد يكون هذا الرأي مصدره أعداء الإسلام ، أو من خوارج الأمة الذين حذر النبي صلى الله عليه وسلم من الوقوع في براثنهم!!.

ففي صحيح البخاري – في باب الفتن والخوارج – يقول الرسول صلى الله عليه وسلم : " والذي نفس محمد بيده إني لا أخاف عليكم أن تشركوا بعدي بالله شيئا ولكن أخوف ما أخاف عليكم أن تبسط عليكم الدنيا فتنافسوها كما تنافسها من كان قبلكم فتهلككم كما أهلكتهم".

فعلى المسلم الذي يريد أن يقبله ربه وأن يموت على دين الإسلام : أن يقرأ الرأي والرأي الآخر وأن يحكّم عقله وقلبه في كل ما يقرأ وما يسمع . والله ناصر دينه ولو كره المبعدون.

الرد على من قال بانقطاع الأعمال بالموت

يحتج هؤلاء بالحديث الشريف الذي يقول فيه الرسول صلى الله عليه وسلم:
" إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث : صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له ".

وهذا الفهم منهم لذلك الحديث: خطأ فادح، لأن الحديث الكريم لا يحكم إلا على الأعمال التكليفية، والأعمال التكليفية التي ينبني عليها الثواب والعقاب قد انتهت بالموت ، لكن هناك الأعمال التشريفية التي يمتن الله بها على عباده من الأموات مثل : الصدقة الجارية ، أو العلم النافع الذي يقصد به وجه الله ، أو دعوة الولد الصالح . فهذه أمور يجري للميت ثوابا تشريفي بها بعد موته ، ويلتحق بذلك : من أجرى نهرا ، أو حفر بئرا ، أو غرس نخلا ، أو سن سنة حسنة يعمل بها دائما.

إذًا فالحديث الشريف يرغِّب في الأعمال التي يبقى نفعها في الدنيا للأحياء ، ثم أخبر أنه مادام منتفعا بها ، فإن العامل في ازدياد من الثواب وإن كان في قبره . وإن كان قد سقطت عنه الأعمال التكليفية التي لا يكلف بها إلا الأحياء.

وليس في ذلك ما يفيد انقطاع صلته كلية بالحياة والأحياء ، فما من إنسان إلا وله واقعة أو وقائع منامية مع أناس قد ماتوا من زمن قريب أو بعيد حاورهم فيها وحاوروه ، وكان منهم له ما يسره من أقوال أو أفعال . وقد يخبرونه بحصول أشياء غيبية ستحدث أو يحذرونه من شر ثم يحدث تحديدا ما أخبروا به.

(جـ) حياة سائر المؤمنين والمؤمنات والمسلمين في قبورهم:

إن الحياة البرزخية ثابتة بالكتاب والسنة ولا يماري فيها إلا مغرض ، أو معاند لا يهمه أمر دينه ، بقدر ما يهمه من نفسه أو الحطام الفاني أو الظهور بالمخالفة لإثبات ذاته ، التي لا يشعر بقيمتها أمام الناس إلا إن خالفهم!!

فمن الكتاب يقول الله سبحانه :**{ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ (46)}[غافر]**. فهذه الآية الكريمة تثبت حياة العذاب للعصاة في قبورهم : أول النهار وآخره ، حتى إذا أتى يوم القيامة دخل الكفار النار سرمدا.
ومن السنة : قول الرسول صلى الله عليه وسلم :" القبر إما روضة من رياض الجنة أو حفرة من حفر النار".

ومما يدل على هذه الحياة في القبور ما رواه مسلم في صحيحه : أن النبي صلى الله عليه وسلم : كان يعلم الصحابة إذا خرجوا على زيارة أهل المقابر ، أو مروا بهم : أن يقولوا :" السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات وإنا إن شاء الله بكم لاحقون ، نسأل الله لنا ولكم العافية".

فهل يأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يسلم الناس على من لا يسمع ولا يرد ؟ فذلك أمر مستحيل ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم لا ينطق إلا بوحي في مقام التشريع . قال الله تعالى : **{وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى (4)}[النجم].**

وأيضا ما رواه الترمذي والحاكم وابن مردويه وابن نصر والبيهقي في الدلائل : عن ابن عباس رضي الله عنهما " أن بعض الصحابة ضرب خباءه على قبر وهو لا يحسب أنه قبر إنسان فإذا هو قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها ، فأخبر بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له صلى الله عليه وسلم هي المانعة ، وهي المنجية من عذاب القبر".

فهذا امرؤ ميت يقرأ القرآن بصوت مرتفع لدرجة أن يسمعه من بينه وبينه حائل من أتربة وأحجار.

سماع الميت قرع نعال المشيعين وهم راجعون

لقد ثبت أن الميت حينما يدفن في قبره ويبدأ المشيعون في الرجوع إلى بيوتهم ورجالهم فإنه يسمع خصف نعالهم.

فقد روى البخاري ومسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :" عن العبد إذا وضع في قبره وتولى وذهب أصحابه فإنه يسمعهم حتى إنه ليسمع قرع نعالهم".

وروى البخاري ومسلم أيضا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم : وقف على قليب بدر فقال : هل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ؟ ثم قال : إنهم الآن يسمعون ما أقول" روى من طريق عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

التكريم والوجاهة عند الله

ينكر البعض تكريم الله لأحبابه وحبه لهم وحب من أحبهم وإفاضة الخير عليهم والعناية الخاصة التي لأنبيائه وأوليائه ، ومن هذه العناية والرعاية الإلهية يغترف المؤمنون هديا وفضلا ونورا ، وسعادة من الله بسبب حبهم لمن أحبهم الله وكانوا عنده وجهاء مكرمين فكان لابد من التعرض لتلك الوجاهة والحب على النحو التالي.

وجاهة الله تعالى للنبي والولي:

الوجاهة عنده تعالى : المنزلة الرفيعة التي بها يتولى شئونهم تولية خاصة ، ويعاملون معاملة مميزة.

فنحن نعامل الوجهاء منا بتكريم منقطع النظير ، ولله المثل الأعلى ، فالله تعالى لا يرد طلب الوجيه عنده إلا لحكمة هو يعلمها، وإن اختلف المقتضي للإجابة عندنا وعنده تعالى ، فلا وجاهة أعظم من وجاهة النبي والولي ، لأنهم عمال دينه والأدلاء عليه وكنوز رحمته ومختزن عدله وفضله . إذا دعوه استجاب لهم ، وإذا رجوه لم يخيب قصدهم ، وإذا استعانوا به أعانهم ، وإذا استعاذوا به من شر حفظهم وصانهم، وإذا لاذوا به أعزهم ، وأعز من أحبهم ، فمن مقتضيات حكمته ورحمته أن : حبيب الحبيب حبيب." ومن أحب قوما حشر معهم ".

ومن وجاهة الحق سبحانه لأحبابه الأولياء : أن جعل مرادهم موافقا لمراده تعالى ، وهذا هو معنى التوفيق الوارد في قوله سبحانه **:{ ... وَمَا تَوْفِيقِي إلاَّ بِاللهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ(88)}[هود]** ومن دلالة الوجاهة في التوفيق ، أن القرآن الكريم كله : لم يأت فيه ذكر للتوفيق إلا في هذه الآية وحدها.

والحكمة في ذلك كما يقول ابن عطاء الله السكندري : لأن التوفيق شيء عزيز ولا يعطي إلا لعبد عزيز على الله .

فنجد أن الولي الكامل موفق في عبادته وفي عمله وفي دعائه وفي كل حركاته وسكناته لأنه يعيش لله وبالله ومع الله وإلى الله.

فإذا دعا ربه فالإجابة مضمونة ، لأنه تقي :**{ ... إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (27)}[المائدة].** فالله تعالى وعد المتقين – قلبا وقالبا بالقبول ، والله سبحانه لا يخلف وعده . ولذلك كان سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول:" إني لا أحمل هم الإجابة بقدر ما أحمل هم الدعاء".

أما إذا كان قد سبق في علم الله الأزلي نفاذ أمر قضاءً محتما على عبد " ما " فإن الولي لا يوفق للدعاء ، فإذا أراد الله تعالى نفاذ أمر أمسك ألسنة أوليائه عن الدعاء لئلا يدعوا فلا يستجاب لهم فيفتضحوا.

من وجاهة النبي صلى الله عليه وسلم:

الواقع أن وجاهة نبينا صلى الله عليه وسلم عند ربه لا تقع تحت حصر ، فهي من ساعة مولده صلى الله عليه وسلم إلى أن تقوم الساعة وينتهي العالم . فليس في خلق الله تعالى من يدانيه ، وكيف يداني من قال الله فيه :**" وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ(107)}[الأنبياء]،** ولفظ العالمين معلوم أنه : كل ما سوى الله سبحانه . بل ماذا يقول علماء البيان في ذلك الجاه ؟ وماذا عسى أن يصف البيان من خاطبه الله تعالى بقوله :**{ وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ...(33)}[الأنفال]**، مع أنهم هم الذين حكى الله عنهم قوله تعالى قولهم :**{وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (32)} [الأنفال]** فجعل الله له جاها يحمي العالم من الخسف العام والمسخ العام الذي كان من سنن الكون في الأمم السابقة التي كانت تطبق على كفر أو معصية ، فبوجوده صلى الله عليه وسلم كرحمة عامة في الدنيا. غيَّر الله ناموس الكون ، ورفع عن العالم كله ، إلى أن تقوم الساعة : الخسف والمسخ الذي كان في الأمم السابقة على الإسلام ، لأن وجوده صلى الله عليه وسلم يحقق توازنا في الكون مع كفر الكافرين وفسق الفاسق.

حيث إن رسالته باقية إلى يوم الدين ، ولكن وجوده الشبحي في عالم التكليف محدد بفترة زمنية بقوله سبحانه :**{ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (30)} [الزمر].**

فلابد من وجود أشباح نورانية وأجسام طاهرة، لتحمل راية الرحمة من بعده . فكان عباد الرحمن هم الورثة المحمديون ، الذين لا يفترون عن الاستغفار وذكر الله طرفة عين ، وهم من قال الحق فيهم :**{ ... وَمَا كَانَ اللّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (33)} [الأنفال].**

نماذج من تلك الوجاهة:

1- لما نزلت سورة الحجرات ، وفيها آداب عجيبة ، يجب مراعاته مع النبي صلى الله عليه وسلم من عدم رفع الصوت أمامه ، وتقديمه على غيره في كل شيء ، وعدم مناداته من وراء الحجرات، والانتظار حتى يخرج بنفسه . قالت أم المؤمنين السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها – كما رواه البخاري ومسلم – " ما أرى ربك إلا يسارع في هواك". والمعنى الذي تريده رضي الله عنها : أن ربه عز وجل لا يحوجه إلى مشقة سؤال يتجشمها ، حتى يسأل ثم تكون الإجابة ، بل إن الله تعالى يعلم ما يحبه ويهواه فيفعله له ولو من غير سؤال.

2- حينما كان صلى الله عليه وسلم على المنبر يوما ، فسأله أعرابي أن يدعو الله تعالى أن يستقيم ، وكانوا في قحط ، فرفع حبيب الله يديه وما بالسماء قطعة من سحاب فما أنزل يديه من رفعها إلا وقد ثار السحاب في الحال كأمثال الجبال ، ولم ينزل صلى الله عليه وسلم من على المنبر ، حتى نزل عليه المطر ، الذي صار يتقاطر على لحيته الشريفة،ولم يزل في انهمار حتى الجمعة التالية ، فسأل الأعرابي النبي صلى الله عليه وسلم أن يدعوا ربه أن

يرفع هذا المطر ، فرفع صلى الله عليه وسلم يديه وقال:" اللهم حوالينا ولا علينا "، فانقطع المطر في الحال ، وخرجوا من المسجد يمشون في الشمس – رواه البخاري".

3- لقد قرأ صلى الله عليه وسلم ما حكاه الله من قول إبراهيم عليه السلام **:{ رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ النَّاسِ فَمَن تَبِعَنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(36)}[إبراهيم]** وقول عيسى عليه السلام **:{ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (118)}[المائدة]**، فرفع النبي صلى الله عليه وسلم يديه وقال " اللهم أمتي اللهم أمتي" وبكى : فقال الله تعالى : يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له : إنا سنرضيك في أمتك ولا نَسَوءُك) رواه مسلم.

حب النبي صلى الله عليه وسلم:

إن حب النبي صلى الله عليه وسلم : فريضة حتمية ، ولا يكتمل إيمان المرء إلا به ، قال الله تعالى **:{قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ...(31)}[آل عمران]** وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالديه والناس أجمعين "، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله : لأنت أحب إلي من ولدي ووالدي والناس أجمعين ، فقال له صلى الله عليه وسلم :" لا يكمل إيمانك يا عمر حتى أكون أحب إليك من نفسك التي بين جنبيك ". فقال عمر رضي الله عنه : والذي بعثك بالحق نبيا يا رسول الله لأنت أحب إلي من نفسي التي بين جنبي فقال له النبي صلى الله عليه وسلم :" الآن كَمُلَ إيمانك يا عمر".

أثر حب النبي صلى الله عليه وسلم :

الحب هو روح الإيمان ، فلا يتصور إسلام ولا إيمان بغير الحب . فلقد جاء حرملة بن يزيد فقال : يا رسول الله : الإيمان هاهنا ، وأشار إلى لسانه ، والنفاق هاهنا وأشار إلى صدره ، ولا نذكر الله إلا قليلا ، فسكت عنه صلى الله عليه وسلم ، فردد ذلك حرملة ، فأخذ صلى الله عليه وسلم بطرف لسان حرملة فقال :" اللهم اجعل له لسانا صادقا وقلبا شاكرا وارزقه حبي وحب من يحبني . وصَيِّرْ أمره إلى الخير". فقال حرملة : يا رسول الله : إن لي إخوانا منافقين كنت فيهم رأسا ، ألا أدلك عليهم ؟ فقال صلى الله عليه وسلم : " من جاءنا كما جئتنا استغفرنا له كما استغفرنا لك ، ومن أصر على دينه فالله أولى به ، ولا نَخْرِقُ على أحد سترا". رواه الطبراني في الكبير. وإنما دعا له صلى الله عليه وسلم أن يرزقه حبه ، لأن حبه هو الإيمان بعينه ، كما أن بغضه هو الكفر بذاته ، وليس حبه صلى الله عليه وسلم أمرا يحكى باللسان ، فحبه بالقلب قبل اللسان .

وما استقر حبه صلى الله عليه وسلم في قلب إلا رأيت آثاره في الحال والحب المطلوب له هو :

أ – تعظيم يناسب قدره الأفخم صلى الله عليه وسلم.

ب – ولوع بالصلاة والسلام عليه صلى الله عليه وسلم.

جـ - حرص شديد على اتباعه الاتباع المطلق في كل حركاته وسكناته صلى الله عليه وسلم.

د – شوق يتأجج في الفؤاد يطلبه لا هوادة معه ولا سكون في أن يسعى إليه ويتشرف بالمثول بين يديه.

هـ - التفاني في محبة آل بيته وإكرامهم والتواضع معهم ، ولاسيما من حاز الولاية منهم ، حتى ولو كانت نسبة المحب شريفة فلابد أن يرحب متواضعا بالتتلمذ على من ظهر منهم بالولاية العظمى ، وأن يكون سعيدا بذلك ، طالبا أن يكون في ركابهم إلى يوم الدين ، ليفرح به جده النبي صلى الله عليه وسلم. وألا يفكر في تركهم حتى لو منح قطبانية . فالمريد مريد حتى وإن لان له الحديد، فكثيرا ما أضاع الشريف درجته العرفانية بسبب غيرته وعدم اتباعه لشريف واصل موصل وعارف بالله مبجل.

و– محبة الأولياء وخصوصا مشايخ التصوف وأحبابهم حبا يعتبر امتدادا لمحبة جدهم صلى الله عليه وسلم.

أما من يقول بلسانه أنه أحبه صلى الله عليه وسلم ، ثم لا يجد من آثار ذلك الحب شيئا فهو محب باللسان لا بالقلب فليس له عند الله وجاهة ولا فضل.

حياته ومماته صلى الله عليه وسلم خير لأمته:

إن هذه الخصوصية له صلى الله عليه وسلم، ولأمته بما لم يكن لنبي مع أمته من قبل ، وذلك مما يبعث على البهجة والسرور ، ويضمن المعايشة النورانية والارتباط الروحي المستمر ، ومما يثيره ، ويفتح طريقه : سلوك الطريق على يد أحفاد النبي صلى الله عليه وسلم من العترة المطهرة الذين واكبتهم عناية الله تعالى ، فجلا الله قلوبهم ، وصقلها بالنور، ليكونوا أهلا للتلقي والإلقاء على القلوب والأرواح الأدنى درجة.

حتى يحيا الجميع على مائدة نور النبي صلى الله عليه وسلم الذي لن يخبو ضياؤه ولن يغيب حتى قيام الساعة.

فقد روى ابن سعد والبزار بسند صحيح ، ورواه القاضي إسماعيل والحارث في مسنده قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" حياتي خير لكم تُحَدِّثون ويُحَدَّثُ لكم ، فإذا أنا مِتُّ كانت وفاتي خيرا لكم تُعرض عليَّ أعمالكم فإذا رأيت خيرا حمدت الله عليه وإن رأيت شرا استغفرت الله لكم".

فهذا الحديث يدل بما لا يدع مجالا للشك على بقاء نفع الرسول لأمته يوم القيامة ، وهو من المنح الإلهية الخاصة للمصطفى صلى الله عليه وسلم [1] .

الرد على المنكرين لتلك الخصوصية والوجاهة:

---

[1] خصائص النبي صلى الله عليه وسلم للمحب المكي ص 25.

إن هناك بعضا من الناس يقولون : إن الرسول أدى رسالته ولا نفع له بعد موته ، فكلاهما – مع هذه الأحاديث – يعتبر مغالطة وإنكارا للحقائق العلمية ولا نرى سببا لمغالطتهم تلك إلا عدم التوفيق ، واجترار ما يقوله أعداء الإسلام بلا حياء ولا مسئولية..

<u>الوجود المثالي للنبي صلى الله عليه وسلم في كل زمان ومكان:</u>

يغيب عن أذهان الكثيرين من المفكرين الإسلاميين ، وخصوصا من يعارض سلوك طريق القوم ، ويعتبره إضافة غير مطلوبة دينيا ، بل ربما اعتبر ذلك من البدع المحرمة التي يجب محاربتها ، مما جعل البعض يتحرج من أن يتحدث عن التصوف كروح إسلامية وثابة لتربية المسلم على الإسلام الصحيح قلبا وقالبا كما كان الأسلاف . إن هؤلاء لا يعتبرون الوجود الروحي للرسول صلى الله عليه وسلم ولآل بيته الأطهار ، بل يعتبرون ذلك من الخرافات والأوهام وغاب عنهم أنهم يخاطبونه في تشهد الصلاة كل يوم مرات " السلام عليكم أيها النبي..".

<u>وجاهة الأولياء عند الله تعالى</u>

يزيد كل يوم عدد المنكرين للأولياء ، وكراماتهم ووجاهتهم عند الله تعالى، بل ربما يهزءون بمن يذكرهم بهم وقد يرمونه بالتخلف وأنه من بقايا القرون الوسطى.
فإذا ما قلت لهؤلاء المنكرين : لقد رأيت كرامة كذا وكذا من الولي الفلاني وأن له وجاهة عند الله وتكريما بسبب تأييده له ، لازدادوا منك سخرية وعتوا عتوا كبيرا.
لكن لو قلت لهم إن فلانا يفعل كذا وكذا من القبائح والنقائص لصدقوا في الحال ، حتى ولو كان هذا الرجل مشهورا بالصلاح والتقوى!!
<u>فما السبب في تكذيب " الخير" وتصديق"الشر"؟</u>

السبب معروف وهو أن شيطانهم يخاف عليهم من محبة الأولياء الذين يوجهونهم إلى الخير ، فيشككهم فيهم ، لأن أعدى أعداء الشيطان : أولياء الرحمن .
وفي "الشر" يساعدهم الشيطان على تصديق حدوثه ، ليرغبهم في الشر بعد ذلك.

<u>والحال مع هؤلاء المنكرين يوضحه الآتي:</u>

1- أنهم لم يخالطوا الأولياء ، ولم يروا تكريم الله لهم ، فجذبهم الشيطان إليه.
2- أنهم لم يطلعوا على كتاب ربنا وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم اطلاع تدبر ووعي، فلو اطلعوا عليهما على هذا النحو لرأوا كثيرا من كرامات الصالحين ، وتعريفا بأولياء الله ووجاهتهم عند الله.

<u>وجاهة الصالحين من القرآن:</u>

حسبنا بعض الأمثلة التي توضح كرامة الأولياء ووجاهتهم عند الله بالآتي:
1- قصة أهل الكهف التي في القرآن الكريم وأنهم فتية يؤمنون حق الإيمان، قد ناموا في الكهف: ثلاثمائة وتسعة من الأعوام بدون طعام ولا شراب وهي مدة كفيلة بفنائهم وهلاكهم من الوجود ، لكن عناية الله وإكرامه لهم حال دون وقوع كارثة لهم بل ولكلبهم ، وذلك يدل على أن الحب الإلهي ينجي من جميع المخاطر ، كيف وهؤلاء أتقياء تولى الله أمرهم ، حتى في حركة نومهم ، وفي هيئتهم وخلع الهيبة عليهم وصانهم وحفظهم من حرارة الشمس ، ويكفي في ذلك إعلان القرآن لكرامتهم ووجاهتهم عند الله بقوله :**{... ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللهِ...(17)}[الكهف].**

2- قصة السيدة الكريمة مريم بنت عمران رضي الله عنها وهي تتعبد في محرابها فكانت تأتيها فاكهة الصيف في الشتاء وفاكهة الشتاء في الصيف لتعيش عليها ، فيدخل عليها زكريا ، كما قال الله سبحانه :**{...كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنَّى لَكِ هَذَا قَالَتْ هَذَا مِنْ عِندِ اللهِ إِنَّ اللهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ (37)}[آل عمران].**

وجاهة الصالحين من السنة:

إنها كثيرة جدا وحسبنا منها الآتي:

1- روى البخاري رضي الله تعالى عنه أن سيدنا خبيب بن الأرت رضي الله عنه : كان يأكل الفاكهة في غير أوانها وهو أسير ، وأن القرشيين في إحدى معاركهم مع المسلمين : أرادوا أن يأخذوا قطعة من جسد سيدنا عاصم رضي الله عنه بعد أن قتل فلم يستطيعوا وحال بينهم وبين ذلك كم كبير من الزنابير التي أظلت جسمه كله".

2- روى البخاري أن رجلين قد خرجا من عند رسول الله صلى الله عليه وسلم في ليلة مظلمة جدا بحيث لا يرى أحد منهما شيئا ، فأضاءت لهما " عصا " أحدهما ، فلما افترقا أضاءت للآخر عصاه...

3- روى البيهقي والحاكم وابن سعد عن سيدنا عبد الله بن جحش رضي الله عنه : أنه كان يقول قبل يوم أحد : اللهم إني أقسم عليك أن ألقى العدو غدا فيقتلني ثم يبقروا بطني ويجعدوا أنفي وأذني ، وتسألني : فيم ذلك ؟ فأقول : فيك يا ربي . فقتل رضي الله عنه ، وفعل العدو به ما طلب ، رضي الله عنه وأسكنه الفردوس.

4- لقد غلب المسلمين أعداؤهم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم، واستعصى على المسلمين أن يحسموا هذه المعركة لصالحهم ، فذهبوا إلى " البراء بن مالك " وهو شقيق سيدنا أنس فقالوا : يا " براء" اقسم على ربك أن ينصرنا ، فقال : يا رب أقسم عليك لما منحتنا أكتافهم وألحقني بنبيك محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان ما أقسم رضي الله عنه.

وإنما طلب الصحابة رضي الله عنهم منه أن يقسم على ربه، لأنهم سمعوا رسوا الله صلى الله عليه وسلم يقول فيه :" كم من أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره، منهم البراء بن مالك " رواه الترمذي.

5- روى ابن عبد البر في " الاستيعاب " : أن سيدنا عَمْرَ بن الجموح رضي الله عنه قد سمح له أولاده أن يخرج للجهاد في غزوة أحد ، بعد أن شكا لرسول الله صلى الله عليه وسلم مَنْعَهم له من ذلك ، فقد كان (أعرج) ممن عذرهم الله تعالى إن تأخروا عن الغزو ، فكان مما قاله للرسول صلى الله عليه وسلم : والله إني أريد أن أطأ بعرجتي هذه الجنة"، فلما خرج بسلاحه مع المجاهدين استقبل القبلة وقال : اللهم ارزقني الشهادة ولا تردني خائبا إلى أهلي ، فرزق الشهادة ولم يرده ربه خائبا ، وحينئذ قال عليه الصلاة والسلام :" والذي نفسي بيده إن منكم من لو أقسم على الله لأبره ، منهم عمرو بن الجموح ، ولقد رأيته يطأ الجنة بعرجته".

6- روى البخاري أن سيدنا الزبير بن العوام رضي الله عنه لما شعر بدنو أجله أخبر ابنه عبد الله بأنه ميت لا محالة ظلما في وقعة الجمل ، فقال لابنه: يا عبد الله إن عجزت عن شيء من دَيْنِي فاستعن بمولاي ، قال عبد الله : فو الله ، ما دريت ما يقول حتى قلت : يا أبت من مولاك؟ فقال: الله . فو الله ما وقعت في كربة من دينه إلا قلت : يا مولى الزبير اقض دينه فيقضيه".

7- روى البخاري ومسلم والترمذي أنه صلى الله عليه وسلم قال: " اهتز عرش الرحمن لموت سعد بن معاذ".

فلو لم يرد من كرامات الأولياء ووجاهتهم عند ربهم إلا هذا الحديث لكفى ثم كفى ثم كفى . فضلا من الله ونعمة فَلِمَ الإنكار والعناد؟ إذا كان هذا فضل الله على أحبابه فلم لا نستقبله بالشكر

، ونحب أحبابه لنكون معهم في الجنة؟..

ونكتفي بهذا القدر اليسير فإن الوارد في الكتاب والسنة مما أكرم الله به أولياؤه يتعسر جمعه كله أو معظمه لكثرته مما يثبت وجاهتهم عند ربهم ، وما يحدث الآن مما أكرم الله به أحبابه اليوم لو جمع لملأ مئات المجلدات ، فإن فضل الله على أولياءه لا يحدّ.

فللأولياء رضي الله عنهم هذا الجاه منحة من حبيبهم " الله " فهم يُصْلِحون خلقه عليه لتعم رحمته التائبين الصادقين علاوة على محبتهم له وذكرهم إياه على الدوام وعملهم بشرعه ونشر محبته في قلوب الخلق.

فأي لوم على من يلوذ بهم ، ويتحبب إليهم ، ويفرح كل الفرح ويُسَرُّ كامل السرور: إذا أنعم الله عليه بمحبتهم ورضاهم عنه ، لأنه يشعر حينئذ بحال البسط والنور والبشر الذي يسكن قلبه ، فيدرك أن الله تعالى قد رضي عنه برضاء أحبابه وأوليائه ، فإن حبيب الحبيب حبيب ، كما أن عدو الحبيب عدو (من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب).

وإن المجرِّب لهذا الحب ليحزن كل الحزن ، ويسيطر عليه الهم والغم : إذا أحس بشيء من تغير قلوبهم من جهته ، لأنه حينئذ يشعر بحال القبض وظلمة القلب وقساوته المؤلمة التي هي أكثر ألما من مرض الجسم ، فيدرك أنه على عتبة الخطأ فيرجع متأدبا مع أحباب الله لكي يرضى عنه مولاه فيصقل القلب بنور الله .**{... وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُوراً فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ(40)}[النور].**

إن من عرف تلك الوجاهة والمنزلة التي منحها الله تعالى لأوليائه ، ينبغي أن يتوسل بهم إلى الله تعالى في تفريج كروبه وقبول دعائه والتوفيق لتوبة نصوح والاقتداء بهم في صلاحهم وتقواهم.

فالهداية غالية جدا ، إنها رحمة الله الحقيقية الأزلية وليست رحمة الدنيا بمال أو جاه أو عافية جسدية ، إنها رحمة رضوان الله والدار الآخرة ، وهذه لا تُشْتَرى بمال فهي خير من الدنيا وما فيها ، لأن الله سبحانه يقول فيها **{... وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ(32)}[الزخرف].**

وعجبا لإنسان مريض الجسد، قد لا يثق في أطباء بلدته، فيذهب ويشد الرحال إلى دول أوروبا، متحملا النفقات الباهظة أملا في شفاء علة الجسد ، ولا يحاول أن يسعى لمداواة قلبه من ظلمته وقساوته ورانه ولا أن يربي روحه على يد العارفين بالله كما كان يصنع علماء الإسلام قديما فكانوا يجمعون مع العلم : العمل والإخلاص ، فسعدوا وسعدت بهم أممهم ، حينما كانوا يؤثرون في نفوس الناس وقلوبهم . ولقد نزح كثير من آل البيت إلى هذه الديار المصرية لإيجاد مدارس للأولياء المجاهدين في شتى أنواع الجهاد حتى الآن . فلماذا لا ينتفع المعارض لأحباب الله بسر الصفوة من آل المختار ، الذين لا يرفعون دعاءهم إلا لله ولا يعتزون بأحد سواه . اللهم وفقنا دائما للسير على دربهم – درب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ولقد وُجِدَ من لا يعرف من الإسلام إلا كل ما يحيط بالقالب من مظاهر الشكليات الإسلامية ومن شعائر طبعت بطابع العادة ، وخلت من روح العبادة وإسلام الوجه لله تعالى . أو الاكتفاء بحفظ نصوص إسلامية تفسر وفق الأهواء ، وتلقي على الأسماع بروح التعصب والجمود ، وإثارة المسائل الفرعية الخلافية ، وإيقاظ الفتن النائمة ، وشن دعايات هوجاء تثير جدلا عقيما يتهم فيه مخالفهم بالكفر والشرك والجهل مما وسع دائرة النزاع ، وبث روح العداوة والبغضاء، وأضعف الروح الدينية التي اكتفى الناس عنها ببعض الشعائر تقام أو لا تقام بحسب الظروف والأهواء.

ومن هنا كان لابد من رؤية جديدة من واقع ديننا لإحياء الروح الإسلامية التي كادت أن تزهق.

استشعار الروح النورانية

لابد من استشعار وجوده صلى الله عليه وسلم الروحي في كل زمان ومكان ، فإن الله تعالى يقول:**{وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ ... (7)}[الحجرات].**

فإذا أردنا التعامل مع هذه الآية الكريمة ، فلابد أن نبحث هذا الوجود المحمدي على أساس الوجودات الأربعة المقررة في علم المنطق:

1- الوجود الذهني:

فالنبي صلى الله عليه وسلم : موجود في ذهن كل مسلم وفي عقيدته وهذا هو الخط الموصل ولكن يحتاج إلى مُحَوِّل ومحطة تقوية بالشيخ العارف بالله.

2- الوجود اللساني:

فالنبي صلى الله عليه وسلم : موجود على لسان كل مصلٍ يصلي عليه داخل الصلاة وخارجها وعلى لسان كل مؤذن للصلوات الخمس.

3- الوجود الكتابي:

فالنبي صلى الله عليه وسلم : موجود في الكتب الإسلامية من كتب التفسير والحديث والسيرة والأدعية والصلوات وغيرها ، وفي خطبة الكتب العلمية.

4- الوجود الجسمي:

وهذا الوجود النبوي نوعان:

أ- وجود الجسم الطبيعي وهذا لا يتأتى إلا في مكان واحد.

ب-وجود الجسم المثالي: بمعنى أن الجسم الشريف في مكانه من الروضة الشريفة ، وتوجد أجسام مثالية في عدة مواضع من العالم يديرها روحه العظيم على توالي الأزمنة ، وهذا الوجود خاص بالأقطاب المتدركين من قواد العارفين ليسقوا العارفين ، والعارفون يسقون مريديهم من ذلك النور.

الدليل على وجود ذلك:

إن الدليل على وجود الأجسام المثالية في عديد من الأمكنة والأزمنة من العالم : قول المصلين في تشهدهم :" السلام عليك أيها النبي"وهذا خطاب للحاضر الموجود ، وإن لم يروه كالحال في الملائكة. فلو كان غير حاضر عندهم يقينا لكان خطابهم له عبثا لا يليق أن يحصل في الصلاة التي هي من أفضل العبادات ، كيف والعبث منهي عنه فيها ، ثم إن الصلاة كلها قد أتت بوحي، ومنها التشهد الذي فيه :" السلام عليك أيها النبي " فالله أعلم حيث يجعل رسالته.

نماذج للوجود المثالي:

إن عالم المثال قد اتضح وجوده في ليلة الإسراء والمعراج وغيرها في صور متعددة بأحاديث ثابتة منها:

1- رؤية الرسول صلى الله عليه وسلم لسيدنا موسى يصلي في قبره.

2- وجود مثالي للأنبياء السابقين مرة في المسجد الأقصى مع بعض الملائكة ، حيث قد صلى بهم النبي صلى الله عليه وسلم إماما ، ومرة أخرى في السموات سماءً بعد سماء . والتي منها مراجعة سيدنا موسى لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في موضع الصلاة ليعيد التلذذ الروحي بمناجاته لله تعالى عن طريق نبينا صلى الله عليه وسلم وليس عن طريق الشجرة المباركة التي كانت في الدنيا.

3- وجود مثالي رأته السيدة مريم في محرابها لسيدنا جبريل الذي أتاها في صورة بشر سوي . قال الله تعالى:**{... فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا(17)}[مريم].**

4- وجود مثالي لصور المنعمين في الجنة والمعذبين في النار.

5- وجود مثالي لبعض المخلفين عن القتال مع الرسول صلى الله عليه وسلم بسبب أنهم لم يجدوا ما يحملون عليه عند الرسول صلى الله عليه وسلم، فبكوا حزنا على أنهم لا

يستطيعون الجهاد فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: إن فلانا هذا كان يشاركنا في القتال فما صعدنا جبلا ولا نزلنا سهلا إلا وقد رأيت فلانا يسير معنا إلى أرض المعركة.

قال الله سبحانه :{**وَلا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتُوكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلاَّ يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ(92)}[التوبة]** [1] .

وقيل نُزلت في عُلْبة بن زيد الأنصاري وهو المتصدق على الله بعرضه فقبله الله منه ، فحينّما خرج من الليل صلى ما شاء الله ، ثم بكى وقال : اللهم إنك قد أمرت بالجهاد ورغبت فيه ، ثم لم تجعل عندي ما أقوى به مع رسولك ، ولم تجعل في يد رسولك ما يحملني عليه ، وإني أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابني بها في مال أو جسد أو عرض ، ثم أصبح مع الناس فقال النبي :" أين المتصدق في هذه الليلة ؟ فلم يقم أحد . فقال : أين المتصدق في هذه الليلة فليقم ولا يتزهد ما صنع هذه الليلة ؟ فقام إليه فأخبره ، فقال عليه الصلاة والسلام :" فو الذي نفس محمد بيده لقد كتب في الزكاة المتقبلة".

6- وجود مثالي في عهد سيدنا سليمان : إذ إن آصف بن برخيا قد نقل عرش بلقيس كاملا في أقل من لحظة من بلاد اليمن إلى بلاد الشام **{ قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ...(40)}[النمل].**

7- وجود مثالي للرسول صلى الله عليه وسلم بالدعاء على المرابين حتى في حياة البرزخ قال الله تعالى **:{ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا فَأْذَنُوا بِحَرْبٍ مِّنَ اللهِ وَرَسُولِهِ...(279)}[البقرة]** فهذا إنذار للمرابي ساري إلى يوم القيامة . إذًا فالوجود المثالي حاصل للرسول صلى الله عليه وسلم فهو يحارب المرابين دائما لأن القرآن باقٍ العمل به حتى بعد موته إلى يوم الساعة.

8- إن الروح القوية للولي تستطيع أن تهزم جيشا بأكمله بإذن الله كما حدث لسيدي أحمد البدوي في الحروب الصليبية وحرب التتار فقد أظهر بطولات خارقة وشجاعة نادرة وذلك في زمن حياته رضي الله عنه.

---

[1] الروض الآنف للسهيلى ص 321

وهذا سر عداوة الغربيين المستشرقين له وافتراءاتهم عليه رضي الله عنه. ولكن الأولياء لا يدخلون المعارك ولا يمضون في الأخذ بأسباب تنفيذ الأمور إلا بتوفيق قهري من الله سبحانه ، ولذلك فإن الملك الظاهر بيبرس حينما تم النصر للمسلمين على التتار قال : آن الأوان أن نسجل لك بطولاتك يا بدوي ، فقال له سيدي أحمد البدوي : إن تاريخي عند ربي يا أبله!! وقد روى عنه رضي الله عنه أنه نقل جميع الأسرى من بلاد الفرنجة إلى مواطنهم في مصر . وليس ذلك لعسير على أولياء الله ، أهل الوجاهة عند الله ، فقد رأينا في القرآن الكريم أن آصف بن برخيا كاتب سليمان ووزيره قد نقل عرش بلقيس من اليمن إلى بلاد الشام في أقل من لمحة فهل يُقْدر الله على ذلك وليا من أولياء بني إسرائيل ولا يقدر وليا لله من آل بيت رسول الله ؟!! فما دام الفاعل للكرامة هو الله فعلى مَنْ يكون الاعتراض والإنكار؟!!

فالقرآن هو أصدق ما قيل ، ويقال وأمر الله تعالى بين الكاف والنون قد قص لنا نقل عرش بلقيس من اليمن إلى الشام في أقل من لحظة على يد ولي لله وهو آصف بن برخيا كاتب سيدنا سليمان ووزيره.

فذلك كله فعل الله وحده ، ولا حرج على فضل الله.

فما بالنا بروح سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وهو أعظم روح خلقه الله تعالى ، فلا عجب أن يملأ العالم في صور أجسام مثالية.

ولهذا رآه كثير من الأولياء في أوقات مختلفة وأماكن متعددة وسألوه صلى الله عليه وسلم عن أشياء أشكلت عليهم ، فأجابهم بما أزال عنهم الإشكال – " الروح "لابن القيم ومثل هذا قد حدث لسيدي جلال الدين السيوطي ، حينما كان يسأله عن أحاديث نبوية فيجيبه عنها ، بل إن شيخ الإسلام د . عبد الحليم محمود قال في كتابه " الأخلاق المتبولية " أنه استشار سيدي أحمد البدوي في كتابته فأذن له . فهذه مذاقات خاصة لعباد الرحمن ولا ينبغي لمن لا يعرف عنها شيئًا أن يحكّم فيها العقل ، بل عليه أن يستوثق من المصدر ، أمأمون على دينه أم لا ؟.

حجاب الرؤية وطريقة إزالته:

لا يجوز لمن لم ير مثل هذه المرائي أن ينكرها ، ولا أن يقيس الأمور بمقياسه الخاص به فقد يكون حجاب ظلمة المعاصي والزلات والغفلات قد ران على قلبه.

{كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ(14)}[المطففين]، إذًا فمانع الرؤية يكون من قِبَلِنا نحن وليس من قبله صلى الله عليه وسلم.

ولذا نجد أن العبد حينما يفارق نفسه ولو بالنوم فإنه قد يرى النبي صلى الله عليه وسلم إذا منحه الله ذلك. وأما إذا قمع نفسه وأماتها بردعها عن غيها ووصل قلبه بخالقه فإنه حينئذ لا يكون بينه وبين الحبيب المصطفى حجاب لا في اليقظة ولا في المنام.

ولا يجوز لنا أن نقيس أمر البرزخ على غيره.

فلقد سئل ملك الموت : كيف تقبض روح رجلين أتى أجلهما معا ، أحدهما في أقصى المشرق والآخر في أقصى المغرب . فقال: إن الله تعالى قد زوى لي الدنيا بجميع ألوانها ، فجعلها بين يدي كالقصعة بين يدي الآكل ، أتناول منها ما شئت ، وكذلك مَلَكًا السؤال ، فالله قادر أن يعطي نبيه صلى الله عليه وسلم الذي أعطاه لِمَلَكَي السؤال وملك الموت وفوق ذلك ، لأنهما دونه يسألان الأموات عنه صلى الله عليه وسلم.

رؤية الرسول صلى الله عليه وسلم:

لقد جاء في الحديث الصحيح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" من رآني في المنام فكأنما رآني في اليقظة" فقد قال علماء السلوك : لابد من تحقق الرؤية يقظة ولو لحظة قبل الوفاة لمن رآه مناما وقد رآه كثير من العلماء في المنام ، ثم رأوه في اليقظة في أحوال مختلفة ، وذلك كما قال الحافظ السيوطي وغيره ، ولقد ورد أن الشيطان لا يستطيع أن يتمثل به صلى الله عليه وسلم.

وروى البزار والطبراني وأبو الشيخ وغيرهم ، عن عمار بن ياسر رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" إن لله تعالى ملكا أعطاه أسماء الخلائق فهو قائم على قبري إذْ مِتّ، فليس أحد يصلي عليّ، إلا قال يا محمد صلى عليك فلان ابن فلان ، قال فيصلي الرب تبارك وتعالى على ذلك الرجل بكل واحدة عشرا".

الحكمة من خدمة التبليغ:

إن الرسول صلى الله عليه وسلم يسمع كل من في الكون ، ويبصر كل من في الكون . وليس هو فحسب وإنما أيضا جميع الأولياء كما ورد ذكره في الحديث القدسي الآنف الذكر (كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به) وعن حكمة هذا التبليغ – مع السمع والبصر – يقول العلامة الحلبي رحمه الله :

إن خدمة التبليغ التي يقوم بها الملك : إنما هي على سبيل الاحترام والتوقير.

ولأجل الترغيب في الصلاة والسلام عليه للجميع ، لكيلا يحرم أحد من الأمة ، ولإحداث مهرجان أسبوعي يشجع الأمة كلها من مطيع ومن عاص على عبادة مضمونة القبول عند الله ، فقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم يسمع بنفسه صلاة المصلي عليه : ليلة الجمعة ويومها ، فقد قال صلى الله عليه وسلم :" أكثروا من الصلاة والسلام علي يوم الجمعة وليلتها ، فإن صلاتكم معروضة علي".

وقد روى الحاكم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" ليهبطن ابن مريم حكما عدلا وإماما مقسطا وليسلكن فجا حاجا أو معتمرا وليأتين قبري حتى يسلم علي ولأردن عليه". هذا الحديث صححه الحاكم ، وسلمه الذهبي.

ويستفاد أيضا من هذا الحديث : سنية زيارة القبر الشريف ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد أخبر بزيارة عيسى له في قبره وأقره صلى الله عليه وسلم.

ولا يجوز أن يعترض معترض على حجية ذلك ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد أخبر وهو الصادق المصدوق الذي لا يخبر إلا بوحي في مقام التشريع العبادي ، بأنه عليه الصلاة والسلام قال:"ولأردن عليه" وهذا فيه دليل واضح على وجوده المثالي في برزخه المعطر الشريف ، فالأدلة والبراهين على الوجود المثالي – الذي يُحارب الآن – كثيرة جدا ، والمفروض أن نعتز ونفرح وننهل من هذه الأنوار ، لا ننكر ولا نجادل بلا مبرر وألا نستكثر على رسولنا صلى الله عليه وسلم وعلى أولياء الله عطاء الله فنكون على قدم متوازية مع أعداء الرسالة والرسول الذين ينكرون ذلك.

فمن كنوز المعرفة وروائع الفكر الإسلامي ما يقوله العلامة الحلبي رضي الله عنه ، حيث قال:" ومن الأدلة النقلية والعقلية أيضا – أي على الوجود المثالي : أن الله تبارك وتعالى قد نَصَّب النبي صلى الله عليه وسلم شاهدا على أمال العباد : خيرها وشرها إلى يوم القيامة فقال تعالى:**{يَا أَيُّهَا النَّبِيّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا(45)}[الأحزاب]**

والشاهد : لابد أن يكون حاضرا للمشهود عليه ، وناظرا للمشهود إليه.

فعلم بذلك أنه ملأ كل عالم ، وحاضر في كل مكان بوجود مثالي وضعه الله فيه ليؤدي رسالة عامة خالدة، ثابتة مستقرة ، قال تعالى :**{إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ(9)}[الحجر]** أي إلى يوم القيامة ، هذا ، وإن القرآن الكريم: قواعد كلية فلابد من توضيحه وتفصيل أحكامه بالرسول صلى الله عليه وسلم ، أي بالسنة التي هي جميع أقواله وأفعاله وتقريراته وأحواله وصفاته صلى الله عليه وسلم ، قال تعالى :**{... وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ(44)}[النحل]** فالذكر هنا : هو القرآن ، والتبيين : أي لتفسر وتوضح بأقوالك وأفعالك وتقريراتك وأحوالك وصفاتك.

فإذا كان القرآن وهو " المفسَّر" محفوظا بوعد الله ، وأن السنة ضرورية لتفسيره ، فلابد أن تكون هي الأخرى محفوظة بحفظ المفسر – إلى أن تقوم الساعة . فلابد أن تُستَجْلَى أحواله وصفاته من وجود مثالي يطبعها في وجدان خواص أمته ، ويرسلها طليقة لمن كان أهلا لها ، استمرارا لهيمنة قدوته الشريفة على كافة النفوس والله أعلم.

وورد عن البيهقي وابن عساكر وغيرهما عن حاطب مرفوعا على النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال:"من زارني بعد موتي فكأنما زارني في حياتي".

فأكرم به صلى الله عليه وسلم من مضيف منحه الله كرم الضيافة لضيفه بتأهيله للمغفرة والرضوان من الله سبحانه لمن استغفر الله من ذنبه بين يديه صلى الله عليه وسلم .

فلتقرأ في ذلك قول الله سبحانه:**{... وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا(64)}[النساء].**

<u>لا تموت الروح بموت البدن</u>

إن الموت حالة تعتري الإنسان ولا يستطيع الفكاك منها ، مهما كانت قوته أو غناه أو عافيته أو وجاهته ، فقد حسمت هذه القضية بمثل قول الله تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم :**{ إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ (30)}[الزمر].**

والمعنى المتعارف عليه والذي لا يشوبه أدنى خلاف أن البدن يموت بمفارقة الروح له . وفي الواقع أن الموت ما هو إلا : انتقال من حالة إلى حالة وليس عدما مطلقا لمن يموت.

<u>*أحوال البدن بعد مفارقة الروح:</u>

<u>للبدن بعد مفارقة الروح أحوال:</u>

<u>الأولى</u>: بقاء البدن بعد مفارقة الروح وذلك للأنبياء والشهداء وكثير من الصالحين والمؤذنين حسبة وحملة القرآن الذين يحلون حلاله ويحرمون حرامه ، فقد جاء في بعض الآثار أن الأرض تقول لرب العزة : كيف آكل جسده وفي جوفه كلامك.

<u>الثانية</u>: إن بعضا من أهل الحالة الأولى : تفارقه الروح مؤقتا ، ثم تعود إلى البدن بعد ذلك ، لقوله تعالى :**{ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ...(185)}[آل عمران]** كما هو الحال في الأنبياء ، فالنبي صلى الله عليه وسلم : يفرح ويستغفر وتعرض عليه الأعمال ، فيحمد الله إن كانت

خيرا ، ويستغفر لأمته إن كانت غير ذلك .ومنه ما حدث لسيدنا موسى عليه السلام ، إذ رآه صلى الله عليه وسلم وهو يصلي في قبره ، والصلاة ذات قيام وقعود وركوع وسجود . وكل ذلك لا يتأتى إلا بالبدن ، ورأى بعض الأنبياء يحجون البيت ، يعجون بالتلبية وهو الذي أم الرسل والأنبياء والملائكة ، ثم رأى بعضهم وتكلم معهم في السموات ووصفهم بصفاتهم وبما كان عليه بعضهم في الدنيا.

<u>الثالثة</u>: أن تفارق الروح الجسد ولا يبقى في البرزخ إلا الروح . وتلك الحالة هي ما عليها غالبية الناس.

<u>أنواع الموتى بالنسبة للجزاء:</u>

1- نوع في النعيم المقيم الذي أعده الله لهم ، فيشعرون بكل شيء ، وتصلهم المعلومات عن الأحياء ، وتعرض عليهم أعمال أقاربهم ، ويردون التحية، ويستأنسون بالزيارة ويفرحون بالاستغفار لهم والصدقة والدعاء وهدايا تلاوة القرآن لهم.

2- نوع في عذاب – وهم الذين لم يقروا بالوحدانية ، وأهل المعاصي التي لا تتبعها توبة، وأصحاب البدع والذين يبيعون الدين بالدنيا الفانية . والكفر بجميع أنواعه سبب لذلك ، فهؤلاء يكونون مشغولين بأنفسهم لأن المرء تهمه نفسه قبل أحد، وخاصة إذا كانوا في شقاء. وها هو القرآن العظيم يوضح أن الروح الموحدة الصالحة تفارق جسدها وتنعم بما فرضه الله لها [1].

وفي القرآن الكريم والأحاديث النبوية الكثير من بيان ذلك ، وهذه تبقى على هذا الحال بقاء الدنيا ، فإذا نفخ في الصور النفخة الأولى : ماتت أرواح الملائكة والإنس والجن ، ومصداقا

---

[1] خصائص النبي للمحب المكي ص161، 162

لقوله تعالى:**{وَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلاَّ وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ(88)}[القصص].**

فينادي الخالق جل جلاله:**{... لِّمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ...(16)}** فيجيب ذاته بذاته **:{ ... لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ(16)}[غافر].**

فالأبدان ماتت : عندما فارقتها الأرواح : في الموتة الأولى.

والأجساد والأرواح تموت عند النفخة الأولى.

وفي قوله تعالى:**{ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللهُ...(68)}[الزمر]:** ممن خلق من ذوات الأنفس . وكلمة " من" في قوله **:{... إِلاَّ مَن شَاءَ اللهُ... (68)} [الزمر]:** لا يقتضي أن تكون للعاقل فالنافخ في الأولى يحتمل أن يبعثه الله بإرادته لموته ، ثم يحييه لينفخ النفخة الثانية.

<u>انتفاع الحي بالميت</u>: كما يجوز أن يتوسط حي في قضاء مصلحة حي – والفعل لله وحده – فإنه يجوز أن تتوسط روح ميت في قضاء مصلحة حي أو ميت – والفعل لله وحده – والأرواح باقية على الحياة وأفعالها في عالم الملك إنما تظهر بواسطة البدن مادام حيا بالحياة الحيوانية فإذا مات وفقد الحياة الحيوانية بقيت نفسه وروحه على حياتها الملكوتية وتعلقت بجسمه تعلقا آخر على وجه يعلمه الله وحده كما دل عليه نعيم القبر وعذابه. فإذا كان الفعل في الواقع ونفس الأمر إنما هو للنفس والروح ، والجسد آلة فقط يظهر به الفعل، والروح باقية خالدة ففعلها باق وتصرفها في أفعالها لا يتغير إلا بعدم ظهور الأفعال بواسطة البدن فلا مانع عقلا وواقعا أن يكون بعض أرواح الأولياء والصالحين بعد موت الأجساد سببا بدعائها وتوجهها إلى الله تعالى في قضاء حوائج الزائرين لهم المتوسلين بهم دون أن يكون لها مدخل في التأثير فلا فرق بين التوسط بالأحياء في قضاء الحوائج مع اعتقاد أنه لا فاعل إلا الله . وبين توسط أرواح الأموات مع اعتقاد ذلك . والله أعلم.

الحب إكسير الحياة:

لقد خلق الله تعالى الإنسان ليؤدي رسالته من منطلق الحب والبشر والسرور ، لأن أساس وجوده في هذا الكون هو المعرفة ، والمعرفة لا تتأتى إلا بالحب والحب لا يتحقق إلا بتضحية المحب وترضية محبوبه.

قال الله سبحانه :**{ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ(56)}[الذاريات]** : أي ليعرفون ، والمعرفة : عبادية ومذاقية : أي تعني القرب من المعبود أي المحبوب ، والمعرفة هي : نفس القرب، والقرب هو: ما أخذ القلب وأثر فيه أثرا يظهر على الجوارح ويهز المشاعر.

المعرفة لغة واصطلاحا:

المعرفة في اللغة: هي العلم الذي لا يقبل الشك.

المعرفة في اصطلاح التصوف : هي : العلم الذي لا يقبل الشك إذا كان المعلوم ذات الله تعالى وصفاته.

سر المعرفة وروحها:

إن سر المعرفة وروحها : التوحيد ، وذلك بأن تنزه حياته تعالى وعلمه وقدرته وإرادته وسمعه وبصره وكلامه عن التشبيه بصفات الخلق ، (ليس كمثله شيء).

علامة المعرفة: إن علامة وجود المعرفة : حياة القلب مع الله تعالى على الدوام ، وهذا هو السبب في أنه يقال للولي : العارف بالله تعالى.

أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : أتدري ما معرفتي ؟ قال: لا .

قال: حياة القلب في مشاهدتي ، فإن قيل : ففي أي مقام تصح المعرفة الحقيقية؟

يقال: في مقام الرؤية والمشاهدة بسر القلب ، وإنما يرى ليعرف ، لأن المعرفة الحقيقية في باطن الإرادة فيرفع الله تعالى بعض الحجب فيريهم نور ذاته تعالى وصفاته عز وجل من وراء الحجاب ليعرفوه تعالى ، ولا يرفع الحجب بالكلية لكيلا يحترق الرائي.

<u>**أنواع التجلي**</u> : 1- تجلي الجلال 2- تجلي الجمال 3- تجلي الصفات 4- تجلي الذات.

فتجلي الجلال والعظمة يوجب الخوف والهيبة ، وتجلي الجمال والحسن يوجب العشق ، وتجلي الصفات يوجب المحبة ، وتجلي الذات يوجب التوحيد.

الدنيا والمعرفة : قال بعض العارفين : والله ما نال رجل الدنيا إلا أعمى الله قلبه وبطل عليه عمله، إن الله تعالى خلق الدنيا مظلمة وجعل الشمس فيها ضياء . وجعل القلوب مظلمة وجعل المعرفة فيها ضياء ، فإذا جاء السحاب ذهب نور الشمس فكذلك يجيء حب الدنيا فيذهب بنور المعرفة من القلب.

وقيل: حقيقة المعرفة نور يطرح في قلب المؤمن – وليس في الخزانة شيء أعز من المعرفة [(1)].

وسئل بعض العارفين : متى يعرف العبد أنه على تحقيق المعرفة؟ فقال : إذا لم يجد في قلبه مكانا لغير ربه ، وقال بعضهم : حقيقة المعرفة : مشاهدة الحق بلا واسطة ولا كيف ولا شبهة . وقيل لسيدنا علي كرم الله وجهه : يا أمير المؤمنين أتعبد من ترى أو من لا ترى؟ فقال: لا بل أعبد من أرى ، لا رؤية العيان ، ولكن رؤية القلب.

وقيل للإمام جعفر الصادق رضي الله عنه : هل رأيت الله عز وجل؟

قال: لم أكن لأعبد ربا لم أره. قيل : وكيف رأيته وهو الذي لا تدركه الأبصار . قال : لم تره الأبصار بمشاهدة العيان ولكن تراه القلوب بحقائق الإيمان ، لا يدرك بالحواس ولا يقاس بالناس، وسئل بعض العارفين عن حقيقة المعرفة ، فقال: تخلية السر عن كل إرادة وترك ما

---

(1) روضة الطالبين ص 122،121.

عليه العادة وسكون القلب إلى الله تعالى بلا علاقة وترك الالتفات منه إلى ما سواه، ولا يمكن معرفة كنه ذاته ولا معرفة كنه صفاته عز وجل ولا يَعْرِفُ من هو إلا هو تبارك وتعالى والحمد لله وحده.

<u>الحب والإسلام:</u>

إن كل من أوتي حظا من المعرفة ، ونصيبا من الفهم والتذوق لنصوص الإسلام من آيات قرآنية وأحاديث نبوية تتضح أمامه الرؤية ، ويعلم يقينا أن الإسلام دين الحب ، وأن المؤمن لا يجد حلاوة الإيمان إلا إذا حس حرارة الحب.

وفي ذلك يقول رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم: " ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان ، أن يكن الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار "[رواه البخاري ومسلم].

بل إن ديننا الحنيف أمرنا أمر إيجاب بالحب ودعانا إلى تحقيقه وحضنا عليه ، فيقول الرسول صلى الله عليه وسلم :" أحبوا الله لما يغدوكم به من نعمه ، وأحبوني لحب الله إياي ، وأحبوا آل بيتي لحبي". رواه الترمذي عن ابن عباس رضي الله عنهما.

فنرى من ذلك : أن الإسلام يدعو إلى المحبة : محبة الله تعالى ، ومحبة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومحبة آل البيت والصحابة ، ومحبة الدين والعقيدة ، ومحبة الخلق الأسوياء.

فالحب بكل معانيه الإيجابية الروحية سمة لازمة ، لا يكمل إيمان ولا يتم إسلام إلا به ، فهو عاطفة جياشة بالخير والعطاء والنور والصفاء يزدان بها الجو الإسلامي ، وتعبق أجواء المحيط الديني ، وتعلي شأن المجتمع العقدي [1].

وآية ذلك : حديث أنس رضي الله عنه : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخطب على المنبر ، فقام أعرابي فقال: يا رسول الله : متى الساعة ؟ فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم :" ماذا أعددت لها ؟" قال: والله ما أعددت لها كثير صلاة ولا كثير صيام ، ولكني أحب الله

---

(1) الحب في القرآن ، د. محمود بن الشريف.

ورسوله. فقال له صلى الله عليه وسلم :" أنت مع من أحببت " . وفي رواية " المرء مع من أحب" فقال أنس راوي الحديث : فو الله ما فرحنا بشيء بعد الإسلام مِثْلَ فرحنا بقول الرسول صلى الله عليه وسلم له : أنت مع من أحببت . ثم قال أنس : وإني أحب رسول الله ، وأحب أبا بكر ، وأحب عمر ، وأرجو أن أكون معهم بحبي إياهم".

وكفى بالحب تعظيما وأهمية فائقة أن يسأل الرسول ربه أن يحققه له وأن يعيش دائما في كنفه ، فقد روى الترمذي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتوجه إلى ربه راجيا أن يمنحه إياه فيقول:

"اللهم إني أسألك حبك وحب من أحبك وحب ما يقربني إلى حبك".

فلا إسلام بلا حب ، فإن المنافقين كانوا في عهد النبي صلى الله عليه وسلم ينطقون بالشهادتين ويؤدون الصلاة – الظهر والعصر – وينفقون وهم كارهون لكن قلوبهم كانت خاوية من الحب – فلا حب إلا لأغراضهم الدنيوية.

فلا إيمان بدون حب ، فالحب أساس للإيمان والإسلام الصَّحيحَيْن. فقد روى مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

" والذي نفسي بيده لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا ألا أدلكم على شيء إن فعلتموه تحاببتم : أفشوا السلام بينكم".

أبعاد الحب:

للحب أبعاد أربعة:

1- حب الله للعبد

2- حب العبد لله .

3- حب في الله .

4- حب للشهوات المحرمة.

فحب الله للعبد معناه:

أ- التوفيق للطاعة ومنح العبد حبا خاصا للدين.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" إن الله تعالى يعطي الدنيا من أحب ولمن لا يحب ولا يعطي الدين إلا لمن أحب فمن أعطاه الله الدين فقد أحبه".

ب- كثرة الابتلاءات المقرونة بالتفويض والتسليم والرضا التام.

فقد سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم : أي الناس أشد بلاء يا رسول الله ؟ قال:" الأنبياء، ثم الصالحون ، ثم الأمثل فالأمثل يُبتلى الرجلُ على قدر دينه، فإن كان في دينه قوة : اشتد بلاؤه ، وإن كان في دينه رِقَّة خَفَّ بلاؤه.

جـ - أن يُحَبِّبَهُ في عباده الصالحين ، لينهج نهجهم بعد أن كان ما كان ، فقد قال صلى الله عليه

وسلم : "خير الأصدقاء من يذكرك إذا نسيت ويعينك إذا ذكرت" وقال صلى الله عليه وسلم:"

مثل الجليس الصالح والجليس السوء كبائع المسك ونافخ الكير..." رواه البخاري في صحيحه.

<u>وحب العبد لله معناه</u> : أ – طاعة الله تعالى وذكره المستمر على جميع حالاته.

ب – حب النبي صلى الله عليه وسلم جـ - حب آل بيته صلى الله عليه وسلم.

قال صلى الله عليه وسلم :" أحبوا الله لما يغدوكم به من نعمه وأحبوني لحب الله إياي وأحبوا آل بيتي لحبي".

وقال عليه الصلاة والسلام في حديث شريف :" أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما".

<u>وحب في الله</u> : هو حب المسلمين لبعضهم البعض ابتغاء مرضات الله . فقد بين عليه الصلاة والسلام أن من السبعة المكرمين يوم القيامة في ظل عرش الرحمن :" ورجلان تحابا في الله اجتمعا عليه وافترقا عليه" وفي الحديث القدسي :" المتحابون فِيَّ المتزاورون لجلالي أظلهم يوم القيامة تحت ظل عرشي".

وأما الحب المجرد عن العفة والشرعية : فهذا حب شيطاني يُودِي بصاحبه في أتون نار جهنم – فهو حب لاكتساب مال محرم أو جاه بطرق غير مشروعة أو شهوة لفاحشة أو لسكر ، لأن إدمان هذه الأشياء يجعلها محببة للنفس المريضة التي شذت عن الفطرة والاستقامة.

وهذا الحب يجرد صاحبه من أمارات الإيمان ، ويجعله مجردا من الإنسانية ، مُسْتَذَلاً مستعبدا مستهدفا للأهواء والانحرافات الجامحة . فيكون مباءة للأمراض ومستودعا للميكروبات والجراثيم الحسية والمعنوية ، ومكروها من سائر الخلق ، قد طبعت كراهيته في قلوب المؤمنين الأسوياء منه ويكون مبغَّضا من أهل السماء وعرضة للموت على غير الإسلام إذا لم يقدم توبة نصوحا كاملة الشروط والأداء فيخلد في النيران والعياذ بالله .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن . فإذا فعل ذلك فقد خلع ربقة الإسلام عن عنقه " رواه البخاري.

فالحب : تضحية ووفاء وجهاد أصغر وجهاد أكبر وذكر للمحبوب وطاعة له واستسلام لقضائه وأداء كامل لحقه ، ودعوة للإيمان والعمل الصالح. وتواصٍ بالحق وتواصٍ بالصبر.

المحبة وسريانها المتدفق:

المحبة الروحية سر يسري في الكيان الإنساني فيجرد العلائق المادية فيكون المنزع ملائكيا ، يفيض على من حوله بالأسرار والأنوار ، فكلما امتلأ إناء وفاض فإنه ينسكب من جوانبه ، وذلك هو السر الساري ، بل الخصائص الذاتية للنور الذاتي الذي يهتك أستار الحجب ، ويزيل أغطية الران ، فيغدو المسلم مسلما كاملا والمؤمن مؤمنا حقا ، وتلك هي الحركة الديناميكية للتصوف الصحيح : نور – هداية – قرب – وجد – شوق – أنس – بهجة – وصل.

ويقول: د. محمود بن الشريف رحمه الله في كتابه " الحب في القرآن " تحت "عنوان حب الحب"[1] :

" الله هو النور هو الحق والعدل والخير والسلام : فمن أحب النور والحق والعدل والخير والسلام، فقد أحب الله لأن الله هو الحب".

لأن المؤمن إذا أحب شيئا صار له عبدا ، والله لا يرضى أن تكون عبدا لغيره فالعبودية لا تكون إلا لله ، إذ هو الإله المعبود والعبادة له والحب له . فالحب عبادة وأيما عبادة ، والعبادة تقوم على الخوف وعلى الرجاء وعلى المحبة .يقول ذو النون المصري رضي الله عنه :" إن المؤمن إذا آمن بالله واستحكم إيمانه : خاف الله ، فإذا خاف الله تولدت من الخوف هيبة الله ، فإذا سكنت درجة الهيبة قلبه دامت طاعته لربه ، فإذا أطاع تولد من الطاعة الرجاء ، فإذا سكنت درجة الرجاء تولد من الرجاء المحبة ، فإذا استحكمت معاني المحبة في قلبه : سكنت بعدها درجة الشوق ، فإذا اشتاق أداه الشوق إلى الأنس بالله ، فإذا أنس بالله اطمأن إلى الله . فإذا اطمأن إلى الله : كان ليله في نعيم ونهاره وسره وعلانيته في نعيم".

مراتب الحب

للحب خمس مراتب : 1- العلاقة 2- الصبابة 3- الغرام 4- العشق 5- التتيم.

المرتبة الأولى : سميت العلاقة ، لتعلق القلب بالمحبوب.

المرتبة الثانية: سميت الصبابة ، لانصباب القلب إلى المحبوب.

المرتبة الثالثة: سميت الغرام وهو الحب الملازم للقلب.

المرتبة الرابعة: سميت العشق ، وهو انفراد المحبوب بالقلب.

---

[1] الحب في القرآن ، د. محمود بن الشريف ص 21، 22

المرتبة الخامسة: سميت التتيم، وهو هيمان القلب بالمحبوب.

<u>فالمعنى العلمي للحب هو</u> : أن حب الله هو : أن يُقْبِلَ المرءُ على الله ، ويُسلمَ وجهه وأمره ومقاليده وكيانه كله لله.

وأن يتوكل عليه ، ولا يسأل إلا إياه ولا يعتمد إلا عليه ، وأن يؤثر طاعته على النفس والمال والولد والجاه.

وأن يكون هدفه : الله وغايته : الله ، كما قال الله **:{... قُلِ اللّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ (91)}[الأنعام].**

<u>مصــادر الحــــب</u>

<u>للحب روافد يُستقى منها:</u>

والحب الذي نرنو إليه هو : حب العبد لربه ، ذلك الحب الذي يكون نعمة النعم لهذا العبد ، التي لا يعرفها إلا من يتذوقها.

ولكن حب الله لعبد من عباده يكون هو الأصل ، والأساس الذي يعجز أي بيان مهما كان عن تصور عظمته وجلاله وجماله ، إذ إنه وَمِيضٌ قُدَرِيّ ونفح رباني ، وتجلٍّ أزلي، ومن إعجاز القرآن العظيم :أن يذكر الله سبحانه الحبين في لفظتين اثنتين هما :(يحبهم ويحبونه) : فقد سبق حبُّ الله تعالى حبُّ العبد فلولا هذا السبق الأزلي ما أحب هذا العبد ربه.

وإذا كان حب الله لعبد من عباده أمرًا لا يمكن أن يصفه الواصفون، فإن حب العبد لربه أمر يمكن التعبير عنه ، ولكن قلما استطاعت العبارة أن تصوره إلا في فلتات قليلة من كلام المحبين المولهين.

فإذا عرفنا أن الحب الإلهي هو نعمة النعم ، وذروة الكرم، والغنى الذي لا يسبق والسعادة التي تفوق كل سعادة ، فإن هذا الحب الواعد – مع إنه عناية أزلية – له أسباب وروافد توصل إليه منها:

1- تذكر كل نعمة والوقوف – فكريا – أمامها حيث يتنعم بها العبد دون استحقاق لها ، بل يمنحه الله إياها بمحض الفضل.

2- حسن استقبال النعم المستجدة وتعلق القلب الذي أفاضها ، وشكره عليها بالقلب وباللسان والجوارح بأن ينصرف كل عضو فيما خلقه الله بالنسبة لهذه النعمة ، التصرف الواعي السليم الذي يُرْضِي الحق سبحانه.

3- الإنفاق المستمر من هذه النعمة دون مَنٍّ على كل مَنْ حُرِمَها ، وتوجه القلب إلى الله بالاعتذار عن تحقيق كمال الشكر ، وغلق القلب عن التطلع إلى شكر الناس وثنائهم من الذين أخذوا منها.

4- حسن استقبال البلية ، واعتبارها من كبريات العطايا ، فهي رسالة من الحبيب لحبيبه ، وعدم المقارنة مع من لم يصابوا بمثلها ، ليتحقق الرضا التام والإذعان بل والفرح بها.

5- الكتمان لها – ما أمكن – وعدم بثها على الناس ، لأن ذلك يعتبر تَبَرُّمًا بل والعبد حينئذ يكون قد شكا الله تعالى إلى خلقه ، وليس هذا شأن المحبين ، فالحب ستر المعاملة مع المحبوب.

6- التوبة النصوح الكاملة الشروط والأداء ، لاتصال حبل الوداد مع المحبوب ، فلا يمكن لحب أن يتحقق وأن يؤتي ثماره مع مخالفة للمحبوب.

تعصي الإله وأن تظهر حبه ... هذا لعمري في القياس بديع

لو كان حبك صادقا لأطعته ... إن المحب لمن يحب مطيع

7- اتخاذ مرشد أمين ، قد سلك طريق الحب الإلهي ، وَعبَر خِضَمَّهُ طولا وعرضا ، ليدلك على طريق الحب الصحيح الذي لا رجعة بعده إلى الشيطان ووساوسه.

وهذا المرشد لابد أن يكون وليا من أولياء الله ، وهو مطلب عزيز في هذا العصر لكثرة

الأدعياء ، وانشغال معظم القلوب بما سوى الله ، لكنه موجود ، فابحث عنه تجده ، فله علامات يعرف بها :

أ – نور النبوة يلوح واضحا في وجهه. يحكي حرف (ن) فنور الوجنتين رسم : ن بلا نقطة لأن نقطتها على الجبهة (○) مستديرة : تشع نورا في قلب الرائي فيستريح له الفؤاد وإليه ينجذب ، فلا يجد تعبيرا عن تلك النشوة إلا لثم اليد الكريمة والتعاقد معا على طاعة الله تعالى وذكره . وصدق الله تعالى إذ يقول:

{... سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ ...(29)}[الفتح] فليس السيما نقطة سوداء بل نور يصعد من القلب على الوجه ، لأن : (سيماهم) أي علامتهم.

وصدق القائل:

نور النبوة لائح لجبينهم   يغني الشريف عن اللباس الأخضر

ب – صمتهم أشعة تهدي الحائر ، وكلامهم بلسم يشفي صاحب الداء الغائر.

جـ - أنفاسهم تعطر القلوب والمكان وتصفي كدورة النفس وترقي الأرواح ، فقد قال أهل العرفان والتقوى :" إذا دخل العارف بالله تعالى بلدة وتنفس فيها سكن قلب كل مؤمن فيها " ومعنى "سكن ": اطمأن بحلاوة الإيمان ، وكيف لا ؟!! وهو وارث محمدي.

فهم يغترفون من بحر النبوة نورا يصلحون به الخلق على الله تعالى ، وتلك عطية العطايا ومنحة المنح الربانية، لأن الولي من والي الله بطاعته له وإنابته وذكره المستمر ، فوالاه الله بإمداده بالنور والصفاء والنقاء الذي ينتعش في القلوب المستعدة لتلقي تلك الأنوار، وسبحان من فضل بعض الناس على بعض في الرزق المادي الحسي والمعنوي النوراني فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

قال تعالى :{... وَرَفَعْنَا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ ...(32)}[الزخرف].

وعلامة وجود النور في القلب هو : الخلق الحسن ، فمن كان أحسنَ منك خُلُقًا فهو أكثر منك صفاء وتصوفا.

وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" إن الله قسَّم بينكم أخلاقكم كما قسم أرزاقكم ".

ب – أن يتوب الله على كبار العصاة بسببهم توبة نصوحا مستمرة وذلك بسبب النور الذي أودعه الله قلوبهم ، فكل من اتصل بهم سرى سريان النور إلى قلبه فيفتق حجاب الران الذي على قلب العاصي، صاحب القلب المنكوس فيهتدي بهذا النور ويعود القلب كما كان قبل المعاصي إلى فطرته السليمة ، فيأخذ ذلك المريد بورد الشيخ الذي يتغذى القلب به ليستمر نوره في ازدياد ، ويقوى على شيطانه ، فيبتعد عنه شيطان الإنس وشيطان الجن ، ويغدو محبا لشيخه لأنه السبب في هدايته إلى الله تعالى، ومحبا لآل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ويزداد حبه للنبي صلى الله عليه وسلم ، ويعكف قلبه على حب الله تعالى وذكره فيصبح في عداد الصالحين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، وقد بدل الله سيئاته حسنات فأحبه وقذف محبته في قلوب الخلق أجمعين من العرش إلى الفرش ، وصدق الله تعالى إذ يقول : **{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمْ الرَّحْمَنُ وُدًّا(96)}[مريم]** أي ودادا متصلا به سبحانه أحلى مذاقا من العسل، فإن مودتهم متواصلة في قلوب الخلق، وذلك فضل الله تعالى يعطيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم.

جـ - ما يظهره الله تعالى من الكرامات ومن خوارق العادات على أيديهم مثل شفاء الأمراض المستعصية لبعض الناس الذين يريد لهم ذلك ، والبشر والسعادة بمعرفتهم ، ومثل إجابة الدعاء، وتفريج الكرب، والإنباء بأمور مستقبلية من إلهام الله لهم ، وكأن الإنسان في يوم عيد حينما يقابل وليا وذلك لانقشاع سحابة الحزن من نفس الزائر.

د – الحب الفائق الذي يقذفه الله في قلوب جميع الناس الذين يعرفونهم وقد جربوا كراماتهم والاستقامة على أيديهم فأدمنوا ذلك الحب.

<u>تفاوت الحب بتفاوت العطاء:</u>

ليس كل الأولياء على درجة واحدة من محبة الخلق لهم ، لأن هذا الحب يتبع عطاء الله تعالى للولي ، فيزيد بزيادة العطاء وكثرة الكرامات وزيادة الأنوار التي يشعر بها من انخرط في سلكهم كابن روحي أو محب فقط.

فكلما زادت استقامة السالك وعلا قلبه نورا وزاد بشره وصلته بربه كلما زاد حبه لشيخه الذي كان سببا في هذا العطاء ، والذي خلصه من رعونات نفسه الأمارة بالسوء، ليدخله على حضرة الله القدسية بروح تشرف إلى مراقي الملأ الأعلى ، بما يفيض الله على قلبه من أسرار وأنوار. وكلما قل العطاء قل الحب.

فنحن نجد تفاوتا كبيرا بين المريدين في الرقي الروحي ، بسبب تفاوتهم في حب شيخهم ، وتفاوتهم في الاجتهاد بالعمل الصالح والذكر ، وتفاوتهم في معادنهم . فالعلم الحديث قد طالعنا في الفترة الأخيرة بما للسلالات الممتازة من أثر في الوراثة بما يفسر حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال :" الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الإسلام إذا فقهوا".

فمعدن الذهب لا يصدأ أبدا، حتى ولو علته أتربة ، فبالتخلص منها يتبقى ناصعا صافيا ، وهناك معادن تحتاج إلى الجلاء المستمر وإلا فسدت.

فالإنسان الشريف نسبا ، حالته غير من ليس شريف النسب وذلك في قضية العمل الصالح الذي يقصد به وجه الله ، فإذا تعبد كل منهما ، فالشريف عادة يستمر في استقامته مع ربه ، ويترقى وقد يصل إلى مقام الإحسان في فترة وجيزة ، أما غير الشريف عادة ما يتوقف وقلبه لا يستمر في صفائه إلا من رحم، وقد يرجع إلى المعصية ثم إلى الطاعة وهكذا إلا إذا منح شيخا قد أعطي الولاية العظمى فأسلم له قياد التربية وجميع خواطره في كمال الأدب معه ، ليتم له الأدب مع الله فَيُشّرفَ بنسبته إلى سلسلة شيخه روحا . وعلى هذا الحال كان سيدنا سلمان الفارسي الذي شرب من نور النبي صلى الله عليه وسلم حتى شهد له بها حيث قال صلى الله عليه وسلم:"سلمان منا آل البيت " وكذلك "صهيب" الرومي، و"بلال"

الحبشي ممن نجحت تربيتهم الإسلامية ، فتغيرت سلوكياتهم حتى أصبحوا من قمم الإسلام الشامخة.

وصاحب النسب الشريف لكي يصل إلى مقام الإحسان فلابد له من شيخ عارف بالله تعالى ليكمل له مسيرته إلى ربه فلا يجوز الركون إلى النسب بلا حب ولا عمل.

بل إننا نجد تفاوتا كبيرا بين مشايخ الطرق والأولياء ، فقد نجد شيخا لطريقة أو لسجادة أو نُصِّب شيخ المشايخ وليست معه ولاية يعتد بها لتنضح نورا على الأتباع بل يكون هو أحوج إلى من يربيه. وقد يُمنح الشيخ ولاية على قدر الاستعداد والعطاء والمهام الموكولة إليه في الدعوة أو الخلوة مع الله ، وقد يعطي الله وليا آخر فتحا أكثر وهداية للناس أكبر وسرا أعظم . فسبحان واهب العطاء ، وهذا العطاء الإلهي لا يتوقف على سن معينة ولا على حفظ أحوال ومقامات الصالحين ولا كتب العارفين ولا على حفظ علم التشريع ، بل قد يفيض الله بعطاء النور على صغير السن ومن لا يحفظ العبارات ولكنه أستاذ في علم القلوب وقمة شامخة في سطوع نوره في عالم الملكوت ولا حرج على فضل الله.

الإنسان والشيخ:

فالإنسان بدون شيخ مرشد كامل الولاية والعطاء الإلهي يتخبط في حياته ، ولا يقرُّ له قرار ، مهما تعلم ومهما قرأ أو حفظ من النصوص الدينية ، وبخاصة في هذا العصر الذي نحياه ورحم الله شاعر الأولياء : الشيخ علي عقل الخليلي حينما قال من إلهاماته:

إذا لم يكن للنفس شيخ له هـــدى * يؤدبها بالسر زاغت عـــــن السير**

وهل يعبر البحر الخضم ونوءه * سوى ماهر يدري الملاحة في البحر**

فلولا اتصال الكهرباء بأصلــها * على موجة التيار ما نورهـــا يسري**

<u>* هل حب الشيخ حرام أو كفر كما يدعي البعض؟</u>

إن الحب في الله من أعظم القربات التي يدعو إليها الإسلام ويحث عليها ، لأن القلب الذي يعرف الحب لن يعرف البغض ولا الحقد ولا الحسد ولا الفتن ولا الإحن . وتلك أمور خطيرة على إسلام المرء ، قد نهى الإسلام عنها بأشد النكير.

إذًا فالحب في الله تعالى ضرورة إسلامية تدعو إليها حاجة قلب المسلم إلى الصفاء والنقاء الذي أوجبه دين الله والذي لن نستفيد من الدنيا بما حوت إلا وجوده معنا يوم أن نلقى الله تعالى ، قال الله سبحانه:

{يَوْمَ لا يَنفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ(88) إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ(89)}[الشعراء].

فالقلب السليم الصافي النقي هو الأساس في إيمان المرء ، وفي قبول عمله الصالح ، وفي رضاء الله عنه ، وهذا الصفاء لا يتأتى إلا من الحب الإلهي.

والذي يحقق ذلك أولا : حب الولي ، وخصوصا مَنْ نتعلم على يده دروس الحب عمليا من أهل الصلة بالله تعالى:

وقد قال صلى الله عليه وسلم:" من أحب قوما حشر معهم".

<u>نعمة الحب:</u>

إن كثيرا من الناس في هذه الأيام محرومون من نعمة هذا الحب ، لانشغال قلوبهم بمحبة أشياء دنيوية أو ملء قلوبهم بالأغيار مثل : العداء القلبي والغيرة والحقد والحسد والطمع والجشع والأثرة والأنانية والرياء وحب التظاهر والفخر والمباهاة وإعجاب المرء بنفسه وسوء الظن بالمسلمين والبخل والشح والخداع والغش والوساوس والهواجس الشيطانية والنزعات العدوانية

وحب الضرر للمسلمين والفتنة والوقيعة والكبر والغرور والشماتة بالأعداء وما شاكل ذلك من مدمني المعاصي كالفحش والعربدة وتناول المسكرات والمخدرات والسرقة والنهب ، وأكل الحرام والغيبة والنميمة وفساد الطوية وحب الجدل وسوء النية والتلصص على عورات الناس، والكشف عن مساوئهم ، واختراع المساوئ للناس ، والقدح في أعراضهم ، وترك فرائض الصلاة ، والإفطار بلا عذر في رمضان ،ومنع الزكاة ، وترك أداء الحج مع الاستطاعة وما إلى ذلك من المحرمات التي تُظْلِمُ القلب وتُقَسِّيه وتكون بمثابة أغلفة وأحجبة عليه – كالحجاب الران مثلا فقد قال صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح :" إذا أذنب العبد ذنبا نكتت نكتة سوداء في قلبه ، فإذا لم يتب وأتبعه بذنب آخر اتسعت النكتة ، وهكذا كلما عاود الذنب حتى تغطي القلب كله فذلكم الران الذي قال الله فيه :**{كَلاَّ بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمِ مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ(14)}[المطففين].**

فالحب أساس الإيمان ، ودعامة السلوك السوي ، وهو من أعظم النعم التي أنعم الله بها على أهل الإيمان ، لأن أول شيء يجب على المكلف : المعرفة ، والمعرفة مَعْبَرُ الحب وسبيله وترجمانه وإكسير وجوده ومناط حركته ، فلا حياة ولا سعادة إلا بمعرفة الله تعالى المبنية على الحب.

ودليل وجود الحب كثرة ذكر المحبوب ، لأن ذلك يعني دوام الصلة بين المحب والمحبوب . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" مثل المؤمن الذي يذكر ربه والذي لا يذكر ربه كمثل الحي والميت".

والمحب لله تعالى الذاكر له على الدوام يكون في مَعِيَّة ربه وفي كنفه ورضوانه . قال الله تعالى في الحديث القدسي:" أنا مع عبدي إذا ذكرني وتحركت به شفتاه". إن المحب لله تعالى لا يتمكن من هذا الحب إلا إذا كان قد تحلل من قيود المادة والشيطان وأصبح معنيا بشبكة الاتصال الروحية التي يقودها خير الأنام صلى الله عليه وسلم : ليحجز خطًّا من هذه الشبكة النورانية يوصله به مهندس روحه وطبيب قلبه الذي ولاه الله تربيته وتهذيب نفسه حتى يكون أهلا للاتصال. ودعامة ذلك حبه لشيخه وأستاذه حبا مجردا لله تعالى، لا لغرض آخر . ولذا يجد نفسه

بعد إجراء الصيانة اللازمة لقلبه بتمزيق الران الذي كان على قلبه ، يجد نفسه مؤهلا للحب النبوي مندفعا إلى التشبث بالسنة المحمدية التي تقوده إلى الأنوار المصطفوية.

فدليل الحب متابعة المحبوب،{ **قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ...(31)}[آل عمران].**

إذًا متابعة الرسول صلى الله عليه وسلم من علامة حب الله ، فلا يكون محبا لله تعالى إلا من اتبع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وشريعته ، وليس المقصود من السنة : أداء النوافل والسنن فقط كما يفهم البعض الذين يتعصبون للنوافل ويترخصون في الفرائض ولو على رأي ضعيف.

وإنما المقصود من السنة : هدي النبي صلى الله عليه وسلم وتشريعه الشريف أي جميع الأحكام الشرعية ، سواء أكانت فرضا أم نفلا ، حراما أو مكروها أو مباحا ، لأن السنة هي : بيان القرآن الكريم كله في جميع أحكامه.

وبذلك تكون السنة هي: جميع أقواله صلى الله عليه وسلم وأفعاله وتقريراته وأحواله وصفاته في جميع الأحكام التشريعية . والتي قال فيها المصطفى صلى الله عليه وسلم :" من أحب فطرتي فَلْيَستنَّ بسنتي" وقوله صلى الله عليه وسلم :" من أحيا سنة ماتت فله أجر شهيد".

ونخلص من ذلك إلى أنه لا يكون محبا لله تعالى إلا من اتبع هذه السنة الشريفة بذلك المعنى الواسع الشامل لجميع الأحكام ، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم لا يأمر إلا بما يحب الله ، ولا يخبر إلا بما يحب الله التصديق به.

فمن كان محبا لله لزم أن يتبع الرسول صلى الله عليه وسلم ، فيصدقه فيما أخبر ويتأسى به فيما فعل ، ويحب من أحب ، ويبغض من أبغضه ، ويحترم آله وذوي قرباه ، عملا بوصاياه صلى الله عليه وسلم في كل ذلك.

ولما كان الإسلام قائما على المحبة ، فإن المحبة في استكمال الإيمان وتمامه ، فقد روى أبو داود عن أبي أمامة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :" من أحب لله وأبغض لله فقد استكمل الإيمان".

بل إن الإيمان متوقف على المحبة التي هي أساسه وقاعدته ، فقد روى مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :" والذي نفسي بيده لن تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ولن تؤمنوا حتى تحابوا ألا أدلكم عن شيء إن فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم ".

فقاعدة الإيمان وأساسه (الحب) ، وسنامه وذروته (الحب) ، وأركانه وبناؤه (الحب) وتمامه وكماله (الحب) : حب الله تعالى ، وحب رسوله الله صلى الله عليه وسلم ، وحب آل بيته وعترته ، وحب جميع الصالحين من عباد الله .

فقد أخرج الترمذي في المناقب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أحبوا الله لما يغدوكم به من نعمه ، وأحبوني بحب الله وأحبوا أهل بيتي لحبي".

وأخرج أحمد في مسنده عن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"إني تارك فيكم خليفتين : كتاب الله عز وجل ممدود ما بين السماء إلى الأرض ، أو ما بين السماء إلى الأرض وعترتي أهل بيتي ، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض".

<u>بغض آل البيت</u>

إن بغض آل البيت من أمارات النفاق ، ويستوجب غضب الله تعالى ودخول النار، فقد روى الحاكم عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" والذي نفسي بيده لا يبغضنا أهل البيت أحد إلا أدخله الله النار".

وروى أبو يعلي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" خيركم خيركم لأهلي من بعدي" أورده الهيثمي في مجمع الزوائد جـ 6 ص 40 وهو مرسل ورجاله ثقات.

وأخرج الحاكم وصححه عن أبي ذر رضي الله عنه قال وهو آخذ بباب الكعبة :" ومن عرفني فقد عرفني ، ومن أنكرني فأنا أبو ذر . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:" ألا إن مثل أهل بيتي فيكم مثل سفينة نوح من قومه من ركبها نجا ، ومن تخلف عنها غرق".

درجة المحب لآل البيت:

أخرج أحمد والترمذي عن الإمام عليّ كرم الله وجهه ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" من أحب هذين – يعني الحسن والحسين – وأباهما وأمهما كان معي في درجتي يوم القيامة".

موقف السلف الصالح من آل البيت:

لقد أخرج الترمذي من حديث أنس رضي الله عنه قال :" كان رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نزلت هذه الآية :**{... إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ...(33) } [الأحزاب]** يَمُرُّ بباب السيدة فاطمة رضي الله عنها إذا خرج للصلاة قريبا من ستة أشهر فيقول:
" الصلاة الصلاة أهل البيت":**{... إِنَّمَا يُرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا(33) } [الأحزاب]** . رواه الترمذي في التفسير جـ9 ص 68 ، وفي تفسير فتح القدير جـ 4 ص 278.
ولقد كان الصحابة رضوان الله عليهم في العصر الإسلامي الأول : العصر النبوي الأنور ، وعصر الخلفاء الراشدين الأزهر مُثلاً عليا في المحبة والتناصح والتآزر.
فقد كان أبو بكر الصديق رضي الله عنه صديقا حميما وصاحبا حبيبا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم محبا له ، ومحبا لآل بيته ، موقراً لهم ، واصلا لقرابتهم ، يخاف أشد الخوف من غضبهم ، فحينما علم أن السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها عليه غضبي بعد حرمانها من ميراثها لأبيها بناء على حديث مروي لم يصلها " نحن معاشر الأنبياء لا نورث ما تركناه

صدقة": ذهب إليها ليترضاها وليشرح لسيادتها وجهة نظره بحسب الحكم الشرعي الذي توصل إليه ، ومن شدة خوفه من غضبها عليه أقسم إن لم ترض عليه فسوف يغلق داره على نفسه ولا يخرج أبدا إلا لقبره ، فعفت عنه رضي الله عنه وعنها ، ذلك لأنه سمع من رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك الحديث الشريف:" فاطمة بضعة مني يريبني ما رابها ويؤذيني ما آذاها".

وفي صحيح البخاري أن أبا بكر رضي الله تعالى عنه قال :" ارقبوا محمدا في آل بيته".

وقد قال يوما للإمام علي كرم الله وجهه:" والله لقرابة رسول الله صلى الله عليه وسلم أحب إليّ من أن أصل من قرابتي".

ولقد كان الود سجالا بينه وبين آل البيت ولاسيما الإمام عليّ كرم الله وجهه ، ولهذا عيَّنه معه وزير صدق في خلافته.

وهذا الخليفة الثاني عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، كان يحب آل البيت ، وعين الإمام علي وزير صدق له.

ولقد بلغ الود بينهما أن الإمام علي قد زوج ابنته أم كلثوم للفاروق عمر رضي الله عنه وما كان أحد أشد فرحا من الفاروق في نيل هذا الشرف الذي حازه.

ومن شدة فرحه بهذه المناسبة ، كان يقول للناس : ألا تهنوني .. ألا تهنوني فكان محبا للإمام علي رضي الله عنه ولولديه السيدين المباركين أبي محمد الحسن وأبي عبد الله الحسين رضي الله عنهما. مما جعله يفرض لكل منهما خمسة آلاف درهم ، ولولده عبد الله ألفا واحدا فلما راجعه ابنه في ذلك ، قال: ويحك يا عبد الله ، هل لك جد كجدهما ، أو جدة كجدتهما ، أو أم كأمهما أو أب كأبيهما".

ولقد كان فرح عمر رضي الله عنه بإسلام العباس رضي الله عنه عظيمًا فقال له :" والله لإسلامك يوم أسلمت كان أحب إلي من إسلام الخطاب لو أسلم ، لأن إسلامك أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم من إسلام الخطاب".

وكذلك الحال مع ذي النورين عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه ، فقد كان بارًّا بآل البيت مكرما لهم ، فلقد استأذنه الإمام علي كرم الله وجهه أيام الفتنة والخروج عليه بأن يدافع عنه

الخارجين عليه بنفسه ، وأن يقاتل دونه ، ولكنه لم يأذن له ولم يرض بذلك خوفا عليه وتقديرا لفضله ، ولكن الإمام عليا رضي الله عنه بعث ولديه الحسن والحسين رضي الله عنهما في طليعة المدافعين عن الخليفة زوج خالتيهما ومن قال له الرسول صلى الله عليه وسلم يوما :" ما ضر ما يعمل عثمان بعد اليوم" وكان يقول:" إني لأستحيي ممن تستحي منه الملائكة".
ولكن الظالمين قد تَسَوَّروا عليه الدار من ظهرها ونفذ فيه قضاء الله المحتوم، وتحققت له بشارة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم رجف أُحُدٌ بالنبي صلى الله عليه وسلم وكان معه أبو بكر وعمر وعثمان رضي عنهم فقال :" أثبت أحد فإنما عليك نبيّ وصِدِّيق وشهيدان".

حب آل البيت فريضة:

لقد رأى العلماء المحققون من أهل السنة والجماعة استنادا إلى الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث الثابتة الصحيحة : وجوب حب آل البيت على كل مسلم ومسلمة.
حتى ابن تيمية الذي لعلماء التصوف تحفظات على آرائه التي خالف فيها إجماع الأمة في أخريات حياته ، فإنه يوجب حب آل البيت فيقول:
ثبت في حديث صحيح أنه لما نزل قوله تعالى :**{ إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (56)}[الأحزاب].** سأل الصحابة : كيف يصلون عليه ؟ فقال صلى الله عليه وسلم :"قولوا اللهم صل على محمد وأزواجه".
وقد استنبط رحمه الله من قوله صلى الله عليه وسلم :" إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى من كنانة قريشا ، واصطفى من قريش بني هاشم واصطفاني من بني هاشم ": أن آل البيت من أفضل الخلق ، فلا ريب أن أعمالهم أفضل الأعمال وبذلك يكون حب آل البيت فريضة للأحاديث الكثيرة الثابتة في ذلك.

آل البيت والعلماء المنصفون:

لم تَمْتَحِنِ الأقدار – على مدى التاريخ البشري – قوما كاختبارات آل بيت رسول الله سيدنا محمد صلى الله عليه وآله وسلم – ففي حياتهم الشريفة لاقوا العنت والاضطهاد والعدوان والحقد الدفين من أناس نسبوا إلى الإسلام ظلما ، وأظهروه نفاقا بلا عقيدة ، فعقيدتهم " الدنيا " جاها وزعامة وإمارة وكانوا أوفياء لشياطين الإنس والجن من اليهود الذين تظاهروا بالإسلام واستنبطوا الكفر والمروق عقيدة وآلوا على أنفسهم أن يخربوا الإسلام من داخل دائرة الإسلام وباسم " الإسلام" قديما وحديثا حتى الآن ، ولكننا في الشرق ننسى بعد حين.

فبفعل اليهود تطرف بعض الناس في نظرتهم إلى آل البيت ، فمنهم المبالغون في إظهار الحب والتعظيم بما لا يتفق مع شريعة الإسلام وهم " الشيعة المغالية" التي اختلفت مع بعضها البعض إلى ثلاث وسبعين فرقة ، حيث صارت عقيدتهم التعصب من أجل التعصب ، كما يقول نقاد الأدب الحديث " الفن للفن " وهذه الطوائف المغالية ، تكاد أن تعبد أسماء الأشخاص لا أن تعبد الله الحي القيوم ، فاخترعت لنفسها دينا جديدا غير دين الله ، وتقوقعوا داخل دائرته الصماء بلا وعي ولا تفكير ولا احترام للنصوص التي بها الوحي : قرآنا وسنة ، بل إنهم قد اخترعوا نصوصا مخالفة في طرح أفكارهم التي انبثقت عن الأهواء والتي تتضح فيها أصابع الاتهام اليهودي.

وعلى النقيض من ذلك ظهرت طائفة ، تعادي آل البيت وتعلن النكير عليهم وهي طائفة "الخوارج" التي انقسمت على نفسها إلى ثلاث وسبعين فرقة أيضًا ، وهذه الطائفة يدفعها اليهود في الخفاء قديما وحديثا ، وذلك لتمزيق الفكر الإسلامي وإضعاف شوكة المسلمين بتحزبهم ضد بعضهم البعض، لأن الاختلاف في الفكر الديني ينبني عليه الاختلاف في الفكر السياسي ، وحينئذ لا تقوم للمسلمين قائمة.

ومن العجب أن طائفة الشيعة والخوارج يزداد أثرهما ويتمزق الإسلام بسببهما يوما بعد يوم حتى الآن ولكن اسم الخوارج هو الذي يتغير فقط ، ويأخذ أسماء كثيرة ، تحت مسميات : جماعات يكفر بعضها بعضا ولكنها تتفق في شيء واحد وهو تكفير سائر المسلمين الذين يخالفونهم الرأي ، وأما الشيعة فاسمها هو وجهه مع إنها تمزق فكر وعقيدة الإمام عليّ وسائر آل البيت المطهرين ، وتلصق فيهم فكرا بعيدا عن الدين وهم منه براء ، وتنشر التعصب الأحمق والعداوة المستعرة لدى أهل السنة والجماعة بوجه عام ، وتَبْرَعُ في لصق التهم واختراع النصوص المؤيدة لفريتهم ، وإذا حاول من يهمه وحدة دين الله أن يجمعهم تحت لواء واحد مع أهل السنة والجماعة ، فإنهم يتظاهرون بالموافقة " تقية " ليظفروا بهم وكأنها حرب فيها منتصر ومهزوم!!

والباحث المنصف لدينه يجد في النهاية أن الباعث الأيديولوجي لطائفتي الشيعة والخوارج الآن وقبل الآن إنما هو باعث سياسي بسبب " الإمارة " والتباكي على " الحكم " ولم يَدُرْ بخلد أحد منهم قول الرسول صلى الله عليه وسلم :" إنكم تحرصون على هذه الإمارة وستكون حسرة وندامة يوم القيامة".

ومحرك ذلك الباعث السياسي الطامع الحاقد على ما في أيدي الناس : تخطيط خفي من دهاقنة اليهودية يباركونه ويدسون الدسائس لاستمراريته.

ولم يقف الأمر عند هذا الحد ، بل أحدث هؤلاء الأبالسة اختراقا لفكر بعض من أهل السنة والجماعة فقد جعلوهم ينتمون على الخوارج وينشرون أشياء من مفترياتهم ، يكفّرون من خلالها من لم يوافقهم عليها ألا وهم الجماعات المعاصرة التي تنبث في كل مكان في إسلام في المعمورة ، ومما يدل على أن ذلك يتم وفق مخطط مدروس أن الأفكار واحدة ومفردات الدعوة تجتر في كل مكان في العالم على نسق موحد، ورفع علم الإسلام السياسي واحد، ومن الناحية العملية الاعتناء بالمظهر الخارجي والاهتمام به على أنه هو الإسلام وكفى، وبالنسبة للعبادات الاهتمام اللامحدود بالسنن والنوافل ، والتساهل والترخص في الفرائض والأركان الإسلامية ولو كانت وفق رأي ضعيف لا يعول عليه لدى العلماء الأفذاذ وشن الغارات الادعائية والدعوية

على محبي آل البيت والمتوسلين بالصالحين والزائرين لأولياء الله واعتبار ذلك خروجا عن الملة وشركا وقبورية ولن يعدموا في ذلك ليّ أعناق الأدلة وتطويعها بحسب الأهواء والنزعات العدوانية كما سيتضح في فصل الردود عليهم بإذن الله تعالى.

وأمام هؤلاء الشيعة المغالين والخوارج المارقين : جماعة أخرى هم أهل الوسطية والاعتدال الذين يرون أن حب الصالحين وآل البيت فريضة لازمة استنادا إلى الأحاديث الكثيرة الواردة في ذلك، والتي منها: ما ورد في الحديث الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" إني تارك فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليَّ الحوض فانظروا كيف تخلفوني فيهما" فقد تأكد لنا منه أن آل البيت هم القدوة الناجحة للمسلمين في علمهم واستقامتهم ودعوتهم إلى الله تعالى على بصيرة ، فهم أمثلة حية للتمسك بالإسلام الذي جاء به نبينا الأمين صلى الله عليه وسلم.

ومن حاد عن ذلك وزَاغَ فلا يلومن إلا نفسه.

<u>معاملة السلف الصالح لآل البيت في المشاكل العارضة:</u>

كان سلفنا الصالح رضوان الله عليهم يعرفون قدر آل البيت من وجوب الحجب والتقدير لهم ، والعفو والصفح عما قد يبدر عَرَضَا من أحدهم ، وذلك تقديرا وحبا لجدهم المصطفى صلوات الله وسلامه عليه، لأن الحب الصادق يستتبع التضحية بكل مرتخص وغال ضمانا لاستمراره الذي يعقبه سعادة في الآخرة " من أحب قوما حشر معهم" فأكرم بحب يرضى عنه الله ويباركه سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم .وها هي أمثلة توضح ذلك من حياة سلفنا:

أ- بالنسبة للتقدير والإجلال والحب المتبادل بين الآل والصحب ، فقد ورد أن الصحابي الجليل الذي كان أكثر الصحابة فهما لعلم الفرائض والمواريث حيث شهد له النبي صلى الله عليه وسلم : حينما قال :" أفرضكم زيد بن ثابت "أي أكثر علما بالفرائض والمواريث ، وكان من كتَّاب

الوحي وكان من كبار القراء فهو من جهابذة علماء الصحابة ، وقد بارك الله في عمره حتى أنه عاش إلى أن كان يركب دابته بصعوبة.

وفي ذات يوم هَمَّ أن يركب دابته ، فرآه حبر الأمة سيدنا عبد الله بن عباس رضي الله تعالى عنهما فهرع لمساعدته بأن يهيئ له ركاب دابته ، فقال له : تنح يا ابن عباس ، فهو يستقلّ من قدر ابن عم النبي صلى الله عليه وسلم الذي كان إذ ذاك شابا صغيرا ، ولكن ابن عباس رضي الله عنهما تقديرا لعلمه وسبقه وشيبته في الإسلام قال له : هكذا أمرنا أن نكون مع علمائنا ، فقبَّل زيد بن ثابت يد ابن عباس وقال: هكذا أمرنا أن نكون مع آل بيت نبينا".

وقد ورد أنه قد حدث شيء بين سيدنا محمد بن الإمام علي كرم الله وجهه الذي كان ابنا للحنفية وليس من السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها ، وبين أخيه من أبيه سيدنا الحسين رضي الله تعالى عنه ، فأرسل ابن الحنفية خطابا لأخيه سيدنا الحسين ، وكان منه : إذا وصلك خطابي هذا فبادر وصالحني قبل أن أسبقك إلى هذا الفضل الذي أنت أهله ، فأبوك لا تفضلني فيه ، لأنه أبي أيضا ، ولكن أمي ليست كأمك فلو ملئت الأرض بمثل أمي ما بلغت درجة أمك ، لأن أمك السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها سيدة نساء أهل الجنة".

ب- وبالنسبة للمشاكل العارضة : فقد ورد عن أبي الوليد الباجي قال: لما حج الخليفة المنصور العباسي أقاد الإمام مالكا من جعفر بن سليمان وأرسله إليه ليقتص منه – حيث إنه كان قد ضربه بالسوط فرفض الإمام مالك أن يقتص من جعفر بن سليمان نظرا لقرابته من الرسول صلى الله عليه وسلم وقال : أعوذ بالله . والله ما ارتفع سوط عن جسمي إلا وأنا أجعله في حل منه في ذلك الوقت وما ذلك إلا لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وسلم".

وقال الفروي:" لما ضُربَ مالك ، ونيل منه ، حُمل مغشيًّا عليه، فدخل الناس عليه ، فأفاق ، فقال: أشهدكم أني جعلت ضاربي في حِل – قال – فعدناه في اليوم الثاني ، فإذا به قد تماثل - أي للشفاء – فقلنا له ما سمعناه منه ، وقلنا له قد نال منك ؟، فقال رضي الله عنه :" تخوفت أن أموت أمس ، فألقى النبي صلى الله عليه وسلم فأستحي منه أن يدخل بعض أهله النار بسببي".

هكذا يكون الحب والاحترام والمودة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في قرابته، وهكذا يكون العفو ، حيث تسمو الأخلاق ، ويربو الإيمان ، وتتفانى النفوس حبا في النبي صلى الله عليه وسلم وذوي قرباه.

وفي العصر الحديث: منح الله علما لدنيا غزيرا وعطاء ربانيا وافرا لولي من آل البيت المطهرين هو سيدي الحاج محمد أبو خليل رضي الله عنه، ومن المعلوم أن الإناء لكي ينسكب من جوانبه فلابد أن يمتلئ ، وهكذا ما حدث بالنسبة لوعاء النور والمعرفة الربانية – قلب الشيخ – فإنه لما أفاض وزاد : انسكب في قلوب أتباعه بما لم يعرف في طريق القوم حتى الآن ، ولا حرج على فضل الله ، وكان من هؤلاء المريدين المنفوحين : الشيخ رضوان عثمان الذي منحه الله عطاء من عطاء الشيخ فصار يفسر القرآن إلهاما ويتحدث في كافة العلوم والمعارف التي لم يقرأ شيئا عنها ، ويتحدث بفراسة الإيمان والعلم الرباني الذي كان يغزو قلوب السامعين فتزداد إيمانا بالله تعالى وحبا وشوقا إلى جنابه الأقدس ، فيجتمع الإخوان في الله الذين يزورون سيدنا الشيخ في داره المباركة بالزقازيق حول الشيخ رضوان متحلقين حلقا حلقا ، ليتمكن الشيخ رضوان الله عليه من خلوته بربه ، وفي يوم من تلك الأيام المباركة كان سيدنا الشيخ في خلوته مع ربه في داخل غرفة في بيته المبارك قد أغلقها على نفسه المباركة والشيخ رضوان عثمان يجلس في صحن الدار والإخوان في الله حوله يستمعون إلى العلم الرباني الفريد في هذا العصر والذي يشحذ همم الذاكرين والمتعبدين ويغري العصاة المارقين بجميل الصلح على الله والانضواء تحت لواء شرع الله الحكيم.

وحينما توقف لسان الإلهام ليستريح دخل عليهم أحد من أبناء سيدي أبي خليل " صلبا" وكان إذ ذاك في سن الطفولة ، فوقف الإخوان كلهم احتراما له كعادتهم ولكن الشيخ رضوان أبى هذه المرة أن يقوم ، وقال – في خاطره – دون صوت :" هذا طفل يريد أن يخرج إلى الحارة ليلعب مع الأطفال هل من المعقول كلما دخل علينا طفل من أطفال الشيخ وقفنا حتى يخرج من بيننا وإني رجل كبير السن.لا، لن أقوم بعد ذلك لأحد من هؤلاء الأطفال – فإن كان هو ابن الشيخ صلبا فأنا ابن للشيخ عهدا ، وكأنه قد اعتد بنفسه بسبب الفتوحات والأنوار التي كان يعيشها

بسبب تلمذته على يد الشيخ . ولكن سيدنا الشيخ أبا خليل الذي يختلي في الغرفة المجاورة رد على خاطر الشيخ رضوان عثمان بقوله : يا شيخ رضوان عثمان :قال: نعم يا عم قال: اذهب إلى بلدك والزم بيتك ، فعرف الشيخ رضوان أنه سينسلخ من طريق القوم وأحس بقبض شديد في صدره وعتمة في كيانه الداخلي ، وسلب لما منحه الله من أنوار ، فبكى منتحبا!! فسأله الإخوان عن السبب فأخبرهم عن خاطره وهاجسه الذي تحدث به على نفسه ، فوقفوا على باب الغرفة المباركة ليعفو الشيخ وليطلب له الصفح من ربه ، ولكن الشيخ بادرهم بقوله : " الأمر ليس في يدي فقد نفذ السهم وسبحان من له الأمر" فقام الشيخ رضوان إلى موطنه " البحر الصغير " الذي أصبح الآن ضاحية من ضواحي "المنصورة " وقبع في منزله ، ونهى الشيخ الإخوان أن يزوروه لأنه سيصبح فتنة عليهم ، لأن الله تعالى سلب ما كان معه من الفتوحات التي كانت أصلا عطاء للشيخ ولكنه وزعها ليتفرغ لخالقه بتركيز شديد في معظم أوقاته التي يحاول الفرار فيها من الخلق.

وحينما كان سيدنا الشيخ في سياحته السنوية التي يمر فيها بمديريات مصر إذ ذاك وذهب إلى "البحر الصغير " فأرسل الشيخ رضوان يستأذن سيدنا في الجلوس بحضرته ولو لخمس دقائق فأذن الشيخ له وحضر فأكب الإخوان على سيدنا الشيخ وألهمهم الله أن يستشفعوا بحبيبه وجده المصطفى صلى الله عليه وسلم أن يصفح عن الشيخ رضوان وأن يقيله من عثرته فقالوا: لأجل حبيبك وجدك سيدنا النبي صلى الله عليه وسلم اصفح عن الشيخ رضوان ، فقال الشيخ :ولكن بشرط – قال الشيخ رضوان : أوافق يا سيدنا الشيخ ، فما الشرط ؟ قال أن تعتكف في مسجد سيدنا الحسين رضي الله عنه أربعين يوما وليلة : صائم النهار ، مقيم الليل ولا تفطر كل يوم من صومك إلا على تمرة واحدة . فذهب الشيخ رضوان ونفذ شرط سيدنا الشيخ لرجوعه إلى الطريق ، ولما أن أكمل المدة وافته علة ومرض نقل على إثره إلى بلدته " البحر الصغير " فأذن سيدنا الشيخ للإخوان في زيارته ، وفي يوم بعد صلاة العصر كان سيدنا الشيخ يجلس أمام داره المباركة في كفر النحال بالزقازيق إذ نظر إلى السماء فجأة ثم قال رضي الله عنه :

" إلى رحمة الله تعالى يا شيخ رضوان : لقد مات على درجة أربعين وليا " فقال بعض الإخوان : وقبل طرده من الطريق كان على أي درجة فقال رضي الله عنه : كان على درجة مائة ولي" إنه إذًا لما قل احترامه لأبناء الشيخ صلبا واستصغر الطفل منهم وسوى بينه وبينهم سلبه الله درجات الولاية كلها ثم عادت بدرجات أقل حينما نفذ الاعتكاف الذي عاد به إلى حظيرة الأدب مع آل البيت صغيرهم وكبيرهم والله يتولى الصالحين.

الخـــــلاصـــــــــة:

أن المحبة هي ثمرة المعرفة ، فعلى قدر المعرفة تكون المحبة، فمن عرف الله أحب الله وأحب كل أحد أحبه الله وعلى قدر درجة العبد في المعرفة تكون درجته في المحبة ، ومن أجل ذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أشد الناس حبا لله ، لأنه كان أعرفهم بالله .

قال صلى الله عليه وسلم :" إن أعرفكم بالله أنا".

فمن لا يعرف الله قلبا ومذاقا لا يعرف راحة في الدنيا ولا جنة في الآخرة . وفي كتاب " إحياء علوم الدين " يقول الإمام الغزالي:

" إن كل من لا يعرف الله في الدنيا لا يراه في الآخرة ، وكل من لم يجد لذة المعرفة في الدنيا لا يجد لذة النظر في الآخرة ، ولا يحصد أحد إلا ما زرع ، ولا يحشر المرء إلا على ما مات عليه".

إن نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى ، وحب الله تعالى بقدر معرفته ، فأصل السعادة هي المعرفة التي عبر عنها الشرع بالإيمان.

وأعلى درجات المحبة هي درجة خواص الخواص التي هي الفناء في المحبوب والفناء المادي الذي هو فناء الجزء في الكل ، وامتزاج الفاني بالباقي شيء مستحيل في حق الله تعالى ولا يجوز الأخذ به ، لأن ذلك كفر والعياذ بالله تعالى.

فالمولى سبحانه نور ذاتي لا يعرفه ولا يراه أحد ، فلا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو سبحانه منزه عن الشريك والولد والتحيز والحدود وعن الجهة وعن النهاية والمقدار.

إذًا فالفناء في الإسلام الذي يقول به الصوفية هو : الفناء المعنوي في المحبوب إنه فناء عن النفس الأمارة بالسوء ، فناء عن الهواجس والوساوس ، فناء عن التعلق بالمادة والماديات ، فناء عن الحس والمحسوسات بل هو تجرد لله تعالى وبقاء بحبه وعشقه والهيام في محبته . إنه : أن تفنى عن نفسك وأن تبقى بربك.

إنه فناء شهود لا فناء حلول ، إنه فناء العبد في محبة مولاه ، بأن يكون هدفه : الله ورضاه والنظر إلى وجهه الكريم في الجنة.

فإن أعطاه الله الكون كله من العرش إلى الفرش رفضه بأن يكون في قلبه وقال لربه : إياك أعني يا الله يا حبيبي ، إني أريد الكوِّنَ لا الكون ، أريد المنعم المعطي ولا أفتن بالنعمة والعطاء . عن العطاءات الدنيوية والنعم الدنيوية الحاضرة والغائبة لا وجود لحبها والشوق إليها في قلبه ولا وزن لها ولا قيمة في وجدانه.

فسواء أقبلت على المحب الواله الدنيا أم أدبرت فهي ليست في قلبه الذي شغل تماما بمحبة مولاه والهيام في ذكره والأنس به سبحانه.

بل إذا امتحن الله حبه بنزول البلايا به أو بأهله فإنه يرضى مذعنا لقضاء الله وقدره بل قد يُسَرّ بذلك ويفرح ، لأنه يعتبر رسالة من الحبيب لحبيبه فيهش لها ويبش أكثر من النعم الحسية ، إذ إنه يرى من خلال رضاه بذلك رضاء حبيبه (الله) رب العالمين.

إن المحب لمولاه يعيش مع الخلق ويحيا حياتهم بالقالب فقط ولكن قلبه مع ربه دائما من يوم أن سجد ذلك القلب لله ، فلن يقوم من سجدته إلا يوم أن يناديه حبيبه لينظر إلى وجهه الكريم ، إنه لا يرى لنفسه وجودا مع وجود خالقه سبحانه إنه يرى أن الوجود الإنساني " عدم " كباقي الكون ، لكن وجود الله تعالى هو الوجود الحقيقي " الباقي ".

إنه يتمثل قول القائل : والكل إن حققته عدم بعد الإله على التفصيل والإجمال . إن المحب يضع نصب عينيه قول الله سبحانه :{**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (26) وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ(27)}[الرحمن].**

فالفناء في "دائرة الحب" المراد به : فناء إرادة العبد في إرادة مولاه وليس فناء وجود العبد في وجود مولاه فذلك محال وكفر ولا يقول به مسلم فضلا عن محب عارف بالله تعالى.

إن المحب المستغرق يحيا حياة اللذة والمتعة الروحية وكفاه من حياته ومن حبيبه ذلك فلا يريد شيئا آخر إلا وجه محبوبه ، فَمِنْ فَرَطِ هذه المتعة فإنه يخاف فواتها ، وسر بقائها ونمائها في كتمانها عن الخلق جميعا ، فهو التخفيف عن كبده الذي أحرقه الشوق وأضناه الحب، فيخاف من كشف السر الذي بينه وبين معشوقه ، فينزع إلى الرمز التعبيري وإلى الاستعارات والكنى ، فيحكم الناس عليه بحقائق الألفاظ لا بمجازاتها وكناها فيحكم بعضهم بكفره حيث لم يقفوا على مراده.

لكن شعار المحب لله تعالى:

ومن عرف المحبة عن يقيـــن * محال أن يميل إلى فـــــراق**

وكيف أحب غير الله يومـــــا * وليس سواه في الأكوان باق**

وشارة المحب التي تَدُلُّه على الطريق ذلك الحديث القدسي:

" من طلبني وجدني ومن وجدني عرفني ومن عرفني أحبني ومن أحبني عشقني ومن عشقني عشقته ومن عشقته قتلته ومن قتلته فعليّ ديته ومن كانت عليّ ديته فأنا ديته ومن كنت أنا ديته كنت مناصبا بين عينيه لا يسهو إذا سها الناس".ومن عجب أن هذا الحديث يرفضه بعض الناس ويقولون : إنه من كلام الصوفية مع إنهم لم يحيطوا بالسنة كلها حتى يرفضوه ، مع أن المسلم ذواق بقلبه فكل حديث صحيح له جرس في القلب واطمئنان في العقل ويهدف إلى قيمة سلوكية وله رصيد من السلوكيات لدى عباد الرحمن فكيف يرفض بجرة قلم ممن يصدق فيه قول القائل:

قل لمن يدعي في العلم فلسفة * حفظت شيئا وغابت عنك أشياء**

إن الحديث الثابت الصحيح يقع في قلب المسلم وقع الماء العذب من ذوي الغلة الصادي ، فلابد من إنصاف قضية الحب العليا ، ومحاولة بثه ونشره بين الناس عامة والمسلمين مع ربهم ومع بعضهم البعض بصفة خاصة لتعود للمسلمين حياة العزة والتمكين.

أهمية الحب في الطريق الصوفي

الحب الإلهي:

هبة من الله لأحبابه ، وعبور ناجح إلى مرضاته ، وسلم لمعراج قدسه ، وروح وريحان ، ونور مشع يهدي القلب الحيران ، إنه وضاءة وطهارة ، وسِلْمٌ وسلام ، وأمن دائم وأمان ، وهدى وتقى وعرفان ووصال واتصال ، ورضا وإقبال ، وسكينة واطمئنان ، ورحمة وحنان لقلب يحتمي في حمى الرحمن :{**وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ جَنَّتَان(46)}[الرحمن].**

جنة في الدنيا ، وهي : جنة الأنس بجمال الله وجلاله ، فصاحبها دائما نشوان ، وبذكر حبيبه هيمان ، وبعشقه سكران ، وأرقى ما في الدنيا : هذه الجنة الخاصة بأهل الصفاء والنقاء في دار البقاء.

وجنة في الآخرة، وهي : جنة النعيم والخلود الدائم في دار البقاء وأرقى ما فيها : النظر إلى وجه الله الكريم.

الحب الدنيوي وهو : حب الفتاة والمرأة ، وحب الزوجة والأولاد ، وحب الجاه والسلطان وحب المظهر الحسن ، وحب المال ، وحب كل ما يتصل بالشهوات والملذات الحسية ، وهذا الحب نوعان محرم وهو : حب الأجنبيات من النساء ، وخصوصا إذا كان الغرض غير شريف فهو حب شيطاني ، يجب على المسلم أن يتخلص منه فورا قبل الإدمان.

وكذلك يحرم الافتتان بالجاه والسلطان ، والمال ، وما يتصل بالشهوات من طريق غير مشروع فإن هذا الحب العفن : يؤدي إلى ظلمة القلب والحيرة والاضطراب ، وقد يوقع صاحبه جحيما لا

يطاق ، إذ تخيم عليه التعاسة والانتكاسة النفسية ، فيطلب الموت ولا يجده ، فيظل معتم القلب ، سوداوي النفس ، كئيب المحيا ، مكفهر الطلعة ، متشائما حزينا ، تلاحقه أمراض العصر من كل جانب ، وتلازمه الحسره ، وتتغشاه سحائب الحقد والحسد والكراهية والغل لكل من يتخيل أنه معافى سليما مما حاق به . وصدق رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال فيما رواه البخاري في صحيحه:

" تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار تعس عبد القطيفة تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش".

فما أشقى إنسانا !! وما أتعس امرءا قد وضع نفسه في هذا الجحيم الدنيوي ، وياليته تقف حالته عند ذاك الشقاء الحياتي العاجل ، بل إن ذلك مقدمة لشقاء أبدي ينتظره في الآخرة في الحياة السرمدية.

فلو أنا إذا متنا تركنا * لكان الموت راحة كل حي**

ولكنا إذا متنا بعثنا * ونسأل يومئذا عن كل شي**

وإذا ما نظرنا الآن إلى ساحة الوجود الإنساني ، فسوف نجد أن عاطفة الحب التي أوجدها الخلاق العليم لنسعد من خلالها : هي التي قد استغلت في توافه الأمور وجعلت الأرض بأهلها تمور ، حينما كثر عليها الباطل والزور والفجور ، واستمرأ ابن آدم أكل الحرام ، وتدنس بالفواحش ، وشرب المسكرات ، وتعاطى المخدرات وخان الأمانة في كل مجال ، ولم يراقب الملك الديان . وأكل مال اليتيم ، وقطع صلته بربه ، فلا صلاة ولا ذكر إلا النادر القليل ، وعق الوالدين ، وقطع الأرحام ، ونهب الميراث ، واستجاب مسرعا لوساوس الشيطان ، وأصم أذنيه عن نداء الرحمن ، وآثر إيذاء الناس في شتى الميادين فأصبح شيطانا في صورة إنسان ، لا يعترض ولا ينتقد أحدا إلا الصالحين ، ولا يسيء الظن إلا بالعارفين ، يزخرف القول وكأنه المصلح الأمين ، وقلبه غارق في ظلمة الذنوب . وصدق الله تعالى إذ يقول:{ **وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا ...{(112)}[الأنعام].**

حب الفتاة: إن حب الفتاة للتغرير بها ، أو للتسلية وقتل الوقت حرام شرعا ويعد خيانة لأعراض الناس ، وهو حرام على الطرفين ، بل مجرد النظر لا لغرض الخطبة ولا البيع والشراء ولا لأمر ضروري يقتضيه . يعتبر إثما وذنبا ، بل وسهما من سهام إبليس يصوب إلى قلب الرائي فيقتل مناعة العفة فيه ، سواء أكان الناظر فتى أم فتاة ، رجلا أم امرأة ، إذ يقول الرسول صلى الله عليه وسلم:"النظرة سهم مسموم من سهام إبليس لعنه الله فمن تركها مخافة ربه أبدله الله إيمانا يجد حلاوته في قلبه".

ولكن الذي ينتصر على هواجسه ووساوس نفسه ، فيترك النظر خوفا من عقاب الله وتقربا إليه فإن الله تعالى يكافئه مكافأة عظيمة هي خير من الدنيا وما فيها : إنها الإيمان الحق الذي يدعمه نور الرضوان من الله جل شأنه كدليل على التوفيق الرباني، ولذلك يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :" فمن تركها – أي النظرة الخائنة – مخافة ربه أبدله الله إيمانا يجد حلاوته في قلبه ".

إن هذا الإيمان المذاقي ، المزدان بالنور والتقوى هو الذي يجعل خشية الله تعالى سمة لازمة ، فتكون العفة كاملة : لليد واللسان والفرج وكل جارحة لدى هذا العبد الأواب.

وأما النوع الثاني من الحب فهو: نوع مباح وهو حب الرجل لزوجته بعد الزواج ، فهذا حب شرعي يعترف به الإسلام ويُستَحْسن فيه أن يكون بقصد العفة ورضاء الله تعالى.

وكذلك حب الذرية من بنين وبنات شريطة ألا يفرق بينهم في هذا الحب ، بل لابد من العدالة ، وأن يقصد بذلك شكر الله ورؤية فضله فيما أنعم به :**{ وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ (11)}[الضحى].**

فمن صفات عباد الرحمن :**{ وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا (74)}[الفرقان].**

لكن الحب قبل الزواج لا يعترف به الإسلام ، لأنه إضاعة للوقت في غير مفيد ، وشغل القلب في أمر خيالي ، يبعث على القلق الدائم والحيرة وسهر الليل والتفكير المضني فيما لا طائل من ورائه، لأن الغالب في هذا النوع من الحب ، أنه لا يتم به الزواج فقد يكون للأقدار دور آخر ، وإن تم ، وهذا نادر الحصول ، فكثيرا ما يكون الزواج فاشلا ، لأن الشيء الممنوع مرغوب فيه ، ففي فترة الحب الجارف الذي يكون قبل الخطبة والزواج يكون خياليا ، يجنح نحو اللامعقول ،

إذ كل منهما يرى الآخر بعين الخيال ، وكأنه أتى هابطا من السماء أو من جنة عدن ، فلما يتحول الخيال إلى حقيقة بالزواج ، يرى كل منهما الآخر على حقيقته على صورة أقل بكثير مما كان يراه من قبل ، فيقول كل منهما : هذا ليس فلانا ويدب الشقاق حينما يطلع كل منهما على عيوب الآخر التي كان لا يراها من قبل ولهذا كان العرب قديما لا يشجعون هذا الزواج.

وفي رأيي الخاص: أن عدم استجابة القدر لهذا الحب في أن يؤتي ثماره بزواج ما هو إلا عقوبة من الله تعالى ، لأن الإنسان فيه قد أعطى قلبه كله لمن أحبه من مخلوق قد يكون حتفه على يده ، ولا يملك لنفسه ضرا ولا نفعا فكيف يملك لغيره؟!.

والمفروض أن يكون التوجه القلبي بالحب لله تعالى الذي يملك كل شيء . ولذا فإن الحكماء يقولون:" إن الحب الفاشل يتقلب إلى تصوف " أي أن الإنسان حينما يجعل قلبه وكل مشاعره لإنسان ثم يغدر به هذا الإنسان ويرفضه فإن الإنسان تلقائيا يفزع إلى الله تعالى محبا له راجيا رضاه ، لأنه جرَّب حب الإنسان فلم ينصفه ، فهو يهرع إلى الله الذي ينصفه في حبه ، ويكافئه عليه ، ويحقق ما يؤمله وما يسعده لأنه سبحانه أكرم الأكرمين . فهذا هو حب السعادة والعطاء وتحقيق الرجاء:

ومن عرف المحبة عن يقين * محال أن يميل إلى فــــــراق**

وكيف أحب غير الله يومـــــا * وليس سواه في الأكوان باق**

الحب الذي ينبغي أن يكون:

إن الحب الذي ينبغي أن يتشبث به المسلم هو : حب الله تعالى ، ولن يتحقق حب الله تعالى إلا بحب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم : ولا يتحقق حب الرسول صلى الله عليه وسلم إلا بحب أولياء الله الصالحين: الأدلاء على الله من عترة النبي المختار.

فهي سلسلة متصلة الحلقات : لا يكمل الحب إلا بها جميعها.

ومن ذاق عرف ومن لم يذق لم يعرف :**{... اللهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ...(124)}[الأنعام].**

فالحب هو روح الإسلام ، وأعني به الحب الإلهي ، وكفى بالحب فخرا.

إن الإسلام يجعل المتحابين في الله ، المتزاورين لجلاله مستظلين تحت ظل عرش الرحمن يوم القيامة في الوقت العصيب.

ففي الحديث القدسي يقول رب العزة جل جلاله :" المتحابون فيَّ المتزاورون لجلالي أظلهم يوم القيامة تحت ظل عرشي".

وفي الحديث النبوي الشريف أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد بين أن من السبعة الذين يظلهم الله تعالى في ظله يوم لا ظل إلا ظله :" رجلان تحابا في الله تعالى اجتمعا عليه – أي على الحب في الله – وافترقا عليه " أي على الحب في الله لم يفرق بينهما إلا الموت.

الإسلام والحب:

إن كل من وافاه الله بحظ من الفهم والتذوق لنصوص الإسلام من آيات قرآنية ، وأحاديث نبوية ليعلم علم اليقين : أن الإسلام دين الحب ، وأن المؤمن لا يجد حلاوة الإيمان إلا إذا أحس حرارة الحب ونشوة تَوجِّه القلب إلى مولاه.

يقول الله سبحانه :**{ قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(31)}[آل عمران].**

فقد أثبت القرآن الكريم أن حب الله هو أساس سعادة الوجود ، وهو لا يتحقق إلا بحب النبي صلى الله عليه وسلم الذي يتطلب اتباعه والاقتداء به صلى الله عليه وسلم مما يترتب عليه حب الله تعالى للعبد بإيصال الخير له ومغفرة الذنوب السابقة ورضوان من الله أكبر.

وفي السنَّة المحمدية أحاديث كثيرة في الصحاح ، وكلها تدعو إلى الحب في كافة روافده – حب الله تعالى وحب الرسول صلى الله عليه وسلم وحب الصالحين الذي لا يشوبه غرض ولا مصلحة وإنما هو حب في ذات الله تعالى وذلك ما يحقق المذاق الإيماني والشفافية الروحية التي

يحتاجها المجتمع المسلم الآن بعد سيطرة المادة والشهوات على معظم القلوب مما ترتب عليه الضياع النفسي والتردي في مهاوي العقد النفسية والأمراض العصرية الجامحة.

ففي الحديث الصحيح الذي رواه البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :" ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود إلى الكفر كما يكره أن يقذف في النار".

بل إن ديننا الإسلامي يأمرنا بالحب أمر إيجاب ، ويحثنا عليه ، لأنه روح الحياة ، وقوتها الدافعة وترجمان السعادة الحقة عاجلا وآجلا .

فالحياة بلا حب جحيم لا يطاق ، وشقاء أبدي ، وانتكاسة إلى الحسرات والويلات والهلاك والثبور:**{...وَمَا ظَلَمَهُمُ اللهُ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ(33)}[النحل].**

فعلى المسلم العاقل أن يستجيب لدعوة الإسلام إلى الحب الذي هو إكسير كل سعادة ، إذ يقول الرسول صلى الله عليه وسلم فيما رواه الترمذي من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" أحبوا الله لما يغدوكم به من نعمة ، وأحبوني لحب الله إياي ، وأحبوا آل بيتي لحبي".

الحب في حياة سلفنا الصالح:

لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم المثل الأعلى في حبه لربه ولآل بيته وصحابته وأمته فآية حبه صلى الله عليه وسلم لربه : كثرة ذكره له جميع الأوقات والأحوال ، فمن أحب أحدا أحب أن يذكره دائما ، وكذلك طاعته لربه دائما ، فلقد ظل يتهجد لربه حتى تورمت قدماه الشريفتان

ولا ننسى كفاحه وجهاده صلى الله عليه وسلم في سبيل دعوة ربه . ومن حبه صلى الله عليه وسلم لآل بيته قوله عليه الصلاة والسلام لعلي وفاطمة والحسن والحسين:" أنا حرب لمن حاربتم وسلم لمن سالمتم" رواه الترمذي وابن ماجه وأحمد في المسند والحاكم في المستدرك.

أسمى منزلة للعبد في الوجود:

إن أرفع الدرجات وأعلى المنازل وأسمى شرف أن يوجه الله الخلاق العليم إليك خطابا بالحب ، سواء أوصلك الخطاب في الصدر أم في السطر كأن يقول الله تعالى لعبده:**{... وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي(39)}[طه]**نعم إن ذلك أكمل مقام وأعزه في الدنيا والآخرة.

فالقرآن الكريم هو النص المتجدد الذي يخاطب العقول والمشاعر المؤمنة في كل زمان ومكان ، وكأنه يخص كل متلق ما دام في حوزته شهادة الإيمان والإسلام وكما يقول علماء التفسير والأصول :" العبرة بعموم اللفظ وليس بخصوص السبب".

وفي الواقع أن ما يبرر ذلك ويعضده قول الله سبحانه: {يحبهم ويحبونه}.

فلولا حب الله تعالى لأحبابه ما عرفوا حبه ، ولولاه ما عرفوه فالحب يصدر من الأعلى إلى الأدنى، ثم تبدأ عملية الصياغة الروحية ، والانصهار الرباني في بوتقة الحب ، بإسباغ نعم البلاء والاختبار المتكرر، والعبادة والسهر حتى لا يعرف طريقا في الحياة إلا طريق المحبوب سبحانه . وكيف لا ؟! والمحبوب يقول لعبده :{ ولتصنع علي عيني}.

فما أجمل وأروع أن يشعر العبد الضعيف الذليل أن الله القوي العزيز مالك الملك يحبه ويتوج هذا الحب بجذبه إلى ساحة الصالحين ، ليأخذ الخبرة الناجحة في معاملة المحبوب ، ويفيض

على قلبه من إشعاعات الحب في الله ، ما يضمن استمرارية هذا الحب ويدعمه بذكر المحبوب في جميع الحالات في عسر أو يسر ، مرض أو عافية ، ضنك أو رخاء ، فرح أو ترح . فقد أمده الله المحبوب بأعظم وأسمى ما في الوجود وهو :" حبه له " فما قيمة دنيا تقبل أو تدبر ، وما قيمة المال والجاه : قل أو كثر وما قيمة عافية الجسد مع صحة القلب ورقي الروح في عالم السبوح ، فإن ذلك هو نعمة النعم ، والفضل والتكريم الذي لا يحد ، قال الله سبحانه:**{ قُلْ بِفَضْلِ اللهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ(58)}[يونس].**

مفهوم المحبة من سجل المحبين:

يقول الإمام الغزالي قدس الله سره [1] :

" إن محبة الله لعبده هي: أن يتولى امره ظاهره وباطنه ، سره وجهره ، فيكون هو المدبر لأمره ، المزين لأخلاقه ، المؤنس له بلذة المناجاة في خلواته ، الكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته بقول الرسول صلى الله عليه وسلم :" إذا أحب الله عبدا جعل له واعظا من نفسه وزاجرا من قلبه يأمره وينهاه".

وقال صلى الله عليه وسلم:" إذا أراد الله بعبد خيرا بصره بعيوب نفسه ".

وقال الإمام القشيري [2] : " والمحبة حالة شريفة شهد الحق سبحانه وتعالى بها للعبد ، وأخبر عن محبته للعبد فالحق سبحانه وتعالى يوصف بأنه يحب العبد ، والعبد يوصف بأنه يحب الحق سبحانه .. محبة العبد لله سبحانه مدحه له وثناؤه عليه بالجميل .محبة الله للعبد هي إحسان مخصوص يلقى الله العبد به ، وحالة مخصوصة يرقيه إليها".

وإذا أحب الله عبدا جعله عبدا ربانيا .. يكفل له العطاء والنصر ، ويشمله بالولاية والحماية.

---

[1] إحياء علوم الدين،ص 2629.

[2] الرسالة القشيرية للقشيري.

يقول المصطفى صلوات الله وسلامه عليه في حديث قدسي رواه عن رب العزة جل شأنه:" من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إليّ عبدي بشيء أحب مما افترضته عليه ولا يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه ، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به ، وبصره الذي يبصر به ، ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي عليها ، ولئن استنصرني لأنصرنه ، ولئن سألني لأعطينه ، ولئن استعاذني لأعيذنه وما ترددت في شيء أنا فاعله كترددي في قبض روح عبدي المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته ولابد له منه".

ورد أيضا في كتاب إحياء علوم الدين للإمام الغزالي ، أن الله تعالى قال لداود عليه السلام:" يا داود، أبلغ أهل أرضي أني حبيب لمن أحبني ، وجليس لمن جالسني ، ومؤنس لمن أنس بذكري ، ما أحبني عبد من قلبه إلا قبلته لنفسي وأحببته حُبًّا لا يتقدمه أحد من خلقي . من طلبني بالحق وجدني ومن طلب غيري لم يجدني .. يا أهل الأرض .. هلموا إلى كرامتي.. وائتنسوا بي أؤانسكم.. وأسارع إلى محبتكم..".

وروى عن بعض السلف : أن الله تعالى أوحى إلى بعض الصديقين :" إن لي عبادا من عبادي يحبوني وأحبهم .. ويشتاقون إليَّ وأشتاق إليهم ، ويذكروني وأذكرهم ، وينظرون إليَّ وأنظر إليهم ... فإن حذوتَ طريقهم أحببتك ، وإن عدلت عنهم مقتك فقال:يا رب وما علامتهم؟ قال : يراعون الظلال بالنهار كما يراعي الراعي الشفيق غنمه ، ويحنون إلى غروب الشمس ، كما يحن الطائر إلى وكره عند الغروب ..فإذا أقبل منهم الليل .. واختلط الظلام وفرشت الفرش ونصبت الأسرة .. وخلا كل حبيب بحبيبه.. نصبوا إليَّ أقدامهم ، وافترشوا إلي وجوههم ، وناجوني بكلامي، وتملقوا إلي بإنعامي ، فهم بين صارخ وباك .. وبين متأوه وشاك.. وبين قائم وقاعد.. وبين راكع وساجد ، بعيني ما يتحملون من أجلي ، وبسمعي ما يشتكون من حبي ، أول ما أعطيهم ثلاث: أقذف من نوري في قلوبهم فيخبرون عني كما أخبر عنهم ، والثانية لو كانت السموات والأرض وما فيها في موازينهم لاستقللتها لهم . والثالثة : أقبل بوجهي عليهم ، فترى – من أقبلت بوجهي عليه – هل يعلم أحد ما أريد أن أعطيه؟".

أوليـــــــاء الله

لقد كثر الكلام عن الولاية والأولياء في عصرنا الحاضر ، واشتد المراء والجدل حول هذه القضية الهامة ، وجُنِّد أناس للطعن في الأولياء، والنيل من أعراضهم ووصل الأمر إلى درجة الشتم والسب ، والمعاداة لأحباب الله ، واعتبار موالاتهم وزيارتهم والاعتقاد في صلاحهم وبركتهم :كفرا لا يحتمل السكوت ، وأن من الجهاد إعلان النكير على من اتبعهم وأحبهم ، واعتبر المارقون أن ذلك هو روح الدعوة والجهاد والاستبسال والجرأة!!.

وما دروا أن ذلك منهم هو ما يخطط له أعداء الإسلام ، لطمس أهل القدوة الحسنة في الأمة ، والانصراف عنهم إلى حيث الأهواء والنزعات الشريرة ، والتخبط في الفسق وظلمات المعاصي ، والارتماء في أحضان الموبقات !! ليتوقف المد الإسلامي وتنحسر دعوة الله في الخافقين ، ويقتصر المسلم على أن يتسمى بأسماء المسلمين ويتظاهر ببعض الشعائر والمظاهر الإسلامية التي تُؤَدَّي وفق القالب فقط، والقلب يكون حلكة دامسة وعماء عن الحق ، مما يجعل أعضاء الجسم تتخبط العشواء في الانحرافات والخطايا التي ملأت البقاع والتلاع ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

فحقا من جهل شيئا عاداه والإنسان عدو ما جهل.

إن أبسط درجة الإنصاف قبل أن يحكم الإنسان في قضية أن يعرف حيثياتها ، ولا يجوز للعاقل أن يأخذ كل ما يصله سماعا على أنه حق ، وخاصة بالنسبة للوقوع في أعراض الناس – لا يجوز أن يتناوله على أنه حق ، فقد قال الله تعالى :{ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ(6)}[الحجرات]**ولا يجوز لعاقل مؤمن يرجو الله والدار الآخرة أن يقرأ رأيا واحدا فيجند نفسه له ويتعصب دون معرفة كاملة ، بل لابد من معرفة الرأي والرأي الآخر، وبخاصة من يتصدى للدعوة ، ويريد أن يفيد المسلمين ، لأنه بدون ذلك يكون أساسا للفتنة والفرقة والشتات . والفتنة نائمة لعن الله من أيقظها.

معنى الـــــولـــــــــي:

الـــولي فـــي اللغـــة هــو : الناصـــر – قـــال الله تعـــالى :**{... لا تَتَّخِـــذُوا عَـــدُوِّي وَعَـــدُوَّكُمْ أَوْلِيَـاءَ...(1)}[الممتحنـة]** أي نصراء ، وهو لفظ مشترك بين الله تعالى وبين العبد المؤمن المميز وأيضا بين الخلاق سبحانه وبين أي مخلوق تتأتى منه النصرة والغلبة.

والذي يحدد ما هو اسم من أسماء الله تعالى وما يطلق على العبد هو : سياق العبارة .

فالولي : في أسماء الله تعالى هو : الناصر. وقيل المتولي لأمور العالم والخلائق القائم بها .

والولي كلقب للعبد معناه من يناصر من له علاقة به ، وقيل إنه يطلق على رجل أسلم على يده رجل آخر فهو مولاه . فقد قال صلى الله عليه وسلم :" من أسلم على يد رجل فهو مولاه ".

وقد سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن رجل مشرك أسلم على يد رجل من المسلمين ، فقال : هو أولى الناس بمحياه ومماته . أي أحق به من غيره.

قال ابن الأثير : ذهب قوم إلى العمل بهذا الحديث ، واشترط آخر أن نضيف إلى الإسلام على يده: المعاقدة والموالاة.

وذهب أكثر الفقهاء إلى خلاف ذلك وجعلوا الحديث بمعنى البر والصلة ورعي الزمام أهم من لسان العرب.

فالولي في لغة العرب وكلامهم له إطلاقات كثيرة ، فمنها : المولى في الدين وهو : الولي وذلك كقوله تعالى:**{ ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لا مَوْلَى لَهُمْ(11)}[محمد]** أي لا ولي لهم.

وكقوله صلى الله عليه وسلم عن جهينة وأسلم وغفار ومزينة موالي الله ورسوله أي أولياء الله .

وقيل **المولى :** أي الحليف وهو من انضم إليك ، وعز بعزك ، وامتنع بمنعتك.

وقد ورد أن النبي صلى الله عليه وسلم قال :" من تولاني فليتول عليا " معناه : من نصرني فلينصر عليا . وقوله صلى الله عليه وسلم :" اللهم وال من والاه" أي أحبب من أحبه ، وانصر من نصره . وقال ابن الأعرابي : والى فلان فلانا : إذا أحبه.

وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه لسيدنا علي كرم الله وجهه :" أصبحت مولى كل مؤمن " أي ولي كل مؤمن.

وقيل عن سبب هذا الحديث : أن أسامة بن زيد رضي الله عنه قال لسيدنا علي كرم الله وجهه : لست مولاي إنما مولاي رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال صلى الله عليه وسلم :" من كنت مولاه فعلي مولاه".

وأما بالنسبة لولاية الله تعالى فهي كالآتي:

قال الله تعالى:**"{... اللهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا ...(11)}[محمد]** قال أبو إسحاق الإسفراييني معناه : الله ولي المؤمنين في حجاجهم وهدايتهم وإقامة البرهان لهم ، لأنه يزيدهم بإيمانهم هداية كما قال الله سبحانه **:{وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زَادَهُمْ هُدًى وَآتَاهُمْ تَقْوَاهُمْ(17)}[محمد]**، والله أيضا وليهم في نصرتهم على عدوهم وإظهار دينهم على دين مخالفيهم.

وقيل : الله وليهم : أي يتولى ثوابهم ومجازاتهم بحسن أعمالهم ، فمعنى تولاه : اتخذه وليا.

ومعنى قوله الله تعالى:**{... وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ...(51)}[المائدة]** معناه : يتبعهم وينصرهم أ هـ.

والولي: بالمعنى المراد لدى العارفين بالله هو : من والى الله ووالاه الله .

ومعنى والى الله : أي تابعه بكثرة عبادته وذكره له فوالاه الله بعطاياه وإمداداته الربانية ونفحاته القدسية على الدوام . أو الولي هو من والى الله بأنفاسه ذكرا ودقات قلبه حبا وشكرا فوالاه الله فتحا وبشرا وسرا . أو الولي : هو الذي تولى الناس بدعوتهم إلى الله تعالى على بصيرة الإيمان فنقش الله دعوته في قلوب الخلق بالهداية والعرفان وذلك بنفحة التأثير والتأثر ومغنطة القلوب بالأسرار الربانية حتى تحلق في سماء المعرفة واليقين.

فالأولياء : هم الذين يتولون الناس لهدايتهم وإقامة البرهان لهم ، وذلك لما يرى فيهم من إقامتهم على الهدى وطريق الحق فهم يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ولا يضرهم من خالفهم ولا يعتزون بمن حالفهم من الناس وإنما خوفهم فقط من الله ، واعتزازهم إنما يكون بالله لا يرجون سواه . فهم من عناهم الرسول صلى الله عليه وسلم بقوله :" لا تزال طائفة من أمتي

قائمة على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون " فهم نصراء دين الله تعالى ، وهو وليهم.

قال الله تعالى:{ **أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ(63) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(64)}[يونس].**

ولقد سأل الصحابة سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم : من هم أولياء الله يا رسول الله ؟

قال: " أولياء الله الذين إذا رءوا ذكر الله ".

والمراد بذلك كما يقول سيدي الشيخ أحمد الشافعي أبو خليل رضي الله عنه : أن مشاهدتهم رضي الله عنهم تشعر قلوب أهل الغفلة يقظة تجعلهم يذكرون الله تعالى لما يعلوهم من البهاء والنور والهيبة وآثار الإخبات والخشوع والسكينة والوقار".

وفي تفسير النيسابوري: قال صلى الله عليه وسلم :" إن من عباد الله عبادا ليسوا بأنبياء ولا شهداء يغبطهم الأنبياء والشهداء لمكانهم من الله " قالوا : يا رسول الله أخبرنا من هم وما أعمالهم فلعلنا نحبهم ، قال :" هم قوم تحابوا في الله على غير أرحام بينهم ولا أموال يتعاطونها فو الله إن وجوههم لنور وأنهم لعلى منابر من نور لا يخافون إذا خاف الناس ولا يحزنون إذا حزن الناس "، ثم قرأ : ألا إن أولياء الله... إلخ.

وورد أنه صلى الله عليه وسلم :" وددت أني لقيت إخواني الذين آمنوا بي ولم يروني".

فذلك يدل على بيان فضلهم وشرفهم وعلو منزلتهم ، لأنهم أبدا القائمون له بنشر سنته وإحياء طريقته.

فمن نظر بعين الحق والإخلاص وأحسن إلى نفسه ولم يظلمها وطلب الآخرة ومرافقة النبي صلى الله عليه وسلم والسير على منهج الأولياء والورثة المحمديين ، فعليه أن يبحث عن هؤلاء القوم، فإنهم منبثون في بقاع الأرض ، وهم متفاوتون في العطاء والنفحات والشفاء الذي يقضي على الشقاء – ولا يجوز أن يستسلم المسلم للدعاية المغرضة التي تحاول أن تصرف الأمة عنهم ، فإن السعيد من عرفهم وشرب من راحهم وأراحه الله على أيديهم . فهم سبب كل سعادة ، واليد

الحانية لمسح دمعة كل بائس ، والأمل المرجَّي لكل يائس ، رضي الله تعالى عنهم من آل بيت قد ورثوا الرحمة والحنان للأمة عن جدهم صلى الله عليه وسلم ، ولذا يجب على كل مسلم بل يتعين عليه أن يتعرف على هؤلاء الكواكب النيرة وأن يوثق صلته بربه عن طريقهم فهو نهج الإسلام الصحيح الذي أوصى به المصطفى صلى الله عليه وسلم، فإن ذلك من الضروريات ليتخلق بأخلاقهم ، ويتأدب بآدابهم ، ويعامل ربه معاملة إخلاص لا يقصد بها إلا وجهه سبحانه ورضاه.

فلقد حث الشرع الشريف على إزالة أمراض الباطن ، ووردت بذلك الآيات والأحاديث الثابتة الصحيحة ، ولم يسلم من هذه الأمراض إلا من رزقه الله السلامة في الدين ، كسلفنا الصالح من الأئمة المجتهدين الذين عملوا بما علموه على وجه الإخلاص ، ومع ذلك فقد كانوا يهرعون إلى مجالسة الأولياء ويأمرون أبناءهم وأتباعهم بذلك ، فلا يعرف الفضل إلا ذووه.

علماء الإسلام والتصوف:

إن معظم علماء الإسلام كانوا متصوفين ، أي أنهم قد تتلمذوا على أيدي الأولياء كمريدين وأتباع وذلك بعد أن يصبحوا ضالعين في العلم ، فكان أحدهم إذا اطمأن إلى أنه أصبح جهبذا من جهابذة العلم فإنه يبحث عن ولي يتلقى عنه الآداب مع الله والسير في طريقه لعل الله تعالى أن يفتح عليه بالمقام الثالث من مقامات الدين وهو : مقام الإحسان الذي لا يمنحه الله سبحانه إلا لأهل الولاية والصلة بالله .

فكان أحد هؤلاء العلماء يقول : أما المادة – أي العلوم – فقد أحكمناها وأتقناها ، وبقي بعد ذلك العمل والإخلاص فيه بقصد وجه الله في كل همة.وها هو الإمام أبو حامد الغزالي يقول : كل الناس هلكى إلا العالمون والعالمون هلكى إلا العاملون ، والعاملون هلكى إلا المخلصون والمخلصون على خطر عظيم ، أي على شأن عظيم.

فعلى سبيل المثال من علماء الإسلام المبرزين الذين كان لهم شرف الانتماء الصوفي : بعد الأقطاب الأربعة ، وعلماء أهل البيت من أهل السنة والجماعة:

الإمام أبو حامد الغزالي، والإمام أبو نعيم والحافظ ابن الصلاح والإمام العز بن عبد السلام سلطان العلماء والإمام النووي والإمام السيوطي والإمام ابن حجر الهيتمي والإمام تقي الدين السبكي والإمام عبد الوهاب الشعراني. وشيخ الإسلام زكريا الأنصاري ، وشيخ الإسلام الحفني وشيخ الإسلام إبراهيم الباجوري وشيخ الإسلام عبد الله الشرقاوي وشيخ الإسلام سالم علي المكني بأبي جماعة والذي كان شيخا لعلماء المسجد الأحمدي وشيخ العلماء سيدي علي البيومي وغير هؤلاء كثير جدا.

وذكر أبو نعيم في الحلية أن من أئمة الصوفية الأئمة الأربعة أبا حنيفة ومالكا والشافعي وأحمد بن حنبل وكفى بهم قدوة في مشارق الأرض ومغاربها فأتباعهم أهل السنة والجماعة.

فها هو الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة وهو من أئمة أهل السنة والجماعة وقد كان في القرن الثاني وقد توفى 179 هـ - وقد كان يقول :" من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ومن جمع بينهما فقد تحقق" [1] لأن العلم بغير أدب وإخلاص ومراقبة لله تعالى قد يصير صاحبه فاسقا.

وتعلم الآداب والعبادة على جهل وبدون علم للأحكام المتعلقة بأركان الإسلام والمفروضة عينا على كل مسلم ومسلمة قد تؤدي إلى الزندقة . أما من جمع بين الفقه المطلوب والتصوف فقد عرف حقيقة الدين وقد ينال عطاء الله الممنوح للعارفين.

كما قال الشافعي : صحبت الصوفية رضي الله عنهم فاستفدت منهم كلمتين : قولهم الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك – وقولهم : نفسك إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل [2] .

---

[1] قواعد التصوف للشيخ الفاسي ص3 ، طريق الله في التصوف جـ 1 للعارف بالله تعالى الشيخ أحمد أبو خليل.

[2] تأييد الحقيقة العلية للسيوطي ص 15.

أما أحمد بن حنبل فكان يوصي ولده عبد الله بمصاحبة الصوفية والاستفادة منهم . فهو يقول : يا ولدي عليك بمجالسة هؤلاء القوم – أي الصوفية – فإنهم زادوا علينا بكثرة العلم والمراقبة والخشية والزهد وعلو الهمة " تنوير القلوب للشيخ أمين الكردي ص 405".

روى أبو داود والحاكم والبيهقي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال : " إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس مائة سنة من يجدد لها دينها".

وهذا الحديث الصحيح نص صريح في أهل الله تعالى دون سواهم ، يبعثهم سبحانه من الراسخين في العلم ظاهرا وباطنا عند ظهور البدع وكثرة الخلاف وانتشار الباطل ليجددوا ما اندرس من الكتاب والسنة.

وقد ورد في الحديث القدسي :" ابغوني في الضعفاء فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم " والمراد بالضعفاء في الحديث هم : المتواضعون من رجال الله المنكسرون إلى الله تعالى حياء منه وإجلالا، وقد يستضعفهم كثير من الناس ولا يجلونهم لخفاء حالهم وتسترهم.

استتار الرجـــــال في كل أرض * تحت كل الظنون قدر جليل**

ما يضر الهلال في حندس الليـــ * ل اسوداد السحاب وهو جميل**

ما يجب نحو الأولياء:

نحن مطالبون من قبل الله جل شأنه : أن نحبهم ونجالسهم ونوقرهم وأن نحسن معاملتهم ونطلب الدعاء منهم ، ومن كان منهم من أهل الدعوة والإرشاد :

أن نتتلمذ على يده، لنتعلم الإخلاص ودروس اليقين.

قال الله سبحانه :**{... وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا (17)}[الكهف].**

فيؤخذ من هذه الآية الكريمة أن الداعي إلى الله تعالى لكي تكون دعوته مؤثرة في القلوب ، وتهذب النفوس وترقي الأرواح ، وتكون سببا في نقلة تاريخية للعبد ، حيث تنقله من ديوان

الشقاء والبلاء بالمعاصي إلى ديوان السعداء وكرم الطاعات فلابد من شرطين أساسيين في هذا الداعي:

1- أن يكون وليا من العارفين بالله تعالى.

2- أن يكون مرشدا ، قد سكب الله تعالى في قلبه نورا له ولغيره حتى تكون أنفاسه وألحاظه وعباراته مؤثرة في كل من يحيط به .

فمن أراد الله تعالى له الهداية الكاملة وفقه للسير على درب ولي مرشد يهذب نفسه ويصفي قلبه لربه ويرقي روحه لبارئه جل شأنه.

ومن لم يرد الله سبحانه له هذه الهداية بل أراد له الضلال لاختياره له وإدمانه فيه وافتخاره بمعاصيه فلن يستطيع أحد أن يوجد له الولي المرشد فقد حقت عليه كلمة العذاب.

أنواع الولاية:

الولاية نوعان :

1- ولاية عامة وتكون لجميع المؤمنين ، وهي ولاية التوحيد وأساس الإيمان ، وهذه الولاية ميزتها : عدم خلود صاحبها في النار إذا مات على عقيدتها وهي ولاية عقيدة لا إله إلا الله ، قال الله تعالى :**{ اللّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّور...(257)}[البقرة]**، أي من ظلمات الكفر إلى نور التوحيد والإيمان.

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم :" من قال لا إله إلا الله دخل الجنة".

أي أنه إذا مات عليها وكانت آخر عهده بالدنيا ، فإنه يدخل الجنة ولا يخلد في نار الجحيم بعد أن يستوفي ما عليه في النار من عذاب مؤقت إذا لم يتب ولم يؤد الحقوق التي عليه . وأما قول الرسول صلى الله عليه وسلم :" من قال لا إله إلا الله خالصا مخلصا من قلبه دخل الجنة " أي أنه يدخل الجنة من أول أمره ولا يعذب في النار، لأن من يستطيع أن يقول لا إله إلا الله خالصا مخلصا بها قلبه فقد عمل بها والتزم شرع الله وكان من عباد الرحمن ومن أهل الإيمان الحق

الذين قال الله تعالى فيهم :**{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُم ...(2)}[الأنفال]** أي اضطربت قلوبهم شوقا إلى لقاء الله سبحانه وخوفا من عقابه ، وهذا لا يكون إلا للمؤمنين الكاملين.

ومن العلماء من قال: إن حديث من قال لا إله إلا الله حديث مطلق ، ولكن حديث " خالصا مخلصا.." مقيد بهذا القيد فيحمل المطلق على المقيد ، لأن من قالها مخلصا من قلبه فقد عمل بها وطبق كل أحكام شريعة الله.

2- ولاية خاصة، وهي الولاية التي خص الله بها أحبابه الذين قال الله فيهم :**{ ألا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(62)}[يونس]** فهم المتقون بتقوى خواص الخواص ، فالتقوى ثلاثة:

1- تقوى عامة بالتوحيد من الشرك.

2- تقوى خاصة بالطاعة بدل المعصية .

3- تقوى خواص الخواص وهي : الإعراض عما سوى الله فليس في القلب إلا الله ولا على اللسان إلا ذكره وليس أمام البصر إلا عظمته في كونه.

فالتقوى العامة مآل صاحبها في علم الله الأزلي ، لأن أمره مفوض إلى الله لأنه مسلم عاص إما أن يغفر الله له ، وإما أن يعذبه حينا من الزمان.

وتقوى الخواص تجعل مآلهم – إن شاء الله – إلى جنة السابقين السابقين لأنهم هم المقربون من أولياء وأنبياء وملائكة.

فالولاية الخاصة هي ولاية المقربين ، الذين قال الله تعالى فيهم :**{ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (63)}[يونس]**والتقوى التي يعيشون في كنفها هي تقوى خواص الخواص،لأن النبي صلى الله عليه وسلم قد بين محل هذه التقوى بأن أشار بأصبعه الشريف إلى صدره الشريف وقال :" التقوى ها هنا التقوى ها هنا".

إذن هم أصحاب القلوب النقية التي تتلألأ بنور الإيمان دائما ، فليس في قلب صاحبها : حقد ولا حسد – ولا غيرة – ولا رياء – ولا سوء ظن بالمسلمين – ولا أثرة ولا أنانية – ولا حب الدنيا – ولا وساوس ولا هواجس ولا طمع وجشع .. إلخ.

فأنعم بقوم قال الرسول صلى الله عليه وسلم في حقهم :" وددت أني لقيت إخواني الذين آمنوا بي ولم يروني " ومعلوم أن ما يوده الرسول صلى الله عليه وسلم لابد أن يحدث ، فمقابلته في عالم البرزخ لهم وهم في الدنيا مؤكدة في الرؤيا ، وقد تكون في اليقظة لبعض الأولياء عن طريق المشاهدة النورانية فعطاء الله تعالى ليست له حدود ، وقد ثبت عن سيد الخلق صلى الله عليه وسلم أن أهل الشفافية المستمرة تزورهم ملائكة الله في بيوتهم ويصافحونهم بأيديهم.

فقد ورد أن الصحابة رضوان الله تعالى عليهم قالوا: يا رسول الله إنا إذا كنا معك في مجلسك رقت قلوبنا وأقبلنا على الآخرة وإذا فارقناك أعجبتنا الدنيا فشممنا نساءنا وأبنائنا فقال صلى الله عليه وسلم :" لو أنكم تكونون على كل حال على الحال التي كنتم عليه عندي لصافحتكم الملائكة بأكفهم ولزارتكم في بيوتكم".

فمما هو معروف ضرورة أن حال الشفافية النورانية يختلف من مؤمن لآخر بحسب التفاوت في العطاء والتفاوت في درجات المعدن :" الناس معادن خيارهم .. الحديث".

وهذا بالنسبة للصحابة ومن جاء بعدهم من التابعين وتابعيهم إلى أن تقوم الساعة ،" الخير فيَّ وفي أمتي إلى يوم القيامة"، وقد قال صلى الله عليه وسلم :" إذا رأيتم إخواني فأبلغوهم مني السلام " قالوا : يا رسول الله : نحن إخوانك ، أوَ لك إخوان غيرنا ، قال:"لا، بل أنتم أصحابي إن إخواني من آمنوا بي ولم يروني ، عمل الواحد منهم كعمل سبعين " قالوا: منا أو منهم ؟ قال:" بل منكم لأنكم تفعلون الخير وتجدون له أعوانا وهم يفعلون الخير ولا يجدون له إخوانا " إذًا فإذا وُجِد مسلم الآن صافي القلب نقي السريرة كصفاء قلب الصحابي كانت درجته مثل درجة سبعين صحابيا ، لأن الصحابي كان يساعده على الاستقامة الجو العام الصالح ، أما الآن – بعد انتقاله صلى الله عليه وسلم ، وخصوصا في هذه الأيام فقد تغير الوضع تماما ، وصار الجو العام هو الانحراف عن الصراط المستقيم . فالقابض على دينه في عصر الفتن والمعاصي

كالقابض على الجمر – والصالحون الآن غرباء في وسط هذا الزحام الهائل من الغفلة عن الحق جل شأنه والعكوف على كثير من الموبقات صباح مساء ، فالولي الكامل الآن بدرجة سبعين صحابيا في عهد الصلاح والتقوى ، ولذلك فإن الكرامات وبخاصة كرامات الاستقامة وإصلاح الخلق على الله تنهمر عليه كالمطر المنهمر ، ليقيم الله حجته على خلقه مرتين : مرة بمعجزة النبي ومرة أخرى بكرامة الولي الذي اتبعه.

<u>فضل المتابعة لسيد الخلق</u> <u>صلى الله عليه وسلم</u>**<u>:</u>**

لقد حقق سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عبوديته لربه كاملة تامة ، حتى كان أول العابدين : قال الله تعالى عنه صلى الله عليه وسلم :**{... فَأَنَا أَوَّلُ الْعَابِدِينَ (81)}[الزخرف].**

لقد حققها في قمتها وذروتها ، حتى كان أول المسلمين ، قال سبحانه :
{قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ(162) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (163)}[الأنعام].

لقد حققها رحمة الله للعالمين موفورة كاملة بما لم يتأت من أي عابد في الأرض ولا في السماء ، فكان أول المسلمين ، قال سبحانه آمرا له :**{... وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (163)}[الأنعام].**

إن الأولياء ما نالوا البشرى في الدنيا والآخرة إلا لكمال متابعتهم للرسول صلى الله عليه وسلم ، إذ أنهم ورثة محمديون ، تخلّقوا بأخلاقه صلى الله عليه وسلم ، واقتدوا به في كل العبادات والمعاملات ، ووهبوا قلوبهم لربهم ، واستعذبوا الصعب حُبًّا فيه سبحانه وطلبا لرضاه ، صفّوا

قلوبهم من الأكدار ، وهذبوا نفوسهم من الأغيار ، فوصلوا إلى مقام الإحسان فكانوا أدلاء على الله ، يصلحون الخلق عليه بما وهبهم الله به من تمام التوفيق والسعادة فكانوا من جملة أهل الحسنى وزيادة . فلقد سار أحباب الله من الصوفية على درب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن سار على الدرب وصل وبلغ الأمل.

فلا تقل ذهب الأولون ولكن من سار على الدرب وصل.

يقول الإمام السهروردي في " عوارف المعارف":

الصوفي: هو الذي يكون دائم التصفية ، لا يزال يصفِّي الأوقات عن شوب الأكدار ، بتصفية القلب عن شوائب النفس.

ويعينه على هذه التصفية دوام افتقاره إلى مولاه . فبدوام الافتقار ينقي من الكدر.

وكلما تحركت النفس ، وظهرت بصفة من صفاتها أدركها ببصيرته النافذة ، وَفَرَّ منها إلى ربه.

فبدوام تصفيته : جمعيته ، وبحركة نفسه : تفرقته وكدره.

فهو قائم بربه على قلبه ، وقائم بقلبه على نفسه ، قال الله تعالى :

{... كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ... (8)}[المائدة].

وهذه القوامية لله على النفس : هي التحقق بالتصوف" . ويقول الإمام السهروردي في موضع آخر

" والصوفي يضع الأشياء مواضعها ، ويدبر الأوقات والأحوال كلها بالعلم ، يقيم الخلق مقامهم ، ويقيم أمر الحق مقامه ، ويستر ما ينبغي أن يستر ، ويظهر ما ينبغي أن يظهر.

ويأتي بالأمور في مواضعها . بحضور عقل ، وصحة توحيد ، وكمال معرفة ، ورعاية صدق وإخلاص"(1)[1].

---

[1] عوارف المعارف جـ1 ص232بتصرف.

فلقد أخذ الصوفية أنفسهم بالاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم فيما دَقَّ من الأمور ، وما هو واضح منها ، وفي اليسير من أعمالهم ، والعظيم منها.

وغني عن البيان: أن الأسوة الحسنة للعارفين من الصوفية جميعا ، إنما هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فهم دائما يتابعون السير على منواله ، ويحاولون باستمرار أن ينهجوا نهجه في غير تكلف وتصنع ، بل لأنهم عناصر ممتازة ، غالبا ما ينتمون إلى ذاته الشريفة نسبا وتبعا أو حبًّا وحسبا ، فيخلع الله تعالى عليهم خلع التوفيق والتحقيق بدوام الصلة بالله تعالى ، المؤسسة على نور الحب المحمدي الذي منحهم الله إياه ، فلا استحالة في ذلك ولا شك ، بل ذلك هو الواقع ، لأنه صلى الله عليه وعلى آله وسلم هو إمامهم الأسمى في كل ما يفعلون ، ويذرون ، إنهم يتابعون هديه الشريف ومنهجه القرآني المؤسس على قوله سبحانه :{**لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا(21)}[الأحزاب].**

وخلاصة القول في الولاية: أنها نوعان : ولاية عامة لجميع المسلمين وهي ولاية تكون قاسما مشتركا بين أهل الملة أجمعين، وهي ولاية " **لا إله إلا الله** " وهذه لا تنجي صاحبها من دخول النار ، بل إنه لو مات معتقدا إياها ومعتقدا للعقائد الخمس الباقية فإنه لا يخلد في النار وإن عذب فعلى قدر معاصيه إذا لم يتب منها.

فلابد من تدعيم العقائد الإيمانية بالعمل كدليل راسخ على وجود الإيمان ، قال الله تعالى:{**اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجَهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إلى النُّور...(257)}[البقرة]**فهذه الولاية لمن اعتقد العقائد الست المعروفة لكنها لم تطبق في دنيا العمل ، فهي وإن كانت قد أخرجته من ظلمات الكفر إلى نور التوحيد لكنه عرضة للمساءلة أمام الله سبحانه على ترك العمل.

فما من آية في القرآن الكريم ذكرت "الإيمان" إلا وقرنته بـ"العمل الصالح":**{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ...(277)}[البقرة]**وفي الحديث الشريف الذي رواه أحمد في مسنده:" الإيمان ما وقر في القلب وصدقه العمل " وفي الحديث القدسي:" ما أقل حياء من يطمع في جنتي بغير عمل كيف أجود برحمتي على من بخل بطاعتي" من الإتحافات السنية في الأحاديث القدسية .

<u>وأما الولاية الخاصة:</u> فهي منحة الله تعالى لعباده المخلصين ، الذين جاهدوا أنفسهم ومحوا الصفات الذميمة ، وقطعوا العلائق كلها ، وأقبلوا بكنه الهمة على الله تعالى :" ومهما حصل ذلك ، كان الله هو المتولي لقلب عبده ، والمتكفل له بتنويره بأنوار العلم . وإذا تولى الله أمر القلب فاضت عليه الرحمة ، وأشرق النور في القلب ، وانشرح الصدر ، وانكشف له سر الملكوت ، وانقشع عن وجه القلب حجاب الغفلة بلطف الرحمة ، وتلألأت فيه حقائق الأمور الإلهية ، فليس على العبد إلا الاستعداد ، بالتصفية المجردة ، وإحضار الهمة ، مع الإرادة الصادقة ، والتعطش التام ، والترصد بدوام الانتظار لما يفتحه الله من الرحمة ". أ. هـ كلام الإمام الغزالي.
نعم إن أرباب هذه الأحوال والمقامات الشريفة هم من أحبهم الله فأحبوه ، ورضي عنهم فرضوا عنه ، إنهم من قال حبيبهم فيهم:**{ أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ(62) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ(63) لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ لا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ(64)}[يونس].**

<u>كيف يعرف الناس الولي؟</u>

من المعلوم أن الولي له حالتان : فقد <u>يكون مجذوبا</u> ، مأخوذا عن الخلق ، هائما مع الله تعالى ، منصرفا عن الناس ودنياهم ، لا يعرف إلا الله الذي جذب قلبه وعقله إليه ، فهذا الولي نسلّم له حاله، ولا نستقذر هيئته الرثة غالبا ، ونجنب الناس مضايقته ، ونتركه لربه ، ولا نعترض عليه ، بل نساعده في أموره الضرورية كلما يقبل ذلك ، وهذا النوع لا يربي الروح ، ولا دخل له في

الإرشاد، وفيه يقول الرسول صلى الله عليه وسلم :" رُبَّ أشعث أغبر ذي طمرين لا يعبأ له يطرق الأبواب لو أقسم على الله لأبره " فهؤلاء معروفون ، قد يدورون في الطرقات ، ويطرقون الأبواب، أو يهيمون في المقابر والجبال، والفيافي والقفار ، فيجب إكرامهم واحترامهم إن ظهروا لنا ويحرم إيذاؤهم ومضايقتهم، لأن ذلك يستجلب مقت الله وغضبه ، وقد يكون الانتقام سريعا ، فإنهم من أهل الانكسار فلا جاه لهم ولا سند في دنيا الناس إلا الله تعالى الذي يغار عليهم ، في الحديث الشريف يقول صلى الله عليه وسلم :" وهل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم". وفي الحديث القدسي :" ابغوني عند المنكسرة قلوبهم فإن عندهم تنزل رحمتي " وفي رواية أخرى :" ابغوني في الضعفاء فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم" فالمراد بالضعفاء : المتواضعون من رجال الله الذين يستضعفهم الناس ولا يجلونهم لخفاء حالهم وتسترهم.

وقال صلى الله عليه وسلم :" ذروا العارفين المحدَّثين من أمتي لا تنزلوهم الجنة ولا النار حتى يكون الله هو الذي يقضي فيهم يوم القيامة".

فالمراد بهذا : أن في الأمة مجاذيب ملهمين يتحدثون بالغيبيات وربما يبدو منهم ما ظاهره يخالف الشرع فلا تحكموا عليهم بأنهم من أهل النار ، نظرا لما بدا من المخالفات ، بل لا تتعرضوا لهم بشيء وفوضوا أمرهم لمولاهم.

ومن أجل ذلك فقد صدر تنبيه من السادة الفضلاء العارفين بالله تعالى على مريديهم بتلك العبارة "لا بِهِمْ تَقْتَدوا ولا عليهم تَعْتَدوا".

وهناك نوع من الأولياء وهم العقلاء المكلفون بإقامة شرع الله تعالى ، فهذا النوع في المعرفة بالله تعالى ، وقضية التأثير والتأثر درجات ، وسبحان من يعطي من شاء ما شاء، فهم متفاوتون في العطاء ، فمنهم من ولايته قاصرة على نفسه فلا يربي غيره ، وإنما هو عبد صالح مستجاب الدعوة، له روح خيرة ، يفوح طيبها ويعبق محليا فقط ، وهؤلاء كثيرون ، وقد يكون فيهم المغمور الذي لا يعرف أحد ولايته، بل ربما لا يعرف هو نفسه.

ومنهم من يزداد عطاؤه ، وتَعْظُم نفحاته وإمداده ، فقد رزقه الله نورا كثيرا له ولغيره ممن يؤذن لهم بالسلوك والتربية على يديه ، فالإناء لكي ينسكب من جوانبه : لابد أن يمتلئ . وهؤلاء قد منحهم الله قوة التأثير الروحي في مريديهم ، حيث يغيرون السلوك المنحرف إلى سلوك سَوِيٌ ، ويصلحون العاصي على ربه فينيب إلى الله تعالى ، ويُرَقُّون أرواح الصالحين فتزداد تقوى وصلاحا وهدى ورحمة ، وقد يتخرج أولياء على أيديهم ، فيفيدون الدعوة الإسلامية نشاطا وحيوية.

طبقات الأولياء:

مما لا شك فيه تفاوت العطاء والنور والنفحات ، فمن الأولياء مثلا من هو في درجة الخفير ، ومنهم من هو في درجة الوزير ، والأولياء الكُمَّل يعرف بعضهم بعضا.
ومن الأولياء طبقة النقباء ، طبقة النجباء، وطبقة الابدال، وطبقة الأخيار، وطبقة العمد ، وطبقة الغوث.
فقد أخرج أحمد في مسنده عن شريح بن عبيد قال : ذُكِرَ أهل الشام عند الإمام علي بن أبي طالب رضوان الله عليه ، حينما قالوا :العنهم يا أمير المؤمنين، قال : لا، سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:"الأبدال بالشام وهم أربعون رجلا ، كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلا : يسقي بهم الغيث وينتصر على الأعداء، ويصرف عن أهل الشام بهم العذاب" .
قال الحافظ السيوطي : رجاله رجال الصحيح غير شريح – وهو ثقة.
وأخرج الحاكم وصححه وأقره الذهبي عن عبد الله بن زرير الغافقي أنه سمع علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه يقول :" لا تسبوا أهل الشام فإن فيهم الأبدال وسبوا ظلمتهم".
وأخرج ابن عساكر عن عياش بن عياش القتباني أن الإمام علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه قال :" الأبدال من أهل الشام ، والنجباء من أهل مصر ، والأخيار من أهل العراق".

ويحتمل أن ذلك كان في عصره رضي الله تعالى عنه ، وأن كل عصر له رجاله ، والله تعالى يفعل ما يشاء ، ويعطي من شاء متى شاء وفي أي مكان شاء:**{وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ...(30)}[الإنسان]**،إذ إنه قد أصبح من المعروف أن كثيرا من قادة الأولياء الأحياء وبخاصة قطب الغوث من مصر منذ قرن من الزمان متواصلا في أغلبه وكذلك الأبدال وعمد الأولياء ، وهذا ما يعرفه جميع أولياء العالم الذين لهم قدم في القطبانية والمعرفة الكاملة بالله تعالى ، وإنما يعرف الفضل وأهل الفضل من الناس ذووه. والله أعلم.

فقد أخرج أحمد بن حنبل رحمه الله في مسنده عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه : عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"الأبدال في هذه الأمة ثلاثون مثل خليل الرحمن كلما مات رجل أبدل الله مكانه رجلا آخر" قال الحافظ السيوطي : ورجاله رجال الصحيح . وأخرج الطبراني في الأوسط عن أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" لن تخلو الأرض من أربعين رجلا فَبِهِمْ تُسْقَوْنَ وبهم تُنصرون، ما مات رجل إلا أبدل الله مكانه آخر".

قال الهيثمي في مجمع الزوائد : إسناده حسن.

وأخرج الطبراني ، وأبو نعيم في الحلية ، وابن عساكر عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" خيار أمتي في كل قرن خمسمائة والأبدال أربعون فلا الخمسمائة ينتقصون ولا الأربعون ، كلما مات رجل أبدل من الخمسمائة مكانه، وأدخل في الأربعين ، قالوا : يا رسول الله دلّنا على أعمالهم ، قال :" يعفون عمن ظلمهم ويحسنون إلى من أساء إليهم ويتواسَوْن فيما آتاهم الله عز وجل".

مكانة الأبدال وأثرهم في الأمة:

أخرج الطبراني عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" لا يزال أربعون رجلا من أمتي قلوبهم على قلب إبراهيم عليه السلام ، يدفع الله بهم عن أهل

الأرض ، يقال لهم: الأبدال ، إنهم لم يدركوها بصلاة ولا صوم ولا بصدقة ، قالوا : يا رسول الله فَبِمَ أدركوها ؟ قال : بالسخاء والنصيحة للمسلمين".

<u>الأبدال ودخولهم الجنة:</u>

ورد في حديث شريف عن البيهقي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" إن أبدال أمتي لم يدخلوا الجنة بالأعمال ولكن دخلوها برحمة الله وسخاوة الأنفس وسلامة الصدور والرحمة بجميع المسلمين".

<u>محبو الأولياء والجنة:</u>

أخرج الشيخان عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال: قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم : يا رسول الله ، كيف ترى في رجل أحب قوما ولم يلحق بهم؟
فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" المرء مع من أحب".
وأخرج الطبراني في الأوسط بإسناد حسن عن حذيفة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" من تشبه بقوم فهو منهم".

<u>كبار الأولياء من آل البيت وكرامتهم الدليل والبرهان:</u>

من السنن الكوني أن يظهر الله تعالى في كل عصر من يجدده بخوارق العادات ، فتظهر على يديه الكرامات إكراما منه سبحانه وتعالى ، ليلفت القلوب إليه ويجتمع الناس على حبه لكي يستطيعوا استقبال نور الهداية من روحه الشفافة ، فتترقى أرواحهم في سماء المعرفة بالله تعالى ، ويتم تقويم المعوج من العصاة حتى يصبح من قمم المطيعين لله رب العالمين.

وإن طبقات الأولياء مشحونة بأعمالهم فتراهم مصابيح الهدى وكواكب الصلاح ومواكب النور والإخلاص وشموس اليقين : حيث يسطع نورهم في كل عصر.

حيث يؤيدهم الحق سبحانه بالمناقب العالية والكرامات الحسية والمعنوية.

فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه الإمام أحمد: " يبعث الله على رأس كل مائة سنة رجلا من أهل بيتي يجدد لها أمر دينها".

فمن نهج نهجهم الذي هو منهج الشرع الشريف ، وتأدب بآدابهم التي هي آداب النبي صلى الله عليه وسلم ، وتعلّم من علمهم الذي أفاضه الله تعالى على قلوبهم فقد فاز بالرضا وحسن الختام.

سمات الولي الكامل وخصائصه:

إن أول ما يخص الله تعالى به العبد إذا أراد أن يتولاه ويعلّمه العلم اللدني فيكون وليا عالما بالله تعالى أن يتجلى عليه بالأمور الثلاثة الآتية:

1- أن يخصه الله تعالى من علوم التسعة والتسعين اسما بخصائص ينفتح له بها من العلم مالا ينفتح للعالم بطريقة النظر.

2- أن يرقيه إلى معرفة الأسماء الباطنة التي أولها :"هو"و"هو" اسم مركب من حرفين موضوع للإشارة إلى هويّته التي ترجع إليه الأسماء الباطنة والظاهرة كلها ، وبعد معرفة "هو": يعلم بقية الأسماء الباطنة التي من جملتها : الحروف المقطعة في أوائل السور.

3- بعد أن يفهم الأسماء الباطنة : يطلعه الله تعالى على "اسمه الأعظم" بتعليم الخضر إياه – في الغالب – وقد يَتَلَقَّى بإلهام يُقْذَف في الروع ، وذلك عند هبوبٍ لريح الفضل على العبد المراد بالوصل مِنْ جَوِّ نَجْدٍ وَجودِ الجودِ بنفحات الإله المعبود.

دعامة قيام الوجود بأسره:

لقد قام الوجود كله بأسماء الله الباطنة والظاهرة المقدسة ، وأسماء الله المعجمة الباطنة أصل لكل شيء من أمور الدنيا والآخرة.

وهي خزانة سره ، ومكنونة علمه ، ومنها تتفرع أسماء الله تعالى ، وبها قضاء الأمور ، وأودعها أم الكتاب.

تجلي الله تعالى على أهل العرفان:

إن هؤلاء القوم قد غاصوا في تيار تدقيق وتحقيق علوم بدائع أحوال أرواحهم ولطايف أنوار نفايس أسرارهم، وأتقنوا الوزن بإتيان إحكام الموازنة بين العوالم المثالية والعوالم الروحانية والبرازخ النورانية والأسرار الربانية : بموازين دقائق رقائق عجائب معاني مراتبها البهية العلية ، ولترقى تدريجا في مراقي درجات أسرار أعلام أنوار الهداية البهية: من أعالي شوامخ معالمها المعنوية والصعود في مصاعد الارتقاء إلى رفيع أوج نهايات شموس أنوار مسالكها السَّنِيّة : لما أقلعوا في بحر مناهج الوصل إلى الحقائق المحمدية أفلال عزائم الطرائف المصطفوية بشراع العلوم والأعمال النبوية حتى وصلوا إلى تيار زخار خضم بحور أنوار الحقيقة الأحدية وشاهدوا شموس أسرار الدقائق الوهبية وأقمار عوارف معارف الأنفاس الإلهية ، ونزلوا في ساحات حضرات غيوث فيض جذبات الفضل الفيضية وحَقَّ لهم ذلك وَهْنّوا بما هنالك ، وبما نالوا من عظيم الممالك، وذلك أنهم بعد ما تحققوا بحقائق الترقي في شوامخ المقامات العلا، وصعدوا في أعالي منازل منازلات الأحوال الحسنى وانمحت صفات نفوسهم الدنية ، وانمحت آثار مراسيم نظرهم إليهم بالكلية ولم يبق فيهم منهم بقية، وانسلخوا عن رذائل نفوسهم وظلمة أوصافهم انسلاخ الحيَّة ، وتحلواْ بحلى محاسن أنوار الأرواح وترعرعت لهم كاسات الصفاء في جواهر الأقداح ، فعند ذلك أشرقت لهم شموس المكاشفات ، وسطعت عليهم بدور حقائق المشاهدات فشاهدوا جمالا ليس كمثله جمال، ووردوا منهلا عذبا حَالِي الصفا

والزّلال ، ودارت عليهم في الحضرات القدسية كئوس راح الوصال متكئين على منصات أرائك سرر التمكين بالتصريف المكين : في خيام الإفضال وقباب خصائص تخصيص خصوص الولايات العوالي، وانسحقت بمساحق معاول أنوار عوارف معارفها ظُلَم سحب البينْ، وكسائف حجب الانفصال الحائل عن الحقيقة بالمحال المحاكي للحال ، وبقَوا غرقى في غَبَّة بحبوح بحر فناء الفنا عما سوى المولى حيث لا حيث لحيث ولا أيْنَ لأين ولا أثر ولا عين بل استهلكت حقيقة كليتهم، وذابت ذرات دقائق جزئيتهم في سِرِّ عين نقطة دائرة دوائر حقائق جواهر منْ صفا خصوص زُبَد حقيقة توحيد الذات وتمجيد مجيد محامد الصفات.

<u>أثر الأولياء في عروج المصاعد والمنازل الربانية:</u>

" طوبى لهم ، طوبى لهم من رجال أتقياء وعباد أصفياء وخاصة أولياء :وزنوا حركاتهم وسكناتهم وجُمَل أعمالهم وتفاصيلها بموازين حقائق الانتقا، وقسطاس الكتاب القويم بالاقتدا ، وَرَقوا إلى أوج جناب المولى في مراقي الصفا بسلاليم الأسما ، وعرجوا إليه في معارج الاصطفا بمراكب السر الأسنى ، طارت بهم في سفرهم السنى الأهنا كطيران طيور الهوا في السما بأجنحة حقيقة اتباعهم للمصطفى إلى شريف رفيع عوالي حضرات أسرار أحدية المسعى ففتحوا بمفاتيح مقاليد أسراره ، ومجال حقائق أنواره أغلاق أنوار خزائن الفقه الأنور والسر الأبهر والنور الأزهر والياقوت الأشهر والجوهر الأنضر والدر الأقمر والكنز الأفخر والإكسير الأحمر وجداول المسك والعنبر بسواحل البحر المحيط الجامع الخضم الأزهر المحتوي على درر معارف اليواقيت وبدائع الجوهر وعجائب عجب المحكم الأزهر ومجامع مسك الأسرار والعنبر وجميع أنواع غرائب غوالي الأطياب المعنوية بعودها الأخضر في بحبوح حضرات الأنوار المشرقة البهية ، وبساتين فواكه حقائق العلوم الدقيقة الدنية، وحدائق فرادق توالي جذيات المواهب الأنيقة ذات الثمار الذكية الوريقة وجداول أنوار روح بحر الحياة الدائمة

الخضرة الغريقة ذات الجمالات الحذية المشعة بأسرار مغاطيس سرها حقائق أسرار القلوب إلى حضرة جناب المحبوب والفوز بالوصول إلى غاية المنى والمطلوب" [1].

الكرامة: أمر خارق للعادة والناموس الكوني غير مقرونة بالتحدي ولا بدعوى النبوة وليست مقدمة لها: يظهرها الله تعالى على يد رجل ظاهر الإصلاح والتقوى قد لزم شرع النبي صلى الله عليه وسلم ولم يحُدْ عنه.

والكرامة يجب الاعتقاد بأنها من فعل الله تعالى وليست من فعل الولي ولكنها ظهرت على يده لا بقصد المتاجرة ولا المفاخرة ، وإنما الهدف القدري منها أنها تجدد الروح الدينية في العصر المادي وتستميل العصاة نحو المتاب والرجوع إلى الله الوهاب. وما من كرامة لولي إلا وهي في نفس الوقت معجزة للنبي الذي أتبعه.

وأما المعجزة فهي أمر خارق للعادة مقرونة بالتحدي يظهرها الله تعالى على يد النبي تصديقا له في دعواه . والهدف منها : بث الإيمان في قلوب الكفار.

فكل من الكرامة والمعجزة تشترك في أنها من عند الله إيجادا ولكن الكرامة تظهر لولي ، ليتوب العاصي ، ويزداد المطيع طاعة وإنابة.

والمعجزة لا تكون إلا على يد نبي يصدقه الناس أنه مرسل من الله تعالى فيعتنق الكافر دين الله ويصير مؤمنا.

وأما السحر فهو عبارة عن قواعد معروفة بالتعليم وليس من خوارق العادات فإن الله تعالى يغير ناموس الكون – أي ارتباط الأسباب بالمسببات – للكرامة والمعجزة ، ولكن السحر لا يغير طبيعة الأشياء ، فالشيء يبقى هو هو – ولكن التغيير يكون لبصر أو خيال الإنسان المسحور . وقصة سيدنا موسى مع سحرة فرعون توضح ذلك أتم توضيح ، لأن السحرة حينما ألقوا عصيهم وحبالهم وقرئت عليها تعاويذهم وسحرهم التي عقدوها على أن ترى في صورة ثعابين تتحرك كان ذلك مُنْصبًا على نظر الرائين فقط ولم يحدث تغيير لطبيعة الحبال والعصى ،

---

[1] طريق الله جـ2 للعارف بالله تعالى سيدي الشيخ أحمد الشافعي أبي خليل.

فرآها الناس كأنها ثعابين تتحرك وما هي بثعابين ، فالله تعالى يقول في ذلك :**{... سَحَرُوا أَعْيُنَ النَّاسِ وَاسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَاءُوا بِسِحْرٍ عَظِيمٍ(116)}[الأعراف]**. فلقد كان السحر منصبا على البصر والخيال فقط ولا دخل له بتغيير حقيقتها ، قال الله سبحانه:**{...يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِن سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى(66)}[طه]**.

{فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى (67)قُلْنَا لا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الأَعْلَى(68)}[طه] وحينما أمره الله تعالى بإلقاء العصا فإنها تغيرت طبيعتها إلى حية حقيقية ، إذ إنه لا يستطيع أن يخرق النظام إلا واضعه ، يقول سبحانه :**{وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ وَلا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَى(69)}[طه]** انظر إلى قوله سبحانه: **{فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى(20)}[طه]** فعرف السحرة أن ذلك ليس سحرا **{ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (120) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (121)}[الأعراف]**.

حكم السحر: السحر حرام ومن الكبائر ، بل وردت أحاديث ثابتة تحذر السحرة بالارتداد عن دين الله والعياذ بالله تعالى قال صلى الله عليه وسلم :" الساحر كافر". ولا يجوز لمسلم أن يذهب إلى ساحر ليتسبب في ضرر إنسان آخر بأي نوع من الضرر، لأن المتسبب في السحر والساعي إليه يعتبر كافرا أيضا مرتدا عن الملة والعياذ بالله تعالى . فهؤلاء الذين يعملون على إيذاء الخلق برباط أو كراهية أو مرض نفسي أو جسماني أو أي نوع من الإيذاء فسوف يدخلون جهنم ويحرقون بسعيرها ، وهذا لمن عمل " العمل " وكذلك من شجع عليه وأمر به من رجل أو امرأة.

السحر والتصوف:

لما كان السحر من أخطر الموبقات المحرمة التي قد تؤدي إلى الكفر والخروج عن الملة والعياذ بالله ، لأنه قتل إرادة الإنسان ، وهلاك معنوياته ، وتدمير مستقبله فإنه يتنافى مع التصوف الذي

هو حقيقة شرعية [1] واستجابة روحية تدعو صاحبها إلى التمسك التام بكتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، وبذل الخير والسعادة للناس ، وتخفيف آلامهم الظاهرة والباطنة ، والسعي إلى إسعادهم في الآخرة بإصلاحهم على ربهم وتعويدهم طاعته وذكره سبحانه بقلب منيب إلى الله ، شعاره " لا ضرر ولا ضرار" إذًا فالتصوف برئ براءة تامة من السحر الذي هو من أبشع المعاصي ، وقد أتى ذكره بعد الشرك بالله وقبل القتل ، لأنه يؤدي إلى الشرك ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح :" اجتنبوا السبع الموبقات ، قيل : وما هن يا رسول الله ؟ قال: الشرك بالله والسحر والقتل..... الحديث".

ولكن وياللأسف لما ضعف الوازع الديني لدى البعض الآن ، وآثروا الحطام الفاني أصبحت الدنيا الرخيصة كأنها إله يعبد من دون الله ، فاستحوذت على قلوبهم وخضعوا لها الخضوع التام حتى أنستهم ذكر الله وخشيته ، فوقعوا في براثن الكبائر تساقط الفراش على النار دون تفكير.
وذلك ما يحدث لبعض من ينتمون إلى الطرق الصوفية زورا وبهتانا وضلالا وتضليلا ، بل إنهم يتسترون في أسماء قد نسوا معناها ، وأعطوا الفرصة لأعداء الإسلام بالهجوم على قداسة "التصوف " الذي يمثل الروح الإسلامية الحقيقية التي هي :" مقام الإحسان " وبذلك قد اختلط الحابل بالنابل، بل إن بعض المثقفين لا يعرفون التصوف إلا من زاوية ذلك العبث الدجلي ، والتردي في مهاوي " الجن " والشياطين . التي أثاروها على الخليقة نشعيذتهم الرخيصة.
وكان الواجب على مشيخة الطرق الصوفية أن تضرب على أيدي الدجالين والسحرة ، والمشعوذين ومحترفي المقذعات ، والعاكفين على فضيحة الإسلام باسم التصوف المظلوم ، أو تحت أسماء لأولياء بررة أتقياء ، هم براء من هؤلاء الأفاقين براءة الذئب من دم ابن يعقوب!!.
هذا هو أقدس واجب على المشيخة والمجلس الصوفي الأعلى: إن أرادوا للإسلام خيرا ولروح التصوف أن تصقل قلوب الأجيال بهدى الإسلام الصحيح الذي كم صنع أبطالا صاغوا النصر المؤزر على الأعداء في كل زمان ومكان ، ومن قبيل المثال لا الحصر: سل حطين وعين

---

[1] إشراقات في طريق الله للمؤلف.

جالوت، وسل الأقطار التي انتشر فيها الإسلام بسببه وهي تتساقط الآن على أيدي الروس والصرب وتدمر بأهلها الذين منهم أحفاد للفاتحين الذين آمنوا بالله ورسوله.

إنه يتعين على المشيخة والمجلس إقصاء كل من ثبت لعبه بالنار والصبار، والسحر والتهريج من القائمة حتى لا تقوم لهم قائمة في نقض عُرَى الإسلام ، وبث البدع والمنكرات بين الكافة باسم الطريق والمشيخة ، نعم هذا من ألزم الواجبات لتنقية الأجواء من العفن والفوضى التي ترتكب باسم الدين والتصوف حتى صار بعض من لا يعرفون عن التصوف إلا اسمه : ينفرون من ذلك الاسم . مما أحرج الأمة وأحرج رجاله المخلصين ، الذين هم خير خلف لخير سلف ولا شك أنه لا زال في العرين أسود " ولينصرن الله من ينصره".

الكهانة والعرافة والتنجيم:

إن التصوف برئ كل البراءة من الكهانة والعرافة والتنجيم ، لأن هذه الأمور في خطورتها كالسحر في تحريمها وتجريمها ، لأن أصحابها فسقة ، إن لم يكونوا قد وقعوا في بؤرة الخروج عن الملة ، فهم يدعون أنهم يعرفون الغيبيات ، ويؤثّرون بأنفسهم ويتعاملون مع " الجان " في معرفة بعض الأشياء الحاصلة ، فيغررون بالضحية من السذج والدهماء وفاقدي الثقة ، والطامعين في المناصب الوهمية ،وكشف المستقبل ، فقد قال صلى الله عليه وسلم :" من صَدَّق كاهنا أو عرافا أو منجما فقد كفر بما أنزل على محمد" رواه البخاري.

الكشف والإلهام الصوفي:

لا شك أن الله تعالى هو وحده علام الغيوب وهو سبحانه النافع الضار والمؤثر في الكون وحده دون أحد سواه.

فالجان: لا يعلمون الغيب ولا غيرهم . وقصتهم في القرآن الكريم مع سيدنا سليمان توضح ذلك ، فقد مات وهو متكئ على عصاه ومكث مدة طويلة ولم يعرفوا ذلك حتى أكلت الأرضة أسفل العصا فخر ساقطا على الأرض وقد أعياهم قيامهم بالعمل المضني المتواصل ببناء القصور والدور والهياكل دون معرفة بموته إلا بعد وقوعه على الأرض.

قال الله تعالى:**{ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ(14)}[سبأ].**

إن بعضا ممن ينتمون كذبا وادعاء إلى التصوف قد لجئُوا إلى كتابة الأوفاق والتمائم ثم توسعوا في ذلك فلجئوا إلى كتب التعامل مع الجان ليسخروهم في معرفة أشياء أو محاولة التأثير في بعض الناس أو علاجهم من الأمراض ، بعد أن أفلسوا من صلتهم بربهم ، وآثروا الدنيا على الآخرة ، ووقعوا في قضية التهجين النسْبَي فضاعت الوراثة النورانية التي كانت عادة تساعد على منح الله الولاية للسالك طريق الله.

فلما كان الآباء والأجداد من ذوي البصائر يستشفون بالفاتحة وبالدعاء، فإن الأحفاد الآن قد يستجاب لهم ، وبذلك انكشف أمرهم أمام مريديهم فلجئوا إلى ما يسمى العلاج بالقرآن الكريم للمرضى من محبيهم ومريدي آبائهم وأجدادهم ، فلم تفد في العلاج لقلة صفاء القلب وانشغاله بالدنيا الفانية والتكاسل عن الطاعة والذكر وعدم سهر الليل في العبادة ، لتعلق قلوبهم بالدنيا والعرض الفاني فجلبوا الكتب الخاصة بالجان ودرسوا ما فيها حتى أوصلهم ذلك إلى السحر، لأن الجن يهمهم تعليم الإنس السحر قال الله سبحانه:**{... يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ...(102)}[البقرة].**

وبذلك وقعوا في المحظور، هذا علاوة على المتخصصين في هذه المزالق الطفرية الذين هم كالسوس الذي ينخر في عظام المجتمع.
ولكن مع ذلك فإن الله تعالى قد قيض لهذه الأمة اولياء وعارفين بالله لا دخل لهم في هذه المستنقعات المتردية في حمأة الرذائل.

ومن هؤلاء الأقطاب الذين أفادوا الأمة بنور الإسلام وهداية الإيمان العارف بالله القطب الرباني سيدي الحاج محمد أبو خليل الذي بهر العالم بدعوته إلى الله تعالى على بصيرة الإيمان، وأفاد الأمة من اقصاها إلى أدناها على كافة المستويات العلم اللدني والكرامات التي مسحت دموع البائسين واليائسين وجذبت العصاة إلى ساحة الطاعة والإيمان وكل ذلك يتم في خطوات متهادية بلا ترفع ولا افتخار ولا ضجيج.

فإنه رضي الله عنه قد أوصى أبناءه صلبا وعهدا عدم التعامل مع الجان مهما كشف الغطاء عنهم فرأوهم بسبب الذكر الكثير والإنابة إلى الله تعالى ، وألا يعتزوا إلا بالله ولا يؤملوا إلا رضاه ، ولا يخشوا أحدا سواه ، فبقيت مدرسته الخليلية المحمدية تهدي السارين والسائرين إلى طريق الوصول إلى الله رب العالمين.

وما زالت تلك المدرسة المباركة تؤدي دورها البارز في تخريج العلماء العاملين المخلصين والأولياء العارفين المتمكنين بمقام الإحسان ، لأنها تعود بالمسلم إلى الإسلام النقي والإيمان الحق.
إذ إنها تحرره من الأغراض الدنية، وتذكي فيه علو الهمة ، كما كان سلفنا الصالح من أهل المذاقات النورانية ، الذين أفاض الله عليهم : الفراسة والإلهام والكشف والسمع والبصر الرباني – فهي المدرسة الحية التي تخرج أجيال الأولياء والعلماء بالله تعالى حتى الآن ولا حرج على فضل الله.

الفراســـــة:

الفراسة: نور يقذفه الله سبحانه وتعالى في القلب بسبب إخلاص السالك طريق الله في محبته وسلوكه مقامات الوصول ، فيهتدي إلى الحق ويميز به الظلمات من النور، فيدرك بعقله مسارح الأرواح وتقلبات القلوب مهما خفيت ولذلك فقد أوجب علماء السلوك المحمدي أن يكون المريد حارسا على قلبه وخاصة أمام الشيخ الواصل ، لأن القلب إن شطح فالشيخ يعرف شطحه بفراسته " اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله".

وقد قالوا : إذ خالطت أهل الشريعة فأمسك عليك لسانك ، وإن خالطت أهل الحقيقة فأمسك عليك قلبك.

ولذلك حث السادة الصوفية على ضرورة حفظ القلب مع السالكين خوف اتصال النظر بطريق استدلال الأرواح بنور الفراسة لخواطر القلوب فيحصل تغيير في التقابل فتتغير القلوب ويتكدر صفوها ، والله تعالى مع المتقين . فقد قال سبحانه:

{إِنَّ اللّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّ الَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ(128)}[النحل]، وفي الحديث القدسي:" أنا مع المنكسرة قلوبهم من أجلي" وفي الحديث الشريف :" اتقوا فراسة المؤمن فإنه يرى بنور الله".

" التوســــــــــل "

مقدمة:

(أ) لقد أنكر الظاهرية :الوسيلة والتوسل والاستغاثة والشفاعة مع أن كل ذلك ثابت بالكتاب والسنة وعمل السلف الصالح ومن خَلَفهم من العارفين بالله من العترة المطهرة الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا ، والذين أمرنا الرسول صلى الله عليه وسلم أن نحبهم وأن نقتدي بهم ، لأنهم خاصة الأمة والذين توارثوا من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم ومن صفاته ، فهم عاملون بالقرآن الكريم ، حيث تنبع أخلاقهم من هديه وهدي جدهم خير الأنام صلى الله عليه وسلم ، الذي كان خلقه القرآن.

ولما كانت هناك فجوة دائما بين النظر والتطبيق ، فقد أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نعرف بأن حلقة الشبك التي تربط بينهما هي : ملازمة آل البيت والتلقي عنهم ، ليسهل التخلق بأخلاق القرآن الكريم ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" إني تركت فيكم الثقلين كتاب الله وعترتي آل بيتي وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما" فهؤلاء العترة المطهرة قد وضع فيهم رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم ثقته في أمر تشريعي وهو لا ينطق إلا بوحي من ربه ، وهؤلاء قد أجاز الخليفة العادل سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه : التوسل بهم – حينما توسل بالعباس رضي الله عنه – والتوسل بهم في حضورهم وسماعهم دليل على الجواز.

فكيف ينكر الظاهرية ومن لف لفهم ذلك الأمر المفيد للأمة ؟!!

(ب) إن الذي غَرَسَ غَرْسَ التوحيد في حقل قلوب الأمة الإسلامية غارس ماهر: وهو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم صاحب الرسالة الشاملة الخالدة.

وليس هو سينا موسى بن عمران صاحب الغرس المؤقت الموسمي وهو فترة وجوده في وسط من أرسل إليهم ، فإذا اختفى عنهم بموت أو غياب مؤقت خرج الغرس من القلوب وتوقف

سريان التوحيد ، كما حدث لجميع المرسلين السابقين للإسلام ، ومنهم سيدنا موسى بن عمران ، الذي ما إن غاب عن بني إسرائيل أربعين يوما إلا وجاء فوجدهم قد عبدوا العجل من دون الله.

إن دعوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم باقية إلى يوم القيامة، ولذلك فإن غرس التوحيد فيها فطري إلى أن تقوم الساعة لأن دعوته باقية إلى قيام الساعة.

وهذه العقيدة الفطرية مركوزة في وجدان الأجنة التي تتخلق بعد بعثته حتى يرث الله الأرض ومن عليها ، بل ومنقوشة في الأرواح التي لم تخلق ومركوزة في وجدان الأمة جمعاء.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" ما من مولود إلا وهو يولد على الفطرة – أي فطرة الإسلام – فأبواه يهودانه ، أو ينصرانه ، أو يمجسانه ، ثم تلا – عليه السلام – قوله تعالى :**{...فِطْرَتَ اللهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ(30)}[الروم]** وربما يسأل البعض ويقول : ما ذنبهم : أن تُغَيَّر فطرتهم على الإسلام بيهودية أو نصرانية أو مجوسية؟!! وإجابة ذلك : أن التأثير على الأبناء الذي يكون قبل البلوغ فإنه يعذر به الأبناء ، أما بعد البلوغ فلا يعذرون ، لأن العقل مناط التكليف ، ولأن سن البلوغ يعقبه تغيير شامل في طبيعة الإنسان الفكرية فيرفض أن يقلد غيره ، ويفسح المجال لعقله للتفكير في كل شيء ، فلماذا في أمر الدين يقبل التقليد ويرفض فيما دون ذلك بل يُعْمِلُ عقله الخاص ويرفض أي شيء إلا إذ اقتنع به ، وهذا ما أنكره عليهم القرآن الكريم ورفض احتجاجهم به ، حيث يقول الله تعالى عنهم:**{... إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ(23)}[الزخرف]** فيرد الحق سبحانه عليهم بقوله :**{ قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ(54)}[الأنبياء]**أي أتتبعون آباءكم حتى ولو كانوا بعيدين عن الحق تائهين عنه واضحا منهم الكفر ؟!! من المعلوم ضرورة فطرية أن ارتباط الأسباب بالمسببات هو ما ينبني عليه الكون.

وأن الفطرة التي أوجد الله تعالى عليها الخليقة من بعد البعثة المحمدية إلى يوم القيامة هي: فطرة التوحيد بأن المؤثر في الكون إله واحد ، وما على الرسل إلا بلورة هذا المعتقد الفطري وتوجيهه

ونماؤه أن المؤثر والنافع والضار في الكون هو خالقه وموجده تبارك الله رب العالمين . فلا تأثير لغير الله تعالى ، ولا نافع ولا ضار ولا محرك ولا مسكّن إلا الله سبحانه ، فأمره جل شأنه بين الكاف والنون ، وما حركة الخلق على الأرض إلا أسباب فقط ليعمر كون الله من خلالها وفق الناموس الذي أعده الله لمخلوقاته.

فعقيدة التوحيد ترن أصداؤها في قلب المسلم أيا كانت درجة إيمانه وإسلامه ، فإذا انتحى نحو وسيلة أو شفاعة ، فإنما ليأخذ – فقط – بالسبب الكوني مع كمال عقيدته في ربه ، فقد قال صلى الله عليه وسلم :" إن للخير مفاتيح وللشر مغاليق فطوبى لعبد جعله الله مفتاحا للخير مغلاقا للشر".

فقضية الرزق مثلا : يوضحها القرآن في كونها في السماء مع تأكيد البيان القرآني بالقسم في ذلك ، يقول الله تعالى **:{ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ(22) فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ(23)}[الذاريات].**

ويأتي القرآن ليأمر الناس بالضرب في جنبات الأرض ليحصلوا على رزقهم، إذًا الرزق في الأرض . فلابد من الجمع بين النصين والتناسق بينهما ، لأن بيان الله تعالى قطعي الثبوت والدلالة، وذلك بأن يفهم **النص الأول**: على أن الرزق في السماء أي مسجل في اللوح المحفوظ كتابة ووعدا وتسجيلا فقط.

والنص الثاني : على أن الرزق في الأرض حركة وسعيا وطلبا لتحصيله .
إذًا لابد من ارتباط الأسباب بمسبباتها.

فقضية الهداية وإجابة الدعاء لنيل المأمول لابد لها من أسباب ، وقد تتعدد هذه الأسباب التي أظهرها الآن " الوسيلة والتوسل والشفاعة والاستغاثة" في عصر كثرت فيه المعاصي ولم يبال الإنسان في كسبه أمن حلال أم من حرام ، فالدعاء متوقفة إجابته على التقوى ظاهرا وباطنا ،

وهـذا لا يـتم عـادة إلا للصـديقين مـن أوليـاء الله وعارفيـه :**{ الَّـذِينَ آمَنُـوا وَكَـانُوا يَتَّقُونَ(63)}[يونس]**،**{...إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ(27)}[المائدة]** ولقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى محل التقوى فأشار بأصبعه الشريف إلى صدره الشريف وقال :" التقوى هاهنا التقوى هاهنا ".

<u>فما معنى الوسيلة والتوسل وما الحكم؟</u>

الوسيلة – كما يقول شيخنا ولي الله سيدي الشيخ أحمد أبو خليل رضي الله عنه [1] :

الواسطة العظمى التي يتقرب بها إلى المقصود ، وكل مؤمن تقي مأمور من الله بابتغائها ، قال الله تعالى :**{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ...(35)}[المائدة].**

وقيل : التوسل هو : التوجه إلى الله في الدعاء بجاه النبي أو عبد صالح ، مثل قولك :" اللهم بجاه نبيك صلى الله عليه وسلم اغفر ذنبي واستر لي عيبي".

والتوسل جائز – على رأي جمهور علماء السلف ، بل إنه مستحب بالأنبياء والأولياء والصالحين ، سواء أكانوا أحياء أم أمواتا والأدلة الثابتة كثيرة وسوف نذكر طرفا منها إن شاء الله.

وقال ابن حجر الهيتمي : التوسل والاستغاثة والتشفع ، والتوجه به صلى الله عليه وسلم جائز به وبغيره من الأنبياء والأولياء.

ولفضل الوسيلة وعظم منزلتها فقد جمع الأنبياء عليهم السلام بينها في عبادتهم وبين الدعاء ، قال الله جل وعلا :**{أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إلى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ...(57)}[الإسراء].**

---

[1] كتاب طريق الله جـ2،ص4.

وفي ذكر الوسيلة عقب الدعاء ، الذي هو أكبر مظاهر الخشوع : إشارة جلية ، وحكمة علية ، لا يلقاها إلا ذو قلب سليم وحظ عظيم ، ومع ذلك فالوسيلة موضوع نزاع متواصل بين المجيزين والمانعين ، والمفروض في المسلم أن يستقبل هدى الله في وحيه كتابا وسنة بالتسليم التام ، وخاصة إذا وضحه أهل الذكر ،**{ ... فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِكْرِ إن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ(7)}[الأنبياء]**، ولا يجوز أن يشارك في فتن هوجاء وأن يعمد إلى رأي ضعيف ينادي به مخالفا رأي الجمهور وأهل العدالة والورع الذين هم الهداة الحقيقيون للأمة ، فالفتنة نائمة لعن الله من أيقظها ، فلا تعدو هذه الوسيلة والاستغاثة والشفاعة إلا أن تكون أسباب من الأسباب العادية التي طالبنا بها الشرع الشريف ، ليتحقق المطلوب الشرعي ، وإلا لما فعلها سيدنا عمر بن الخطاب حين استسقى بالعباس عن النبي صلى الله عليه وسلم كما سيأتي ذلك ، وكما نصح النبي صلى الله عليه وسلم الأعمى بها لقضاء حاجته التي هي رد بصره ، وذلك في حديث عثمان بن حنيف.

وذلك مع كمال الاعتقاد بأن الخالق للأشياء والنافع والضار هو الله وحده وهذه من بداهة الأمور لا تحتاج إلى فلسفات ولا نصائح ولا خوف على العقائد فهي مركوزة في جبلة الإنسان ، منقوشة نقشا معنويا في فطرته أنه لا تأثير في الكون كله إلا تأثير الله وحده، وما عدا ذلك فهي أسباب طبيعية فلا يوجد في اتخاذ الأسباب خطأ ولا كفر وإلا لحكمنا بالشرك على الساعي على رزقه ، والذي يبحث عن طبيب لعلاج مرضه ، والذي يكافح أعداء الأمة.. وهلم جرا ، لأننا إذا أبطلنا الأسباب فقد عطلنا الكون كله وذلك مالا يقول به عاقل.

إن القضايا العقدية لا يجوز أن تعالج بهوى النفس والإصرار على اللَّغَط وإثبات الذات والتلقي عمن لا باع له في معرفة أحكام الله تعالى ومعرفة أسرار التشريع ، بل يأخذ بظاهر اللفظ ويطيح في الناس متوعدا منذرا لهم بالكفر والشرك والقبورية دون روية وتعقل ورجوع إلى الحق الذي أمر الله تعالى به حينما يدب الخلاف في قضية شرعية ، امتثالا لقول الله سبحانه **:{... فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إلى اللهِ وَالرَّسُولِ إن كُنتُم تُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ**

الآخِرِ...(59)}[النساء] وفي التقييد بـ " إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر " : حث على أن يكون سر البحث عن حقيقة الحكم ليس غرضا دنيويا ولا مجدا شخصيا ولا جدلا من أجل الجدل ولا رياء وتظاهرا وحب السمعة الكاذبة ، ولا تكبرا وحملا للناس على رأي يعرف صاحبه أن ضعفه في طوياته ولكنها المكابرة والعناد الأجوف وعدم خوف من الله تعالى وإيثار للدنيا على الآخرة ، فمن لم يقبل الحق الذي وضحه الله ورسوله صلى الله عليه وسلم واستمرأ الجدل والعناد ، فإن القرآن يحذره من عاقبة وخيمة ألا وهي موته على غير الإسلام ، وهذا هو السر في أن أصحاب هذه الآراء يحكمون على مخالفيهم بالشرك والكفر ، وفي الواقع هذا – كما في علم النفس – إسقاط – حيث يسقط حالته الداخلية على غيره ، وهذا من لطف الله تعالى به ليعرف جوانبه الذي لا يراه ، ولكن الله سبحانه يُعَرفهُ ويُحَذِّره مغبته ، فليراجع كل من كَفَّر المسلمين نفسه وليهرع إلى حكم ربه وسره في تشريعه قبل فوات الأوان.

قضـــــية التوســـــــــــــل

فبالنسبة إلى قضية "التوسل" إذا رجعنا لعرضها على الكتاب العزيز لوجدنا الآتي:

إن الله تعالى قد ذكر " الوسيلة " مطلقة في آيتين اثنتين وهما :**{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ ... (35)}[المائدة]، {أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ ... (57)}[الإسراء]** .ويقول سيدي الشيخ أحمد أبو خليل رضي الله عنه : ولقد رجعنا إلى الكتاب العزيز فألفيناه ذكر الوسيلة مطلقة في الآيتين السابقتين ، ولم نجد إلى علم تعيينها فيه سبيلا ، فأَمْعَنَّا النظر في السنة ، ليتبين لنا ما اختلفنا فيه مما نزل إلينا ، فوجدنا الوسيلة قد تكفلت بها السنة، وبينتها خير بيان ، وقررت اتساع دائرتها ، فلقد أطلقت السنة " الوسيلة " على : كل

محبوب لله من : اسم أو صفة أو فعل أو عمل صالح أو نبي أو ولي حي أو ميت ، فانجلى لنا أن ثبوت الوسيلة أمر قطعي لا ينكره إلا من زاغ قلبه ، وآثر دنياه على أخراه ، فعميت بصيرته فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور.

فقد أخرج الترمذي وصححه والنسائي والطبراني بأسانيد صحيحة اعترف بها الحفاظ عن عثمان بن حنيف رضي الله عنه أن رجلا ضريرا أتى النبي صلى الله عليه وسلم وهم جلوس معه فشكا إليه ذهاب بصره فأمره بالصبر ، فقال : ليس لي قائد وقد شق على فقد بصري ، فأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يتوضأ فيحسن الوضوء ويصلي ركعتين ، ويدعو بهذا الدعاء :" اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضي لي اللهم شفعه في"، وفي رواية" وإن كان لك حاجة فمثل ذلك".

قال عثمان بن حنيف : فو الله ما تفرق بنا المجلس حتى دخل علينا بصيرا .

فهذا الحديث يثبت جواز التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم أثناء وجوده بالرواية الأولى ، وبعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى بالرواية الثانية :" إن كان لك ... إلخ ".

عمل الصحابة بذلك الحديث وثمرة هذا العمل:

روى الطبراني والبيهقي والترمذي بسند صحيح عن عثمان بن حنيف : أن رجلا كان يختلف إلى عثمان بن عفان في زمن خلافته وذلك في حاجة له ، فكان لا يلتفت إليه ، فرجا الرجل عثمان بن حنيف أن يكلمه في شأنه ، فعلمه دعاء التوسل السابق : فتوضأ الرجل وصلى ثم دعا كما علمه ، ثم جاء الرجل إلى باب الخليفة عثمان بن عفان بعد ذلك ، فأخذه الخادم وأدخله عليه وأجلسه بجانب الخليفة على الطنفسة ثم قضى حاجته ، وقال له : إذا عرضت لك حاجة فأتنا ، فلما قابل الرجل عثمان بن حنيف ، قال له : جزاك الله خيرا ما كان ينظر في حاجتي قبل ذلك.

فقال له والله ما كلمته . ولكني كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فدخل عليه رجل أعمى وذكر حديث الضرير الذي علمه إياه.

ولذلك فقد كان السلف رضي الله عنهم يفعلون ذلك إذا أرادوا قضاء مهمة ، أو نزلت بساحتهم ملمة فكان الله تعالى يقضي حاجاتهم ويفرج كرباتهم ببركة حبيبه ومجتباه صلى الله عليه وسلم .

حرمة الرسول صلى الله عليه وسلم ميتا كحرمته حيا :

لقد ورد في كتاب الشفا في أحوال المصطفى :

أن أبا جعفر المنصور العباسي قد ناظر الإمام مالك في مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال له مالك : يا أمير المؤمنين لا ترفع صوتك في هذا المسجد ، فإن الله تعالى قد أدب قوما فقال :**{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ (2)}[الحجرات].**

ومدح قوما فقال:**{ إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَاتَهُمْ عِندَ رَسُولِ اللهِ أُوْلَئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (3)}[الحجرات].**

وذم قوما فقال :**{ إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (4)}[الحجرات].**

وإن حرمته ميتا كحرمته حيا ، فاستكان لذلك أبو جعفر.

ولا غرابة ، فقد ورد أنه صلى الله عليه وسلم في قبره حي يسمع من يسلم عليه ويرد عليه السلام ، وتعرض عليه أعمالنا دائما بما يثبت أن تلك حياة مستمرة ، إذ أَنَّهُ من المستحيل أن يخلو الوجود كله من واحد يسلم عليه في أية لحظة من ليل أو نهار.

معنى موت الرسول صلى الله عليه وسلم:

إن معنى موته عليه الصلاة والسلام : أن روحه الشريفة قد فارقت دار التكليف وصارت في عالم آخر لا تسري عليه أحكام هذا العالم ونظمه.

قال صلى الله عليه وسلم :" حياتي خير لكم تحدثون ويحدث لكم ، وفي رواية : تحدثوني وأحدثكم – فإذا متّ كانت وفاتي خيرًا لكم تعرض عليَّ أعمالكم فإن وجدت خيرا حمدت الله وإن كانت شرا استغفرت الله لكم " هذا الحديث أخرجه البزار عن عبد الله بم مسعود ، ونصَّ مَّلا على القاري" على أن إسناده صحيح، وهذا الحديث متواترا تواترا معنويا لورود معناه في حديث جماعة من الصحابة يبلغ عددهم حد التواتر وهم : عبد الله بن مسعود ، ولحديثه طرق تزيد على الخمسة ، وأنس بن مالك ، ولحديثه طرق تزيد على الستة ، وأبو هريرة ، ولحديثه طرق تزيد على العشرة ، وعمار بن ياسر وأبو أمامة وعلي بن أبي طالب وابنه الحسن وابن عباس وأبو بكر الصديق وأوس بن أوس الثقفي وأبو الدرداء وأبو مسعود البدري الأنصاري وعمر بن الخطاب وابنه عبد الله بن عمر.

وروى هذا الحديث مرسلا عن جماعة من التابعين منهم أبو بكر بن عبد الله المزني والحسن البصري وخالد بن معدان وابن شهاب الزهري ويزيد الرقاش وأيوب السختياني – وهناك كثير من الصحابة والتابعين ولكنا نكتفي بهذا القدر من التواتر ، وخصوصا على رأي من يكتب التواتر بسبعة أو عشرة ، وهو الذي رجحه الحافظ السيوطي في ألفيته حيث قال:

وما رواه عدد جم يجب * استحالة اجتماعهم على الكذب**

فمتواتر وقوة حَـــددُّوا * بعشرة وهو لدىَّ أجـــــود**

وبذلك قد ثبت أن حديث فرض الأعمال هذا متواتر على جميع الاصطلاحات ، لوجود ما يزيد على العشرين في كل طبقة من طبقات رواته.

وأهمية هذا الحديث أنه عمدة في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم وعرض الأعمال عليه وذلك يثبت وجاهته عند ربه ووجاهة آل بيته والصالحين وسماعهم للمتوسل والداعي وتأمينهم على الدعاء، ففي صحيح البخاري أن سيدنا أبا بكر رضي الله عنه قال :" ارقبوا محمد في آل بيته".

وأحاديث التوسل بالمصطفى صلى الله عليه وسلم في حياته وبعد مماته كثيرة جدا ودلالة حياته البرزخية وسماعه سلام المصلين المسلمين عليه واضحة كل الوضوح من الكتاب والسنة:

فمن القرآن يقول الله تعالى آمرا بالصلاة والسلام عليه – والأمر باقٍ إلى يوم القيامة - : **{ إِنَّ اللهَ وَمَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِي يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا (56)} [الأحزاب] .** ومعلوم أن السلام لا يكون إلا على حيّ ليرد عليه السلام سواء أكان في عالم التكليف أم في عالم التشريف.

وهذا ما دعا الصحابة أن يقولوا كما في الصحيح : يا رسول الله ، عرفنا كيف نصلي عليك فكيف نسلم عليك وقد أرمت – يعني عرفنا معنى الصلاة عليك بأنها الرحمة ، والرحمة تجوز للحي والميت، فما معنى السلام عليك بعد الموت وربما لحقتك أسباب البلى والفناء فقال صلى الله عليه وسلم : "إن الله حرم على الأرض أجساد الأنبياء".

<u>دحض فرية أن من مات فقد انتهى:</u>

إن هؤلاء الأفاقين الذين ينكرون الوسيلة يقولون : إن من مات فقد انتهى وأن الرسول محمدا قد أدى رسالته وانتهى كما أداها موسى وغيره !!

ونقول : إن رسالة الإسلام خالدة لا تنتهي كرسالة الرسل السابقين ، لأن الله تعالى يقول:**{ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللهِ...(7)}[الحجرات]** فحب النبي صلى الله عليه وسلم وهديه الشريف وشرعه في قلوبنا حتى نلقى الله جيلا بعد جيل – وقد ثبت أن الموت في حقيقته ليس فناءً ، وإنما هو انتقال من دار الفناء إلى دار البقاء – وهذه القضية لجميع المؤمنين من رسل وغيرهم ، بل وللكفار ، كما حدث من مخاطبة الرسول صلى الله عليه وسلم لقتلى بدر من المشركين ، حينما وقف على حافة البئر ،ونادى كل واحد منهم باسمه فقال عمر : يا رسول الله أتكلم الجيف البالية والعظام المكسرة ؟ فقال صلى الله عليه وسلم :" ما أنتم بأسمع لي منهم ولكنهم لا يتكلمون".

<u>التوسل بغير النبي صلى الله عليه وسلم:</u>

مما لا شك فيه بعد ما اتضح من جواز التوسل أصلا ، أنه طالما فتح الباب وذهب الغيم الفكري المفتعل فإنه يجوز التوسل بغير النبي صلى الله عليه وسلم ، وذلك من وجوه :
الأول : للأحاديث الكثيرة الثابتة ، والتي ذكرنا طرفا منها.
الثاني: أن المانعين للتوسل قد أوضحوا أن العلة : خوف الإشراك بالله .

ويرد عليهم بأننا إذا أجزنا التوسل بالنبي صلى الله عليه وسلم وفقا للنصوص الصحيحة الكثيرة فإنه يجوز لنا أن نتوسل بغيره ، وذلك لأن العلة منتفية عن غيره عليه الصلاة والسلام بانتفائها عنه ، فإذا قال المانعون : إننا نجيزها وفق الأدلة للرسول صلى الله عليه وسلم فقط: قلنا لهم : لا، [بل لابد أن تجيزوها له ولغيره صلى الله عليه وسلم وذلك لأمرين:
الأول : أنكم تقولون : إن سبب منعكم : الإشراك ، والإشراك يعني الوحدانية ، أي أن الله تعالى إله واحد ورب واحد في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله.

فإذا أجزتم النبي صلى الله عليه وسلم فقط للتوسل فقد أدخلتم معه سبحانه شريكا ، لأن الله تعالى واحد أحد فرد صمد – لأنكم إذا قبلتم الأحاديث الثابتة – ولابد أن تقبلوها – إن كنتم مؤمنين حقا وأجزتم التوسل به عليه الصلاة والسلام فقط فقد انتفت العلة من أصلها وهي الإشراك الذي تقولون به، لأنه لا يوجد إله اسمه" الله " وإله آخر اسمه " محمد " فالعلة مع المعلول وجودا وعدما.
الأمر الثاني – في جواز التوسل بغير النبي صلى الله عليه وسلم : الحديث الشريف الذي رواه البخاري في صحيحه في باب الاستسقاء : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قد أتى بالعباس رضي الله عنه عم النبي صلى الله عليه وسلم ليستسقي به حينما غاب عنهم مطر السماء وها هي الصيغة التي قالها خليفة المسلمين العادل على ملأ من الصحابة والتابعين ولم ينكر عليه أحد منهم فصار إجماعا له شأنه في الاستدلال مع ضميمة الأحاديث الموجبة علينا أن نقتدي بهؤلاء الراشدين المهديين ، فقد قال صلى الله عليه وسلم :" عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين

المهديين من بعدي عضوا عليها بالنواجذ " فليس المقصود بالسنة " النوافل " وإنما هي المصدر الثاني في التشريع الإسلامي فالسنة هنا هي الطريقة التي وصلتنا عن النبي صلى الله عليه وسلم من جميع أقواله وأفعاله وتقريراته وأحواله وصفاته في جميع الأحكام . ويقول صلى الله عليه وسلم :" أصحابي كالنجوم بأيهم أقتديتم اهتديتم " فما الصيغة التي قالها ذلك الخليفة الورع الذي كان الشيطان يهاب ظله ، ويتحرى أحكام الله بكل دقة إنه قال بعد أن وقف مع العباس رضي الله عنهما وقال:

" اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا صلى الله عليه وسلم فتسقينا والآن نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا ، فنزل المطر من السماء" [1] ومن عجب أن المانعين حينما يَرَوْنَ هذا الحديث الثابت فإنهم يقرون متنازلين عن علتهم في التحريم الوهمية وهي " الإشراك " فيقولون : نعم يجوز التوسل بالحي لكن لا يجوز بالميت . وبذلك قد أوقعوا أنفسهم في الشرك ، لأنهم قد أثبتوا أن للحي تأثيرا لا يكون للميت ونحن لا نقول بذلك إطلاقا . فلا تأثير لغير الله ، وإنما التأثير كله لله وحده ، وهذا من المانعين تخبط وعدم توفيق.

وبذلك يثبت جواز التوسل بغير النبي صلى الله عليه وسلم من الصحابة والتابعين وتابعيهم من أولياء الله الصالحين.

حكمة التوسل بالعباس في الاستسقاء:

إن الخليفة العادل قد توسل بعم النبي صلى الله عليه وسلم لبيان جواز التوسل بغير النبي صلى الله عليه وسلم وهو الخليفة الملهم الذي قد وافق نزول القرآن في أربعة مواقف وهو صاحب " يا ساريةُ الجبلَ "

ولأن المتوسل به في قضية الاستسقاء يلزم أن يكون حيا واقفا أمام الناس حياة دنيوية ، أما من فارق الحياة من الأنبياء والأولياء فللبرزخ حكمه عليهم ، ومن أحكامه عليهم أنهم لا يخرجون

---

[1] هذا الحديث رواه البخاري في صحيحه في باب الاستسقاء.

منه يمشون ، أمام الناس نهارا جهارا يكون المتوسل به معهم خارج البلد ، فالواقع أنه في غير هذه الصورة يجوز الاستسقاء بالحي والميت على السواء.

عقيدتنا في التوسل:

إن مانعي التوسل فهموا المسألة خطأ ، فحكموا خطأ على المتوسلين بأسباب الرحمة والرضوان . إن معشر القائلين بجواز التوسل كما هو واضح في الشريعة الإسلامية من عمل جمهور الصحابة والعلماء من بعدهم : هؤلاء لا يقولون بأن المنح والهبات والنفحات النورانية القلبية التي تتهاطل عليهم بسبب التوسل : أن صالحي الأمة هم الذين يخلقونها ويخترعونها بذواتهم حتى يتوقف في ذلك من يتوقف وينادي بالويل والثبور ، أو يقول حينما تحاصره الأدلة أن ذلك يليق بالحي دون الميت ، ويجعلنا معه في محظور مضمونه : إسناد الخلق والاختراع إلى الإنسان الحي دون الميت وإنما الذي نقوله في أولئك الصالحين أنهم مواضع مباركة ، يفاض عليها من سماء الفضل الإلهي غيوث الرحمات والبركات وأنواع الكرامات.

وليس بعاقل من يقول: إن الحي أهل لأن تفاض عليه تلك البركات وإلا لما دعا الرسول صلى الله عليه وسلم إلى زيارته بعد أداء الحج بثوابت الأحاديث ، فكيف يجعلون للحي أهلية هطول البركات ويمنعونها عن الميت مع أن المسألة بالعكس ، لأن الميت أولى بالإحسان من الحي لشدة حاجته إليه، وذلك لانقطاع عمله الذي به تزداد درجاته عند الله ، ولذلك فهم يفرحون كثيرا بالزائرين والمتصدقين على أرواحهم والتالين كلام الله وذلك يعتبر تحية لهم من الأحياء يفرحون بها ، ولكن لا يملكون الرد على التحية:**{ وإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا...(86)}[النساء]** فالله الكريم الذي كان يتولى الصالحين في الدنيا هو الذي يتولى رد التحية بأحسن منها على من قدَّم

إليهم التحية وذلك هو سر قبول الدعاء بالتوسل بهم وشفاء الأمراض وقضاء المصالح إلى غير ذلك ، ولأن قبورهم مواطن رحمة من كثرة الزوار الذين يبادرونهم بالتحية بالفاتحة وبالسلام وبالصدقة وبالدعاء **{ نَحْنُ أَوْلِيَاؤُكُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ...(31)}[فصلت]** في الدنيا ولانا الله حفظكم وكتابة اعمالكم وفي الآخرة : سخرنا الله لنجلس على قبوركم فنستغفر الله لكم إلى يوم القيامة ، فهؤلاء الملائكة جميعا مع روح الولي : يُؤمنّون على دعاء الداعين والمتوسلين بهم إلى الله تعالى وهذا امر جائز ، ومن أراد مزيدا من الأدلة فعليه بالكتب الستة التي روت أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم فإن لم تتح له كلها فعليه بالصحيحين ومسند أحمد بن حنبل وصحيح ابن خزيمة وابن نعيم في عمل اليوم والليلة والبيهقي في كتاب الدعوات ، والطبراني – في الدعاء – وابن السني وابن ماجه.

وطريق الله في التصوف للعارف بالله الشيخ أحمد أبي خليل رضي الله عنه . وبذل الماعون لابن حجر الهيتمي ، وفتح الباري لابن حجر جـ2ص495 – والترمذي – والنسائي والحاكم وابن حجر الهيثمي في مجمع الزوائد ونحوها مما يستطيع العثور عليه.

قضايا هامة حول شبه المانعين للتوسل

أولا: قضية تكفير المتوسلين:

قال العلماء المحققون:

إن أول من كفر الموحدين هم " الخوارج " في عهد أمير المؤمنين علي كرم الله وجهه فاستباحوا دماء المسلمين وهلكوا مع الهالكين.

الخوارج قديما:

الخوارج في عصر سلفنا الصالح ، هم مرقة قد مرقوا من الدين واستباحوا دماء المسلمين ، وكفّروا من خالفهم من الموحدين ، ومن أجل ذلك : كفروا مرتكب الكبيرة، واعتبروا أن مخالفة فكرهم كبيرة من الكبائر – وكل هذا اعتنقوه – كفكر متطرف – لأمر سياسي ، وليس مقصودا به العقيدة والدين فالدافع هو : الإمامة والحكم فمن أجلها أثاروا هذه الفتن الهوجاء.

فكفروا أمير المؤمنين ومن شاءوا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وتابعيهم.

حكم السلف الصالح على الخوارج

مع أنهم قد كفروا سلفنا الصالح وعلى رأسهم باب مدينة العلم : الإمام علي كرم الله وجهه ، إلا أنه رضي الله عنه حينما سئل عن الخوارج أكفارٌ هُمْ؟ فقال: " لا،: إنهم من الكفر فروا "فقيل له: أمنافقون هم : قال: " إن المنافقين لا يذكرون الله إلا قليلا ، وهؤلاء يذكرون الله كثيرا . فقيل أي شيء هم : فقال: قوم أصابتهم فتنة فعموا وصموا"[1].

الخوارج حديثا:

الخوارج في عصرنا الحديث ، كأنهم نسخة من الأقدمين في تكفيرهم لمن لا يدين بفريتهم وافتراءاتهم بوجه عام ، والباعث على فكرهم المتطرف ذلك هو أمر سياسي وهو " الحكم " وسيل اللعاب عليه ، فمن افتراءاتهم يرمون الصالحين المتوسلين بالكفر والشرك والوثنية مع أن المتوسلين لم يمرقوا من الدين ، ولم يكفروا أحد من الموحدين ، ولم يستبيحوا دماء المسلمين ،

---

(1) شواهد الحق للنبهاني ص 239

وقد اتضح لنا أن أهل الوسيلة والاستشفاع قد بَنَواْ ذلك على أدلة نقلية ثابتة كتابا وسنة ، وعلى عمل السلف الصالح وجمهور علماء الأمة خلفا وسلفا .

والنبي صلى الله عليه وسلم يقول:" أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله ، فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله " [1].

<u>الإســــــــــــلام والإيمــــــان:</u>

معنى الإسلام هو: الانقياد والاستسلام لله وحده وإسلام الوجه له تعالى وذلك بالانقياد لأوامر الشرع الشريف.

<u>مراتب الإسلام :</u> له مرتبتان:

1- أصل الإسلام ويتحقق بشهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن سيدنا محمدا رسول الله صلى الله عليه وسلم ،تعبيرا عن وجدان قلبي.

2- كمال الإسلام : ويتحقق بإقامة أركان الإسلام الخمسة : فمع الشهادتين ، إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة وصوم رمضان وحج البيت لمن استطاع إليه سبيلا .

<u>أمور تتعلق بالمسلم:</u>

1- مسلم عند الله وعند الخلق ، وهو: من ينطق بالشهادتين ، معتقدا بها قلبه.

2- مسلم عند الله فقط وليس عند الناس وهو : من يبطن الإسلام في قلبه ولم ينطق به أمام الناس.

3- مسلم عند الناس وليس مسلما عند الله وهو : من يظهر الإسلام ويبطن الكفر .

قال الله تعالى :{ **وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ ...(125)}[النساء].**

وقال الله تعالى :{**وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلى اللهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى...(22)}[لقمان].**

---

[1] صحيح البخارى .

وقال الله سبحانه:**{ ... فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ(34)}[الحج].**

<u>الدليل على الإسلام الكامل</u> ، حديث جبريل – في صحيح البخاري – حينما سأل النبي صلى الله عليه وسلم عن الإسلام ؟ فقال :" أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله وأن تقيم الصلاة وأن تؤتي الزكاة وأن تصوم رمضان وأن تحج البيت إن استطعت إليه سبيلا".

<u>معنى الإيمان:</u>

الإيمان هو : أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله وباليوم الآخر وبالقضاء والقدر ، خيره وشره ، حلوه ومره.

<u>مراتب الإيمان</u>: له مرتبتان.

1- أصل الإيمان وهو الإيمان العَقَديّ أي التصديق القلبي بالعقائد الإيمانية الست المذكورة آنفا.

ودليله أيضا – حديث جبريل – في البخاري – حينما سأل النبي صلى الله عليه وسلم : ما الإيمان ؟ قال :" أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وأن تؤمن بالقضاء والقدر، خيره وشره ، حلوه ومره.

2- الإيمان الكامل وهو : قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان وقيل : إنه يسمي : الإيمان الحق.

وعلاماته في سورة الأنفال **:{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ(2) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (3) أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ...(4)}[الأنفال]** وهذا الإيمان هو : ما يسعى إليه الصوفية بسلوكهم طريق الله.

<u>الكـفــــر:</u>

الكفر لغة : الستر والتغطية، **وشرعا هو** : عدم الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقضاء خيره وشره، حلوه ومره.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" لا يؤمن أحدكم حتى يؤمن بأربعة أشياء:

يشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ويؤمن بالبعث بعد الموت وبالقضاء والقدر خيره وشره حلوه ومره "، إذ أنَّ الإيمان بالله عز وجل هو: التصديق الجازم من صميم القلب بوجود ذاته تعالى الذي لم يسبق بضد ، ولم يعقب به ، هو الأول فليس قبله شيء والآخر فليس بعده شيء ، والظاهر فليس فوقه شيء ، والباطن فليس دونه شيء ، حي قيوم أحد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد، فهو سبحانه واحد في ذاته وفي صفاته وفي أفعاله.

حكم من كفر مسلما:

إن من رمى إنسانا بالكفر ، فقد باء به : إن لم يكن كذلك ، فلا يجوز أن يكفَّر المسلم بذنب قد ارتكبه مهما كان هذا الذنب ، لأننا كلنا مذنبون ، والذي يحكم على الناس بالكفر هو مذنب آخر ، فليس من المعقول أن تكفر الأمة كلها – بعد انتقاله صلى الله عليه وسلم بسبب معاصٍ أو خطايا فقد أمر الله تعالى العصاة بالتوبة مع وصف الإيمان لهم فالتوبة عادةً لا تكون إلا من معصية ، قال الله تعالى :

{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إلى اللهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا...(8)}[التحريم].

والتوبة لا تكون إلا من معصية، ولكن الحق سبحانه ناداهم بوصف الإيمان ، وقال أيضا : **{...وَتُوبُوا إلى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(31)}[النور]** بأحسن وصفهم وهو الإيمان أي التوحيد . ولأجل أن تباشر الرحمة عملها في دنيا الناس فإن الله تعالى سيمنحك الفلاح والنجاح قال الله تعالى :**{ ... وَتُوبُوا إلى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ(31)}[النور].**

فالخطر كل الخطر على إيمان وإسلام من رمى إنسانا بكفر فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم معالجا تلك الظاهرة :" أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله ".

فكل من نطق بالشهادتين ولم يظهر منه ما يناقضهما : لا يجوز تكفيره مطلقا ، وإلا عاد الكفر على من كفره، فالله سبحانه يقول:**{ وَإِذَا جَاءُوكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَقَد دَّخَلُوا بِالْكُفْرِ وَهُمْ قَدْ خَرَجُوا بِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا كَانُوا يَكْتُمُونَ(61)}[المائدة].**

فإن هذه الآية تبين أن من دخل على جماعة مؤمنة ورماهم بالكفر وهم ليسوا كما رماهم ، فقد حمل هو وزر هذا الكفر وخرج به.

ويقول الرسول صلى الله عليه وسلم :" من كفر مسلما فقد كفر" وفي رواية : فقد باء به أحدهما".

أنواع الكفر:

المفروض أن يطلق الكفر على من لم يؤمن بالله أو لم يؤمن بالملائكة أو لم يؤمن بالكتب المنزلة من عند الله تعالى أو لم يؤمن برسل الله ، أو لم يؤمن باليوم الآخر ، أو لم يؤمن بالقدر خيره وشره حلوه ومره ، لأن هذه الأشياء هي مناقضات ما يجب الإيمان به . وكذلك من أحلَّ حراما متفقا على تحريمه ، أو حرم حلالا متفقا على حلّيته . أو قال قولا مكفرا ، أو فعل فعلا مكفرا والعياذ بالله تعالى ، وكذلك يكفر من أنكر أمرا معلوما من الدين بالضرورة كفرضية الصلاة أو الصوم ...إلخ.

فذلك ما ندين لله تعالى به في هذه القضية الخطيرة التي أصبحت كلأ مباحا لكل من هب ودب ، وقد رأينا ورع الإمام علي كرم الله وجهه في أن يطلق لفظة الكفر على الخوارج الذين يكفرونه هو وكثير من الصحابة والتابعين العدول ، ويستبيحون دماءهم ، وقد حدث فعلا بعد ذلك حينما

قتله عبد الرحمن بن ملجم الخارجي ، لكن الإمام علي رضي الله عنه قد خرجت روحه الشريفة على عقيدة إيمانية راسخة ، وابن ملجم هلك على عقيدة زائغة والفصل في يوم العرض على الله .

ومن عجب أن بعض العلماء قد خالفوا رأي السلف في مفهوم " **الكفر**" وبذلك فتحوا الباب أمام خوارج العصر الحديث ، فكفروا خواص الأمة وعدولها من أولياء وعلماء عاملين ممن لا يدين بزيفهم ، ولاسيما في قضية التوسل والاستغاثة بالموتى وزيارة القبور المضروبة على الصالحين وبالأخص القبر الشريف لسيد المرسلين صلى الله عليه وسلم والاستشفاع به والصلاة في تلك المساجد ، وشد الرحال إليها وقراءة القرآن والدعاء عند الموتى وغير ذلك من مطاعنهم . وقبل الردود على هذه الافتراءات التي جعلوها أساس دعوتهم في كل زمان ومكان ، بل كأنها الإسلام كله!! فإننا لن نتعرض لموضوع التقسيم اللفظي لكلمة " **الكفر**".

لقد اتضح الحكم الشرعي في مسألة الكفر إطلاقا وحكما وخصوصا عند باب مدينة العلم الإمام علي كرم الله وجهه ولكن بعض العلماء قد فتحوا بابا للكفر في إطلاقه وتقسيمه مما جعل كثيرا من أهل الزيغ والأهواء أن يتساهلوا في إطلاق الكفر على كل من خالفهم ، وذلك كالآتي:
يرى ابن القيم ، كما في – كتاب الصلاة فيقول :" الأصل الرابع "أن الكفر نوعان : كفر عمل ، وكفر جحود وعناد.

<u>فكفر الجحود والعناد</u> هو :
أن يكفر بما علم أن الرسول صلى الله عليه وآله وسلم قد جاء به من عند الله – جحودا وعنادا – من : أسماء الرب وصفاته وأفعاله وأحكامه التي أصلها توحيده وعبادته وحده لا شريك له وهذا مضاد للإيمان من كل وجه.

<u>وأما كفر العمل فمنه:</u>

" ما يضاد الإيمان كالسجود للصنم والاستهانة بالمصحف وقتل النبي وسبه".

ثم يقول ابن القيم – في تساهل عجيب وتعميم – لا يجوز لمثله من أهل الباع علما وفقها ، إن لم يكن ذلك عليه حيث قال :" وأما الحكم بغير ما أنزل الله وترك الصلاة فهذا كفر اعتقادا".

والمعروف أن ترك الصلاة فيه تفصيل ، فقد يكون متكاسلا مع اعتقاد وجوبها فلا يخرج عن الملة وكذلك الحال في الحكم بغير ما أنزل الله ، فقد يكون متكاسلا أو القرار العام ليس بيده ، وليس متخصصا في فقه العقيدة ، فلا يجوز تكفيره ، لأنه لا يوجد مسلم إلا وهو يريد تحكيم شرع الله ، لأن من آمن برسالة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فإنه قد اعتقد أن أحكامها أساس السعادة وينبغي العمل بها ولا يمكن أن يعتقد مسلم أن القانون الوضعي خير من أحكام الشريعة فلماذا يساء الظن بالمسلم ، ويكثر الشقاق والخلاف والتكفير ويغيب عن العقل البواعث التي قد أدت إلى هذه أو تلك؟

<u>الشـــرك:</u>

هو: اعتقاد أن غير الله قد ينفع أو يضر بنفسه ، وأن له تأثيرا خاصا في الموجودات مع تأثير الله ، وملاحظة القلب لغير الله أثناء العبادة فتُحَسَّنُ لأجل إرضائهم وأخذهم فكرة جيدة عنه ، أو التظاهر بالصلاح أمام الناس بغية الثناء عليه.

<u>أنواع الشرك:</u>

1- شرك ينقل عن الملة وهو الشرك الأكبر.

2- شرك لا ينقل عن الملة وهو الشرك الأصغر ، كشرك الرياء ، قال الله تعالى في الشرك الأكبر:**{... إِنَّهُ مَن يَشْرِكْ بِاللهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ(72)}[المائدة].**

وقال سبحانه :**{... وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ(31)}[الحج].**

وهذا الشرك الأكبر غير موجود الآن في هذه الأمة ، سواء أكانوا مطيعين أم عصاة مذنبين ، وليس من المعقول أن آحاد الأمة يفهم دين الناس ومِلَّتهم أكثر من النبي صلى الله عليه وسلم الذي أتى بهذا الدين ، ولا يصح في أي ذهن أن هؤلاء من خوارج العصر الحديث يغارون على الدين أكثر ممن بعث بهذا الدين ، وكان لا يألو جُهْداً في تبليغه ونُصْرته ، ومع ذلك فهو صلى الله عليه وسلم يُطَمِئنُ هذه الأمة أن عقيدة التوحيد مازالت في سويداء قلب مسلمي هذه الأمة ماثلة إلى يوم القيامة.

نعم إن هذا النوع من الشرك لا يوجد في امة فُطِرَتْ على الإسلام، ولذلك فصاحب هذه الرسالة المحمدية مطمئن على أمته من ناحية الشرك الأكبر ولكنه صلى الله عليه وسلم يخاف على أمته من التنافس على الدنيا من منصب وكرسي وجاه ومال وكل ما يندرج تحت هذه الحياة الدنيا من أمور.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري في صحيحه في باب " الفتن والملاحم": " والذي نفسي بيده إني لا أخاف عليكم أن تشركوا بعدي بالله شيئا ولكن أخوف ما أخاف عليكم أن تبسط عليكم الدنيا فتتنافسوها كما تنافسها من كان قبلكم فتهلككم كما أهلكتهم".

وكيف يكون في الأمة الإسلامية " شرك أكبر " والله تعالى يخاطبها خطاب التكليف في القرآن الكريم بوصف " الإيمان " فيقول الله سبحانه:**{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ...(59)}[النساء]** ، ويقول :**{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا...(77)}[الحج]** ، **{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ...(102)}[آل عمران]** وهكذا : كل خطاب من الله سبحانه لهذه الأمة في الآيات المدنية وسورها ، فإن الخطاب يكون بوصف " الإيمان " أي التوحيد فإذا ما قال الله سبحانه **{ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا }** فكأنه قال : (يا أيها الموحدون).

فالتوحيد :

سمة لازمة لوجدان هذه الأمة التي يطلق عليها أمة التوحيد دون سواها من الأمم التي ما إن يغيب عنها رسولها أو يموت إلا وتختفي معه عقيدة التوحيد ، لأن غرس التوحيد لديها غرس مؤقت بوجود رسولها في وسطها ، ولكن عقيدة التوحيد الإسلامية ثابتة في الوجدان لدى الأجيال المتلاحقة ، وفي الفطر التي لم تُخَلَّقْ إلى يوم القيامة ، فهي خالدة أبد الدهر بخلود رسالتها التي ختمت بها الرسالات ، ورسولها قد ختم الله به دائرة الرسل فليس رسولا أتى ليلحقه آخر (ولكن رسول وخاتم النبيين).

فرسولنا سيدنا "محمد " صلى الله عليه وسلم ، ليس محدد المهمة مكانا وزمانا وأناسا ، كسيدنا "موسى " مثلا الذي غاب عن بني إسرائيل أربعين يوما فلما رجع إليهم وجدهم قد عبدوا العجل من دون الله.

نداء إلى الذين يحكمون على خواص الأمة بالشرك:

إننا نهيب بالذين يحكمون بالشرك الأكبر على محبي الأولياء والأصفياء والمتوسلين بهم إلى الله وزوار قبور الصالحين ألا يجازفوا بدينهم ، وألا يأخذوا بظواهر آيات قرآنية قد نزلت في مشركي قريش ، وأن يُحسنوا الظن بأهل الملة وبخاصة العلماء العاملين والعارفين بالله ، وأن يقرأوا النصوص الكريمة بروية وصدق نية في التلاقي مع مراد الله تعالى ، دون عصبية ولا تحجر مذهبي ، وألا يسوقوا ألفاظ الكفرية والشركية والوثنية جزافا تجاه أقوام حينما يدعون يستجيب الله دعاءهم "دائما" وإذا أملوا حقق الله رجاءهم وإذا قرأوا فاتحة على مريض كثيرا ما يشفيه الله عاجلا أو آجلا وإذا ذهب إليهم عاص دعوا الله بهدايته فيهديه الله ويصير من عباد الرحمن ، فهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن الله تعالى راض عنهم ، لأنه سبحانه يؤيدهم دائما بفضله وبرحمته ، ومن ذلك التأييد بالكرامات الحسية والمعنوية التي يمكن لمخلوق أن تتأتى منه . إلا أن تكون عناية من الله تعالى مع أحبابه.

إن الأمر جِدٌّ خطير وأمتنا الآن في منعطف تاريخي هام " إما أن تكون وإما ألا تكون" مادة ومعنى وقد انزلق الكثيرون إلى معصية الله تعالى.

فالأوبة الأوبة إلى الله يا عباد الله ، وكفى تمزيقا لهذه الأمة ، ومحاربةً للدين باسم الدين ، فالنبي صلى الله عليه وسلم أكد بالقسم أنه لا يوجد شرك في هذه الأمة إلى أن تقوم الساعة فغارس التوحيد فيها غارس ماهر هو سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وقد أمده ربه بمقومات الخلود لرسالته ، فلا تحرقوا هديه وحبه وحب أحفاده الذي وضعه في وجدان الأمة **{ وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ...(7)}[الحجرات].**

ولا تقبلوا على أنفسكم ظهر المجن بتكفيركم وتشريككم للمسلمين الصادقين فينكفئ الكفر والشرك عليكم ، وضعوا نصب أعينكم دائما قول الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم :" من كفر مسلما فقد كفر " وفي رواية " فقد باء بها أحدهما ". وإني أود من كل قلبي الذي يتسع لكل من يريد أن يفر إلى ربه : ألا تكونوا من قوم عناهم النبي صلى الله عليه وسلم بقوله:" بادروا بالأعمال الصالحة فستكون فتن كقطع الليل المظلم يصبح الرجل مؤمنا ويمسي كافرا ويمسي كافرا ويمسي مؤمنا ويصبح كافرا يبيع دينه بعرض من الدنيا".

فإن هذا الحديث الشريف يحذر وينذر من يكفر المسلمين في صباحه أو ممساه بانكفاء الكفر عليه هو ، مهما كان يعد نفسه في عداد المؤمنين ، فإياكم والتلاعب بألفاظ الكفرية أو اعتقادها في مسلم موحد ، وألا يكون الباعث الحطام الفاني ، والذي يثبت أن هذا ما يعنيه الحديث هو إعلان عدم خوف الرسول صلى الله عليه وسلم على أمته من الشرك الأكبر لأنها أمة التوحيد والرسالة الخالدة ، ولكن خوف الرسول صلى الله عليه وسلم لا يتأتى إلا حينما تتطور حياتها ، وتتسع أرزاقها ، ويسيطر حب الدنيا وبريقها على القلوب ، ويتفاخر الناس على بعضهم البعض ، وتنتشر الأنانية والطمع والجشع ، فيتنافسون على المناصب والجاه والسلطان وأدوات الحياة الرغدة ، فينضب معين الدين في القلوب حينما تقسو وتظلم وتسود ، فينتشر الهرج والمرج ، وتكثر الفتن والمظالم، ويسوء حال الأمة التي تصبح لقمة سائغة لأعدائها المتربصين الذين

يتحكمون في مقدراتهم ومصيرهم ، بسبب تطاحنهم وعدوانيتهم على بعضهم البعض تحت شعارات زائفة براقة ما أنزل الله بها من سلطان.

فالرسول صلى الله عليه وسلم الذي قال :" والذي نفس محمد بيده إني لا أخاف عليكم أن تشركوا بعدي شيئا ولكن أخوف ما أخاف عليكم أن تبسط عليكم الدنيا فتنافسوها كما تنافسها من قبلكم فتهلككم كما أهلكتهم".

هو صلى الله عليه وسلم الذي قال:"يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها ، قالوا: أو من قلة نحن يا رسول الله ؟ قال :لا، بل أنتم كثير ولكنكم غثاء كغثاء السيل وليضربن الله تعالى على قلوبكم الوهن ، قالوا : وما الوهن يا رسول الله ؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت ."

<u>الشرك الأصغر</u>:

وأما الشرك الأصغر ، فهو الرياء الذي هو التباهي وإظهار الفضائل والأعمال الصالحة وهذا لا يخرج من الملة ، ولكنه يحبط ثواب العمل الصالح ، ولا تجده عند السالكين لطريق الله تعالى ، لأن طريقتهم هي : تصفية القلب تماما من أدرانه مثل : الرياء وحب السمعة الكاذبة وسوء الظن بالمسلمين و ... إلخ.

والعجب العجاب أن المعارضين للأولياء ومحبيهم ، يظهر في سلوكياتهم : الرياء والتظاهر وسوء الظن بصورة عجيبة ، لأن ما فيك يظهر على فيك ، فنسأل الله لنا ولهم الهداية.

<u>الشبهات التي يثيرها المجافون للتوسل:</u>

إن تكفيرهم للمسلمين المتوسلين يعتمد على نصوص قد فهموها أو تفاهموها خطأ، فوقعوا في أفدح الأخطاء . وحكموا على المتوسلين بأن شركهم أخطر من المشركين السابقين على الإسلام ، حيث قالوا : إن شرك السابقين كان شركا في " الألوهية " فقط . وأما مشركو المسلمين ، فقد أشركوا في " الربوبية " كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذبا.

فهذه دعواهم المغالطة ، والتي أوصلها إليهم أعداء الإسلام في الخفاء من دهاقنة المستشرقين ومعظمهم من اليهود ، فإن أي دعوى لابد أن تؤسس على دليل وبرهان واضح وبخاصة فيما يتعلق بعقائد الإيمان !!

إن دليلهم على فريتهم أنهم حَمّلوا جميع الآيات القرآنية التي نزلت في المشركين ، وخصوصا مشركي مكة على الموحدين من أمة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وتمسكوا بذلك في رميهم بالشرك الأكبر فمن هذه الآيات :**{... فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا (18)}[الجن].**

وقوله سبحانه :**{ وَلا تَدْعُ مِن دُونِ اللهِ مَا لا يَنفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِن فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِّنَ الظَّالِمِينَ(16)}[يونس].**

وقوله تعالى: **{ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُو مِن دُونِ اللهِ مَن لاَّ يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ وَهُمْ عَن دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ (5) وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ(6)}[الأحقاف].**

وقوله جل شأنه:{**فَلا تَدْعُ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ(163)}[الشعراء].**

وقوله سبحانه :**{... وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ(13) إِن تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ(14)}[فاطر].**

وقوله تعالى :**{ لَهُ دَعْوَةُ الْحَقّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِه وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (14)}[الرعد].**

وقوله تعالى:{ **قُلْ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِهِ فَلا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرّ عَنكُمْ وَلا تَحْوِيلاً(56) أُوْلَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلى رَبّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَاب رَبّكَ كَان مَحْذُورًا(57)}[الإسراء].**

إلى غير ذلك من الآيات القرآنية التي نزلت في المشركين من كفار مكة.
ولكن خصوم الأولياء ومجافيهم زعموا أن كل من استغاث بالنبي صلى الله عليه وسلم ، أو توسل به أو بغيره من الأنبياء والصالحين أو ناداه أو سأله الشفاعة ، يكون معدودا في عداد هؤلاء المشركين الذي عنتهم هذه الآيات ، وداخلا في عمومها.

وشبهتهم في ذلك :

أن هذه الآيات وإن كانت نازلة في المشركين إلا أن العبرة " بعموم اللفظ وليس بخصوص السبب" ولكن عموم اللفظ وعدم خصوص السبب: كلمة حق أريد بها باطل ، فلا يجوز التعميمُ وَلَيُّ الآيات ووضْعُهَا في غير موضعها ، فلا توجد علة ولا سبب يربط بين المشركين وبين الموحدين من هذه الأمة الذين خاطبهم الله بوصف الإيمان أي التوحيد وعدم الشرك كما في القرآن الكريم ، والذي أكد ذلك هو النبي صلى الله عليه وسلم في حديثه السابق الذي يثبت اطمئنانه على أمته من الشرك ولكن يخاف على المسلمين الذين يكفرون المسلمين بسبب تقاضيهم مبالغ مالية أو يؤملون في جاه أو منصب أو أي عرض فان ، ولا يهمهم أن تختلف الأمة وأن تحل الفتن بها ، فقد تستروا تحت عباءة الإسلام ، واكتفوا بشكلياته وأعلنوا أنهم حراس الإسلام والعقيدة، وأن غيرهم يتيه في الجهل المركب وهذا هو عين " الإسقاط " الذي يقول به علماء النفس.
نعم " العبرة بعموم اللفظ وليس بخصوص السبب" ولكن ليس في كل شيء ، فالعلة تدور مع المعلول وجودا وعدما ، ولا يوجد سبب ولا علة تربط معتقد مشركي مكة وبين المسلمين الموحدين الذين يتبركون بأحباب الله ،، لأن المسلمين يعتقدون أن التأثير في الكون والنفع والضرر لا يكون إلا لله وحده ، وما تبركهم وتوسلهم إلا أخذا بأسباب أحلها الله وجعلها من نواميس الكون وقد اتخذها من قبل خواص الأمة وتسعفهم النصوص الواضحة التي بينا شيئا منها غير قليل.

فقد يكون الدعاء في تلك الآيات معناه العبادة وبذلك يُفَنَّدُ ما زعموه لأن المسلمين لا يعبدون إلا الله تعالى ، حتى تعمهم تلك الآيات ، ولا اعتقدوا أنهم يستحقون العبادة ، ولا أنهم يخلقون شيئا ، بل إن عقيدتهم أنهم عبيد لله سبحانه مخلوقون له ، وما قصدوا من التوسل بالصالحين إلى الله تعالى ، إلا التبرك بهم لكونهم أحباب الله المقربين ، الذين قذف في قلوب الخلق حبهم ، فعرفوا وجاهتهم عند ربهم ، فتبركوا بهم وأحبوهم ، فرأوا فرج الله على أيديهم ، وانتفعوا بصحبتهم وتوسلهم بهم إلى الله تعالى.

التوسل توبة متجددة:

إن من شروط إجابة الدعاء : أكل الحلال الطيب ، قال عليه الصلاة والسلام:" إن الله طيب لا يقبل إلا طيبا " والبعد عن المعاصي الحسية والقلبية ، قال الله سبحانه :{ **... إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ (27)}[المائدة]** وقد أشار النبي صلى الله عليه وسلم إلى محل التقوى ، فأشار بأصبعه الشريف إلى صدره الشريف ، وقال:" التقوى ها هنا التقوى هاهنا ".

ومعلوم أن من أكل ولو لقمة واحدة حراما لا يستجيب الله دعاءه أربعين صباحا . والعبد لا يستغني عن باب ربه إطلاقا في أي لحظة ، فماذا يفعل آكل الحرام ؟ هل ييأس من قرع باب خالقه هذه المدة كلها وهو يعلم أنه لن يستجاب له بلسانه الذي لوثه بأكل الحرام وجوفه ودمه الذي سار في عروقه وأظْلَمَ قلبه وقساه ؟ ماذا يفعل المضطر وقد عرف خطأه حينما وضعه القدر في موقف المضطر الذي لابد أن يلجأ إلى مولاه ؟ إن الله تعالى لطيف بعباده ، ورحمته قد سبقت غضبه ، وحلمه قد تَغَلَّبَ على مؤاخذته ، ففتح لعقله بابا إليه ليرده إلى جنابه الأقدس منيبا تائبا إلى حضرته، فدلَّه على أحبابه ليعلموه الأدب مع خالقه، وجربهم في التوسل إلى ربه بقضاء حاجته وتفريج كربته فتوسل إلى الله تعالى بحبه لهم ، فإن محب الحبيب حبيب ، فاستجاب الله له حينما دعوا له ، أو دعا هو مستشفعا بهم إلى ربهم بالقبول فقبله ، فأي مخالفة

هنا إذا كان المدعو للشفيع والمستشفع، والمتوسل والمتوسل به هو الله وحده صاحب الخلق والأمر في ملكه وملكوته.

نعم إن التوسل: توبة تتجدد بتكرره ، لأن لسان حال العبد معه كأنه يقول يا رب لقد عصيتك بقول وفعل وكسب حرام ، وإني جئتك تائبا عن طريق أحبابك وأوليائك الشهداء على توبتي فإن كنت قد قبلت توبتي ففرج كربتي ويسر أمري فلن أعود لذنب يعطل مسيرتي نحو رضاك والآن أعاهدك بأن آتيك مع ركب الصالحين.

ومن الأحكام المتفق عليها جواز التوسل بالأعمال الصالحة بدليل الحديث الصحيح الذي ورد في أصحاب الغار الثلاثة الذين سُدَّ الكهف عليهم بصخرة كبيرة فتوسل كلٌّ منهم إلى الله تعالى بصالح عمله حتى خرجوا جميعا.

هذا ، وإن حب الصالحين " عمل صالح " فيجوز أن يتوسل به ، وما التوسل إلا دعاء لله وحده . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" من أحب قوما حشر معهم " فما قَرَّبَ المحب ليكون في الجنة مع محبوبه إلا حبه، إذ الحب عمل فيجوز أن يتوسل المسلم بحبه للرجل الصالح الذي لا يحبه إلا لله ولسوف يستجيب الله الكريم له ذلك وفي ذلك درس له يفيده في التوبة والرجوع إلى ربه فقد عرف خطأه وتماثل للشفاء منه بتواضعه وانكساره إلى ربه حينما ألجأته ضرورة كشف الكرب والهم والعناء والبلاء أن يفزع إلى الله مع شفيع يدعو الله معه.

فإن لفظ " شفيع " مشتقة من الشفع وهو " الزوج " أي أن الداعي ليس وحده في ميدان الدعاء بل دعّم نفسه بداع آخر يدعو معه ، فإذا لم يستجب للأول المكبل في ظلمات الآثام والمعاصي ، فسوف يستجيب الله تعالى للثاني التقي الولي وتلك رحمة من الله وعطية ولطف بعباده حتى العصاة فيجذبهم ذلك نحو هداه وتقواه ولله الفضل والمنة في كل شيء ، وكيف نعجب من ذلك ولا يعدو الأمر أن يكون سببا من الأسباب التي ترتبط بمسبباتها ونتائجها التي هي من فعل الله وحده:

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" إن للخير مفاتيح وللشر مغاليق فطوبى لعبد جعله الله تعالى مفتاحا للخير مغلاقا للشر".

شبهة دعاء المسلم لنفسه:

أولا : لا مانع من أن يدعو المسلم لأخيه بظاهر الشهادة أو بظهر الغيب، فإن ذلك أمر قد تقرر وتكرر من السلف الصالح مع بعضهم،بل قد حدث كثيرا من النبي صلى الله عليه وسلم فقد كان أحدهم يدعو ويؤمن الباقون على دعائه.

وهذا هو عين ما يفعله علماء السلوك إلى الله تعالى.

ومعلوم أن دعاء الأخ لأخيه بظهر الغيب مستجاب ، فقد قال صلى الله عليه وسلم لسيدنا عمر حينما توجه لعمل عمرة :" لا تنسني يا أخي من دعائك".

ففي ذلك تشريع للأمة في ألا يقتصر دعاء المسلم لنفسه فقط ، فالمؤمنون كرجل واحد ، وها هو القرآن يعلن تكافل المسلمين مع بعضهم البعض أمام الله تعالى ، فقد أوجب عليهم تنزيلا إذا قرأوا الفاتحة في صلاة أو غيرها:

كما هو النص القرآني الحكيم **{ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ(5)}[الفاتحة]** حتى ولو كان يصلي منفردا وحده بحيث لا يراه أحد ، وكان القياس أن يقول : إياك أعبد وإياك أستعين وأن يقول : اهدني الصراط المستقيم . لكن التربية الإلهية تقتضي غير ذلك بأن تكون الروح الإيمانية السائدة روح واحدة وقلب واحد للأمة يخفق بالإيمان على الدوام.

ثانيا: إن منكري الوسيلة يلزمون المسلم بأن يشذَّ عن الروح الإسلامية الواحدة التي شرعها القرآن الكريم وقررتها السنة المطهرة.

فهم يقولون : لا يجوز التوسل ولا زيارة الأولياء ، لأن الله تعالى لم يجعل واسطة بينه وبين العبد فهو سبحانه يقول **:{وإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قريبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ...}[البقرة].**

وللرد على هذه الشبهة أقول: وبالله التوفيق:

أولا: سبب نزول هذه الآية : أن بعض الصحابة قالوا: يا رسول الله : أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله هذه الآية الكريمة: **{وإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قريبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ...}[البقرة].**إذًا يؤخذ من سياق الآية أن المقصود بـ " **عبادي** " هنا الصحابة الأجلاء العدول المتحققون بعبادتهم والذين شهد الرسول صلى الله عليه وسلم لهم بطول الباع في التقرب إلى الله تعالى، حينما نهى الأمة عن سبهم والطعن فيهم بقوله:" لا تسبوا أصحابي فلو أنفق أحدكم مثل جبل أحد ذهبا ما بلغ مُدَّ أحدهم ولا نصيفه".

ومعلوم أن المد نصف قدح من البر أو الذرة – والنصيف : ربع القدح منه وذلك لأن قلوبنا ليست كقلوبهم ، وتوجهنا إلى الله تعالى ليس كتوجههم ، فقلوبهم مع الله بكليتها ولا يرجون إلا الله والدار الآخرة ، وأما نحن فتوجهاتنا إلى الدنيا وزخرفها أكثر من الآخرة ، بل إن الكثيرين منا أصبح يخضع لحب المال والجاه والعرض الفاني أكثر من خضوعه لما يقربه إلى ربه ، بل إن صلاتنا أصبحت تخلو من الصلة الكاملة بالله تعالى، فهي حركات جسومية وعبارات كلامية في أغلب الأحيان ، فتحولت إلى عادة بدل عبادة تغسل القلب من أدران المعاصي وتنقيه كما في حديث"أرأيتم لو أن نهرا...إلخ".

فقد كانوا يبترون العضو التالف لأحدهم في الصلاة ، ثم يغمسون ما بقي في الزيت المغلي لكيلا تنزف الشرايين ولا يشعر لأنه بكليته مع ربه ، لكنا أي الكثيرين منا والأعم الأغلب إلا من رحم تجسدت في قلوبنا محبة الدنيا وكراهية الناس والغل والشحناء وسوء الظن وقد قال صلى الله عليه وسلم : "تعس عبد الدرهم تعس عبد الدينار تعسي عبد القطيفة والخميصة تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش".

فكيف يستجيب الله تعالى دعاء من أصبح يعبد سواه من جماد هو مال أو ثياب أو سيارة أو قصر أو امرأة جميلة لأن العبادة معناها : الخضوع والامتثال ، فقد أصبح الإنسان المعاصر يخضع لهذه الأمور المادية خضوعا كاملا وتشغل باله أغلب وقته . فإن كان غنيا سال لعابه على كرسي في مجلس الشعب أو في إدارة أو وزارة مثلا أكثر مما هو فيه " لو كان لابن آدم واديا من ذهب لتمنى أن يكون الثاني... الحديث".

وإن كان أقل من ذلك فهو يهفو إلى أن يحسن وضعه ولو عن طريق غير مشروع ، يعصي الله من خلاله ، فإذا لم يجد فإنه يندب حظه ويحزن على نفسه، ويحقد على غيره ويحسده بقلبه وإن لم يظهر ذلك.

مع أن القرآن يضع القياس العبادي الصحيح للمتعبدين وهو عدم فرح القلب بإقبال الدنيا عليهم مالا أو ولدا أو جاها وسلطانا ، فكل ذلك زائل، فلا يحل له أن يضع حب الدنيا في قلبه إن هي أقبلت بل عليه أن يضعها في يده فقط ليؤدي منها حق الله وحق أهله ونفسه . ولا يجوز للمسلم الذي يريد رضاء الله : أن يحزن قلبه على فوات الدنيا أو شيء منها إن هي أدبرت وليكن حزنه على ذنب قد ارتكبه أو قلب قسا أو أظلم أو مال تدنس قال الله تعالى:**{لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ...(23)}[الحديد].**

ثانيا: أنه في دفع شبهة تحريم التوسل والدعاء عند قبر الولي باستدلالهم بقوله سبحانه: **{وإذا سَأَلَكَ عِبَادِي ...(186)}[البقرة]** فإنهم أي خصوم الأولياء والتصوف قد يقولون : إن الأمر لا يقتصر على الصحابة فقط انطلاقا من قاعدة – العبرة بعموم اللفظ وليس بخصوص السبب – نقول : نعم نحن معكم في ذلك ، ولكننا لابد أن نفكر في معنى " **عبادي** " فهناك فرق كبير بين العبيد والعباد ، فلفظ " **عبيد** " يشمل الكافر والمؤمن والمطيع والعاصي ، فهؤلاء جميعا عبيد الإحسان من الله تعالى انطلاقا من قوله تعالى :**{ ... وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ...(156)}[الأعراف]** ، أي في الدنيا الكل يعيش في كنف هذه الرحمة الدنيوية التي تنتهي بحياة الإنسان والحياة ، ولكن الرحمة الأخروية خالدة دائمة ثابتة مستقرة أبد الدهر ، فهي عزيزة ولذا لا تعطى إلا لعبد من العباد عزيز على الله ، ولذلك قال الله سبحانه عنها:**{... فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ...(156)}[الأعراف].**

إجابة الدعاء للعباد وليس للعبيد

فالعبيد يعرفهم ربهم بإحسانه إليهم في الدنيا حتى ولو كانوا عصاة أو حتى لو أنهم كفار، فالدنيا فترة قصيرة فليمتعهم فيها، ليقيم حجته عليهم في الآخرة بعصيانهم وعدم إيمانهم . ولكن العباد يعرفون ربهم فيشكرونه على السراء والضراء فيحبهم ويحبونه لأنهم وقفوا قلوبهم على حضرته ولا يعتزون إلا بجنابه ولا يخافون إلا من عقابه فهم دائما على بابه عاكفون أفقرهم أو أغناهم ، أمرضهم أو عافاهم، أذلهم من الخلق الأرذال أو أعزهم : إنهم متعبدون متلذذون بأنوار عبوديته وذكره وحبه فلا يغفلون عن ذكره وتعظيمه طرفة عين ، لزموا بابه فصاروا من جملة أحبابه ، فكيف لا يستجيب دعاءهم كرما منه وهم الأدلاء للناس على بابه ، الذين يحببون خلقه فيه بعد أن أحبوه ، ويرغبون في ذكره بعد أن ذكروه، ويذكرونهم بحنانه وعطفه بعد أن عرفوه. فلله در قوم أحبهم فأحبوه ، ولاذوا بجنابه الأقدس فأعزهم من ذل وأغناهم من فقر ، وتوجهم بتاج وصاله ، إن دعوه أجابهم ، وإن استغفروه غفر لهم ، تقربوا إليه بخالص العبودية ، فقربهم من رضوانه ، وأرضى قلوب الخلق عنهم **:{ إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا(96)}[مريم].**

معنى "عبادي " من وجهة النظر اللغوية:

لقد أضيفت لفظة " عباد " إلى –"ي" ياء المتكلم التي ترجع إلى الذات العلية ، فاكتسب المضاف التشريف من المضاف إليه ، ولما كان المضاف لازما للمضاف إليه ، لا ينفك عنه . فإن العباد الذين يستجيب الله دعاءهم هم الذين لزموا بابه وعكفوا عليه بقلوبهم ذاكرين مطيعين له على الدوام ملئوها بنور الإيمان فلا يغفلون عن ذكره طرفة عين ولا يفارقون بابه بل لزموه تلازم المضاف مع المضاف إليه ، لأنهم تحققوا بمعنى العبودية الخالصة فأنسوا به واشتاقوا لحضرته والنظر إلى وجهه الكريم ليكونوا من قوم قال فيهم **:{ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ...(26)}[يونس]** فالحسنى: الجنة، والزيادة : النظر إلى وجهه الكريم في الجنة وذلك أسمى شيء يصل إليه العبد في الجنة.

معنى " عبادي " من وجهة نظر تفسيرية:

يقول العلماء المحققون : إن أعظم تفسير للقرآن : هو تفسير القرآن لنفسه ، لأن القرآن يفسر بعضه بعضا. فَمَن المعنيون بقوله سبحانه "**عبادي**"؟ إنهم عباد الرحمن وهم المتصفون بما ذكر عنهم في سورة الفرقان وبالتالي هم من يستجيب الله دعاءهم يقول الله سبحانه: **{ وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا (63) وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا(64)}[الفرقان]** . إلخ الآيات التي ذكرت صفات عباد الرحمن فلا يجوز أن نفهم " **عبادي**" جزافا حتى يندرج تحتها كل من هب ودب من العصاة وأهل الغفلة عن الله، ومن لم تتوافر فيهم صفات عباد الرحمن ، بل كان الشيطان يتمركز في قلوبهم مسرحا ومقيلا، ويسيطر على تحركاتهم وأقوالهم وأفعالهم، فإن فعلوا ما ظاهره العمل الصالح يكون الرياء هو الباعث عليه ، والحقد والحسد والغرور والكبر والجفاء والفظاظة والغل من صفاتهم!!فكيف ينطبق عليهم قول الله تعالى "**عبادي**" وهم عباد النفس والهوى والشيطان.

إن الله تعالى يبين أن من أخص صفات من تحقق بالعبادة المؤهل لاستجابة دعائه:من قال الله فيه : **{ إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ...(42)}[الحجر].**

إن الله تعالى لا يستجيب للغاوين مهما دعوا ، لأن قلوبهم مريضة عليها أغلفة المعاصي ، فالغاوون محل لسيطرة الشيطان عليهم ، لكن عباد الله الذين يستجيب دعاءهم ويحقق رجاءهم هم المخلصون ، قال الله تعالى حكاية عن إبليس الذي توعد الخلق بإغوائهم عن طريق ربهم وإقصائهم عن صراط من أنعم الله عليهم : حيث قال **{...لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ(82) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلَصِينَ(83)}[ص].**

إذًا القضية الآن وهي قضية إجابة الدعاء لها ثلاثة محاور:

1- **مُخَلِّصٍ**، وهذا لا يستجيب الله دعاءه، لأنه من الغاوين مطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب له.

قال صلى الله عليه وسلم :" الرجل يطيل السفر أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يقول: يا رب يا رب ومطعمه حرام ومشربه حرام وملبسه حرام وغذي بالحرام فأنى يستجاب له".

2- **مُخْلِصٌ** ، وهذا كثيرا ما يستجيب الله دعاءه فإنه قد اجتهد في إرضاء ربه ومن الله عليه بالتوفيق، فإذا ما وافق دعاؤُه مراد الله فإنه سبحانه يستجيب له عاجلا أو آجلا أو يدخره في الآخرة ، فهو من أصحاب اليمين وهو غالبا يدعو لنفسه وأهله . لا يقصد بعبادته ودعائه إلا وجه الله تعالى . وهذا هو المحب للصالحين ، لأن الإخلاص سر من أسرار الله يمنحه لأحبابه ومحبي أحبابه.

ففي الحديث القدسي :" الإخلاص سر من أسراري استودعته قلب من أحببت من عبادي".

3- **مُخْلَص**، وهذا قد صنعه الله على عينيه ، واختاره لجنابه الأقدس ، فلا يغيب عن ذكره طرفة عين ولا يراه حيث نهاه ولا يفتقده حيث أمره ، إنه يتعب ليريح الناس من معاناتهم ، ويسهر داعيا للخلق منصرفا عن نفسه وبقي مع ربه ، شعاره مناجاته لربه " كفاني فخرا أن تكون لي ربا وكفاني عزا أن أكون لك عبدا".

وهؤلاء المخلَصون هم أولياء الله الذين يستجيب الله دعاءهم دائما فهم عباد الرحمن ومن عناهم الله بقوله:"**عبادي**" فليس في قلبهم تعظيم لغير الله ولا حب ولا وجل ولا ود إلا له سبحانه ، فهم لا يوفقون إلى الدعاء إلا إذا كانت الإجابة محققة بأمر الله فإذا أراد الله تعالى نفاذ أمر من قضائه المبرم فإنه سبحانه يمسك ألسنتهم عن الدعاء – بمعنى أنه تعالى لا يوفقهم إلى الدعاء بل يصرفهم عنه – لذا قيل: إذا أراد الله نفاذ أمر أمسك ألسنة أوليائه عن الدعاء لئلا يدعوا فلا يستجاب لهم فيفتضحوا. وهذا ما دعا سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ذلك الصحابي الولي أن يقول: إني لا أحمل هم الإجابة بقدر ما أحمل هم الدعاء".

<u>الحرج الذي أوقع المتشددين الأمة فيه</u>

لا هَمَّ لدعاة الهرج والمرج والتشدد المزري الذي لا تُجْنـىَ منه إلا تفرق الأمة وتمزقها وحقدها على بعضها البعض وذلك بالآتي:

1- رمي المحبين لله ولرسوله وأوليائه بالشرك والزندقة.

2- رمي حكام المسلمين بالكفر والظلم والفسق في دائرة كفرية لا فكاك لها لأنهم لم يحكموا بما أنزل الله.

قضيتان اخترعهما من اخترع لضرب وحدة الأمة في الصميم ورميها بالكفر والزندقة – وغالب الظن – إن وراء ذلك أصابع أعداء الإسلام الذين تخصصوا في الملل والنحل في الجامعات الأجنبية وغالبيتهم من اليهود وذلك لسببين:

<u>السبب الأول</u>: أن تمزيق الفكر الديني العقائدي يترتب عليه تمزيق الفكر السياسي ليسهل ابتلاع الأمة.

<u>السبب الثاني</u>: هو أن محاور الفكر واحدة في كل مدينة وقرية ونجع بل في كل دولة عربية أو إسلامية ، بل إن الطرح للقضايا واحد والألفاظ واحدة والأسلوب واحد مما يدل على أن هناك مخططا وراء هذه الترهات ، فقد عجز أعداء الإسلام عن مواجهته كفكر.

فواجهوه من داخل دائرته من مسلمين حمقى ، وكم عانى الإسلام من المتنطعين والحمقى ، ومن طبيعة الأحمق أن يسعى لينفع فيضر وهذا ما حكم به الإمام علي كرم الله وجهه حينما أرادوا منه أن يكفر الخوارج قديما فلم يقبل وقال: هم قوم أرادوا الحق فأخطئوا طريقه وتعصبوا للخطأ.

وما أشبه الليلة بالبارحة فإن الخوارج اليوم ينسجون على نفس المنوال مع زيادة البصمات الخارجية والإغراءات المادية.

***فأما الرمي بالكفر ومحاولة التحاكم إلى القرآن في قضية الحكم بغير ما أنزل الله.**

فيقتضينا ذلك أن نرجع إلى قول الصحابة رضوان الله عليهم في تلك القضية ، فهم أعلم الأمة بكتاب الله تعالى وبالإسلام والكفر ولوازمهما ، فلا ينبغي إلا أن نتلقى عنهم ، امتثالا لإرشاد الرسول صلى الله عليه وسلم: " أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم "، لأن المتأخرين لم يفهموا مرادهم، فانقسموا فريقين : فريقا أخرجوا من الملة من ارتكب الكبائر وقضوا على أصحابها بالخلود في النار ، وفريقا جعلوهم مؤمنين كاملي الإيمان . ولكن قيض الله لدينه من أهل السنة ذوي القول الوسط فقالوا بكفرين ونفاقين وشركين وظلمين.

وأقول بعون الله وتوفيقه: نعم هناك **كفران** : كفر يخرج عن الملة، وكفر هو تهديد واقتراب من دائرة الكفر المخلد في النار ، ويوجد **نفاقان** : نفاق أصغر كمن فيه صفة من النفاق حتى يدعها الكذب – الخيانة – خلف الوعد – الفجور في الخصومة ونفاق أخطر من الكفر الواضح وهو ممن أظهر الإسلام وأبطن الكفر ، ويوجد **شركان** : أكبر وأصغر وقد بيناهما ، ويوجد **ظلمان** : ظلم عظيم وهو الشرك الأكبر وظلم دونه وهو ظلم الإنسان لغيره أو لنفسه بمعصية أقل من الكفر فالرمي بالكفر جريرة خطيرة كما سبق.

رأى الصحابة في آيات سورة المائدة

يرى ابن عباس رضي الله عنهما في آيات سورة المائدة بالنسبة للحكم بغير ما أنزل الله الآتي:

ففي قوله تعالى:**{... وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ(44)}[المائدة]** قال رضي الله عنه:

" ليس هو الكفر الذي تذهبون إليه" رواه عنه سفيان بن عيينة وعبد الرزاق، وفي رواية أخرى : "كفر لا ينقل عن الملة" وعن عطاء بن رباح هو" كفر دون كفر وظلم دون ظلم" في قوله سبحانه:**{... وَمَن لَّم يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ(47)}[المائدة].** وهو: فسق دون فسق في قوله تعالى :**{... وَمَن لَّم يَحْكُم بِمَا أنزَلَ اللّهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ(47)}[المائدة]**:وهذا أمر واضح في القرآن لمن تأمله.فإن الله تعالى سماهم في القرآن بذلك للتحذير والتخويف من باب المشاكله اللفظية على حد قوله تعالى :**{ وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللهِ...(40)}[الشورى]** فقد سمى الرد على فعل السيئة بأنه سيئة لأنه ربما يكون بأكثر منها فيكون ظالما معتديا فذلك من باب التخويف والتحذير مثل عقوبة لفت النظر في القانون.

وكذلك مثل قوله تعالى :**{ وإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرينَ(126)}[النحل].**

فقد سمى الله تعالى الرد : عقوبة للمشاكلة اللفظية والتنبيه على أن الصبر أفضل.

ومثل قوله تعالى:**{... فَمَنِ اعْتَدَى عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَى عَلَيْكُمْ...(194)}[البقرة].**

فقد سمى الله سبحانه (الرد على الاعتداء بالاعتداء) للتنبيه على مواقع الخطر لكيلا يتمادى في الرد فيكون عدوان حقيقيا.

***المعاني المشتركة بين كفر الكفر وكفر الظلم وكفر الفسق الواردة في القرآن الكريم <u>والظلم الذي ليس ظلما فيه.</u>**

لقد سمى الله تعالى الحاكم بغير ما أنزل الله كافرا مع انه ليس بكافر الكفر المعروف.

وسمى الله الجاحد لما أنزل الله على رسوله صلى الله عليه وسلم كافرا وذلك هو الكفر بعينه . الذي يخلد في النار.

وسمى الكافر ظالما في قوله:**{... وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ(254)}[البقرة]** وهذا كفر مقصود ومعروف. والظلم هنا عظيم ، لأن الإنسان بكفره هذا فقد ظلم نفسه ظلما بينا، لأنه يودي بها في جهنم خالدا مخلدا إلى أبد الآبدين.

وسمى مَنْ يتعدى حدود الله تعالى في النكاح والطلاق والرجعة والخلع ظالما حينما قال:**{ ... وَمَن يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ...(1)}[الطلاق]** وقال يونس النبي عليه السلام :**{... إِنِّي كُنتُ مِنَ الظَّالِمِينَ(87)}[الأنبياء].**

وقال آدم عليه السلام :**{... رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا...(23)}[الأعراف]** وقال موسى عليه السلام : **{...رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي...(16)}[القصص]** وليس هذا الظلم الذي قال به الأنبياء مثل ذلك الظلم المعروف.

ولقد سمى الله تعالى الكافر فاسقا في قوله تعالى :**{... وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلاَّ الْفَاسِقِينَ(26)}[البقرة]** وقوله سبحانه :**{... وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلاَّ الْفَاسِقُونَ (99)}[البقرة]** وسمى العاصي فاسقا في قوله تعالى:**{ ... إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا ...(6)}[الحجرات].**

وقال في الذين يرمون المحصنات :**{...وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ(4)}[النور]**وقال:**{... فَلا رَفَثَ وَلا فُسُوقَ وَلا جِدَالَ فِي الْحَجِّ...(197)}[البقرة]** وليس الفسوق في هذه الآيات كالفسوق المعروف [1] ، وإنما تعرضنا لبيان ذلك هنا ، للرد على من يطلقون "الكفر"جزافا،على أهل القبلة بلا داع ، وَيَصِمُونَ خواص الأمة بالشرك الأكبر دون مبرر ولا خوف من الله.

أنواع الشرك الأكبر:

---

[1] إرشاد الطالب إلى أهم المطالب ص6،7 بتصرف.

1- **الشرك الاستقلالي** وهو : إثبات إلهين مستقلين كشرك المجوس.

وإثبات ثلاثة آلهة مستقلين كشرك البوذيين فإنهم يعتقدون بوجود ثلاثة آلهة مستقلين:

أ- إله للخلق ب- إله للموت جـ - إله للرزق

2- **الشرك التركيبي** وهو تركيب إله من عدة آلهة يتكون منها وهو كشرك النصارى المبني على الأقانيم الثلاثة: ابن + آب + روح القدس = إله واحد.

3- **الشرك المقرب إلى إله** ، وهو : عبادة غير الله تعالى ، ليقرب إلى الله زلفى كشرك الجاهلين . وهذا الشرك الأخير هو الذي يرمي به خوارج عصرنا الموحدين من أهل الإسلام الصافي النقي الذين يطلبون من الله " مقام الإحسان " ليتم الدين من إسلام وإيمان وإحسان . فإذا لم يفتح عليهم به فهم يحبون أهل مقام الإحسان ليتعلموا منهم قصد وجه الله وليكونوا مسلمين كاملين ومؤمنين حقا على هدي سيد المرسلين صلى الله عليه وآله وسلم مع أن حال مشركي الجاهلية لا يتفق بوجه من الوجوه مع المسلمين المتوسلين بالأنبياء والصالحين ، فمشركو الجاهلية قد اتخذوا الأصنام آلهة وسجدوا لها من دون الله لأنهم اعتقدوا أن الأصنام تنفع وتضر بنفسها فعبدوها واعتقدوا أحقيتها ذلك فلما أقيمت عليهم الحجة بأنها لا تنفع ولا تضر ، قالوا:**{... مَا نَعْبُدُهُمْ إلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إلى اللهِ زُلْفَى...(3)}[الزمر].**

وإني أوجه سؤالا محرجا لخصوم الأولياء والتصوف المحاربين للتوسل والوسيلة وهو:
ما رأيهم في توسل سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع جمع من الصحابة العلماء العدول وما رأيهم في المتوسل به وهو : سيدنا العباس بن عبد المطلب عم النبي صلى الله عليه وسلم؟ وما رأيهم في إيمان هؤلاء وإسلامهم؟!! أظن أن موقف المانعين للوسيلة حرج للغاية ، إذًا فعليهم بالرجوع إلى حظيرة إسلام السلف الصالح والتوبة إن كانوا يريدون وجه الله والآخرة وأن يَدَعُوا التسلف المقيت والتعصب لنحل خارجية قد تكون أصلا من دسائس أعداء الإسلام [1] !!

---

(1) طريق الله في التصوف جـ2 باب الوسيلة للعارف بالله تعالى أستاذنا الشيخ أحمد الشافعي أبي خليل

والله تعالى يوفق الأمة لما فيه رضاه.

دحض فرية عدم اتخاذ وسيط بينك وبين الله:

إذا قال من لا يجيز التوسل: إن المتوسل يجعل بينه وبين الله تعالى واسطة في مسألته وذلك لا يجوز . قلنا له:

أولا: نحن نعتقد ككل المسلمين بأن المحرك المسكن في الكون هو الله وحده، والنافع الضار هو الله وحده ، وإنه سبحانه هو المهيمن على كل شيء والمالك لكل شيء امتلاكا وتصرفا ، ولكن جرت حكمته الأزلية على أن يوجد لكل شيء سببا ، فالله تعالى الذي يقول **:{ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ...(22)}[يونس]** هو الذي يقول **:{قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ...(11)}[الأنعام].**

والله تعالى الذي يقول **:{ وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ(22)}[الذاريات]** هو الذي يقول **: {... فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ(15)}[الملك].**

والرسول صلى الله عليه وسلم الذي قال:" لا عدوى ولا طيرة" هو الذي قال:" فر من المجذوم فرارك من الأسد".

وحينما سأل النبي صلى الله عليه وسلم الأعرابي عن ناقته قال : أطلقتها يا رسول الله وتوكلت على الله ، فقال له: " اعقلها ثم توكل".

إذّا لابد من أخذ الأسباب كسنن كوني ، فمن حارب الأسباب فهو يحارب طبيعة كون الله وهذا ضرب من الخيال لا يعول عليه.

ثانيا: من الذي قال : إن الواسطة إشراك بالله تعالى ؟ فكيف تكون كذلك والله تعالى قد أقام الدنيا والآخرة على ناموسها ، **أما في الآخرة** فحسبك فزع الناس إلى الأنبياء وتوسيطهم لهم بينهم وبين الله في الشفاعة – وسيأتي ذلك في حينه.

<u>وأما في الدنيا</u> : فقد جعل سبحانه وتعالى الأنبياء وسطاء بينه وبين خلقه في هدايتهم وجعل الأغنياء وسطاء بينه وبين عباده الفقراء يعطونهم رزقهم وحاجة معاشهم.

وجعل الأطباء وسطاء بينه وبين المرضى ، حيث يتسببون في دفع الأمراض عنهم وإعادة الصحة إليهم ، وجعل الطعام وسيطا بينه وبين الأحياء ، فبه يدفعون الجوع عن أنفسهم ويجلبون الشبع ، وقل مثل ذلك في الماء وفي اللبس وفي النوم الجوع عن أنفسهم ويجلبون الشبع ، وقل مثل ذلك في الماء وفي اللبس وفي النوم وفي النكاح وفي مراكب الماء ، وفي السعي على الأرزاق ، فإنه لولا الماء لمتنا ظمأ، ولولا اللباس لمتنا من البرد والحر ، ولولا النوم لمتنا تعبا ، ولولا النكاح لما رأينا الأولاد ، ولولا السفن والمراكب لغرقنا في البحر إذا اقتحمناه ، ولولا السعي ما رأينا الأرزاق ، فقد ضرب الخليفة العادل الرجل الفارغ من العمل والمستطيع الكسب بِدُرَّته وقال: إن السماء لا تمطر ذهبا ولا فضة.

وهكذا كل هذا الوجود مبني على الوسائط ، فلولاها ما فعل ربنا لنا شيئا من حاجاتنا بحسب عادته التي أجراها في خلقه.

بل إنه في يوم القيامة لا يدخل الجنة أحد ولا يدخل النار إنس ولا جن إلا بواسطة "الأعمال" **{فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ(7) وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًا يَرَهُ(8)}[الزلزلة].{ فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ(102) وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ(103)تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ(104)}[المؤمنون].**

فمن أنكر من ذلك شيئا فإنه يهذي بما لا يدري ، ومثل هذا لا يقام لكلامه وزن ولا ينبغي أن يلتفت إليه ، فإذا كان من يتوسل بأحباب الله إليه ويجعلهم وسائط كافرا كان من يتخذ هذه الوسائط في أمور حياته كافرا وبذلك نكون قد كفرنا الدنيا كلها !!

فماذا في التوسيط بالتوسل الذي جعله الله سببا في قضاء الحوائج لعباده وقد أمره به وعَمَلُ الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة والمسلمين قديما وحديثا يدل على عدم منعه ، فقد روى الإمام أحمد في مسنده وابن خزيمة في صحيحه وابن نعيم في عمل اليوم والليلة ، والبيهقي – في كتاب الدعوات – والطبراني في كتاب الدعاء وابن السني وابن ماجه من أنه صلى الله عليه

وسلم قد توسل ، وعَلَّمَنا أن نتوسل بحق السائلين على ربنا إذا نحن خرجنا إلى المساجد ، ولفظ الدعاء:" اللهم إني أسألك بحق السائلين عليك ، وأسألك بحق ممشاي هذا إليك... إلى آخر الحديث". فها هو صلى الله عليه وسلم يتوسل – وهو رسول الله – بحق السائلين على ربه ، ويدعو كل مؤمن إلى التوسل بهذا الحق الذي جعله ربنا عز وجل للسائلين عليه تفضلا منه وإحسانا كما كتب على نفسه الرحمة ، وكما جعل وأوجب على نفسه رزق كل دابة وكما جعل على نفسه أجر من عفا وأصلح.

فالسائلون هم: الذين عرفوا أنه تعالى هو الذي بيده وجوه الخير وليس ذلك لغيره.

فأعرضوا عما سواه وقصروا عليه تعالى سؤالهم عما يحتاجون إليه دقَّ ذلك أو جلَّ.

فهؤلاء السائلون لهم وجاهتهم عند ربهم بأن جعل الله لهم حق ما يسألون وفوق ما يسألون لمكانتهم السامية عنده تعالى.

زيـــارة القبـــور

إن منع المسلمين والمسلمات من زيارة القبور لهو جهل بالسنة المحمدية وجهل بمذاهب المسلمين وبروح التشريع الإسلامي ، فالزيارة جائزة بل هي سنة مؤكدة وقد تكون واجبة إن عالجت قلبا قاسيا ، وبيان حكمها كالآتي:

1- زيارة الرسول صلى الله عليه وسلم للقبور

روى مسلم في صحيحه عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها أنه صلى الله عليه وسلم أخبرها أن جبريل جاءه ، فقال له : إن ربك يأمرك أن تأتي أهل البقيع فتستغفر لهم، وأنه صلى الله عليه وسلم جاء البقيع فقام وأطال القيام ثم رفع يديه ثلاث مرات ، وأنه رضي الله عنها قالت له : كيف أقول لهم؟ فقال :" قولي السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات ويرحم الله المستقدمين منا والمستأخرين ، وإنا إن شاء الله بكم لاحقون".

وروى مسلم أيضا عن السيدة عائشة رضي الله عنها: أن زيارة البقيع كانت عادة النبي صلى الله عليه وسلم وهذا لفظها:"كان رسول الله صلى الله عليه وسلم كلما كانت ليلتها من رسول الله صلى الله عليه وسلم يخرج من آخر الليل إلى البقيع فيقول: السلام عليكم دار قوم مؤمنين وآتاكم ما توعدون غدا مؤجلون وإنا أن شاء الله بكم لاحقون اللهم اغفر لأهل البقيع الغرقد".

2- <u>زيارة المؤمنين للقبور في عهده صلى الله عليه وسلم:</u>

وأما زيارة المؤمنين في عهده صلى الله عليه وسلم وتعليمه لهم كيف يزورون ، فقد روى البخاري ومسلم حديث المرأة التي كانت تزور قبر صبي لها وتبكي ، فلم ينهها صلى الله عليه وسلم عن زيارتها، وإنما قال لها :" اتقي الله واصبري" وقال لها:" إنما الصبر عند الصدمة الأول".

وروى مسلم أنه صلى الله عليه وسلم كان يعلم الصحابة إذا خرجوا إلى المقابر ليقول قائلهم : السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمؤمنات والمسلمين والمسلمات وإنا إن شاء الله بكم لاحقون أسأل الله لنا ولكم العافية".

إن النهي عن الزيارة كان في صدر الإسلام فقط والناس قريبو عهد بالجاهلية ، ثم نسخ ذلك وشرعت فكانت سنة مؤكدة ولاسيما زيارة سيد الأنام صلى الله عليه وسلم التي قد تتعدى إلى الفريضة، لأن تركها جفاء وعدمُ وفاء للنبي صلى الله عليه وسلم وحرمان من شفاعته يوم لقاء الله عز وجل وذلك لمن استطاع ولم يزر حبيب الله صلى الله عليه وسلم.

نعم نُسِخَ مَنْعُ زيارة القبور بفعله وقوله صلى الله عليه وسلم.

أما فعله – فقد مر بنا الآن ، وأما قوله ، فقد روى مسلم وغيره أنه صلى الله عليه وسلم قال: " كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنها تذكركم بالآخرة".

مع أنه من فائدة زيارة القبور : أنها تلين القلوب القاسية ، وتنصر الإنسان العاصي على نفسه ، فيقدم التوبة قبل فوات الفرصة وانتهاء الأجل.

فقد قال صلى الله عليه وسلم :" كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها ترق القلب وتدمع العين وتذكر بالآخرة فزوروها ولا تقولوا هجرا" رواه البيهقي.

والهجر : القطيعة عن الله بقول محرم ، فقد قال صلى الله عليه وسلم :" ليس منا من لطم الخدود وشق الجيوب ودعا بدعوى الجاهلية".

فإذا ذهبت النساء وولولن وصِحْنَ وبدرت منهن دعوى الجاهلية مثل : تركتنا لمن؟ ومن لنا بعدك؟!! فهذا جزع يتنافى مع الإسلام ، ويلعن الله من قام به:

فقد روى الإمام أحمد وابن ماجه والحاكم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

" لعن الله زوارات القبور".

الجلوس على القبور

لقد ظهرت آفات سلوكية أثناء زيارة القبور منها اختلاط الرجال بالنساء في الطرقات وعلى المقابر اختلاطا لا يقره شرع ولا عقل ولا دين ، حيث يأكلون ويشربون وينامون ويتبرزون ويفعلون ما يستحي القلم من كتابته ، وبذلك ضاعت فرصة العظة والاعتبار بمن سبقنا إلى ربه فازدادت القلوب قساوة والنفسى ضراوة، فالزيارة المشوبة بهذه المنكرات ، والتي تكون على مرأى ومسمع ممن أفضوا إلى ربهم دونما حياء وقد جلسنا على قبورهم متهتكين غافلين – فلتنتظر ذلك الوعيد، فقد روى مسلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:

" لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلده خير من أن يجلس على قبر" فالنهي وارد لمن أساء الجلوس بقهقهة وغيبة أو اختلاط مشين أو ترك فضلات أو عبث وضلال.

وأما الجلوس مع الاحتشام والأدب وأخذ العبرة حتى تُسْكَبَ العبرة فلا شيء فيه بل هو عين المطلوب من الزيارة " فإنها تذكركم بالآخرة".

لقد روى الإمام مالك في موطئه أن سيدنا عليا كرم الله وجهه كان يتوسد القبور ويضطجع عليها ، ومعروف من هو سيدنا علي علما والتزاما وخلقا ودينا.

وروى البخاري في صحيحه عن سيدنا خارجة بن زيد أنه قال :" رأيتنا ونحن شبان في زمن عثمان رضي الله تعالى عنه وإن أشدنا هو الذي يثب قبر عثمان بن مظعون رضي الله عنه حتى يجاوزه فقد كان قبرا مرتفعا بأمر النبي صلى الله عليه وسلم فقد جعل عليه حجرا كبيرا وقال:"أتذكر به قبر أخي".

وقال عثمان بن حكيم : أخذ " خارجة بن زيد بيدي فأجلسني على قبر عمه وأخبرني بأن عمه يزيد بن ثابت قال : إنما كُرِهَ ذلك الجلوس على القبر لمن أحدث عليه".

وعن نافع أن عمر رضي الله عنه كان يجلس على القبور".

وهذه الروايات موجودة في صحيح البخاري رحمه الله.

فالصحابة رضي الله عنهم كانوا يفهمون أن النهي عن الجلوس على القبور كان مُقّيدا بجلوس على هيئة غير مشروعة.

بل ثبت في الصحيح عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه جلس بنفسه على القبور:

فقد روى سيدنا أنس رضي الله عنه أنه قال : شهدنا دفن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس على القبر.. الحديث".

وروى الطبراني في الكبير والأوسط : جلوس رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبر"سعد بن معاذ" وذلك يوم دُفِن.

وروى الطحاوي بسند صحيح عن سيدنا زيد بن ثابت رضي الله تعالى أنه قال:" إنما نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن الجلوس على القبور لحدث غائط أو بول".

<u>وبعد:</u>

فلا يليق بأحد من أهل الملة أن يشذ عن هذا الهدي النبوي ويُحرِّم زيارة القبور سواء أكانت قبور أولياء أم مسلمين عاديين ، فقد رأينا رسولنا صلى الله عليه وسلم وهو إمام الجميع ومشرع دين الله تعالى : قد زار القبور، بل وعلم أصحابه كيف يزورونها في أي وقت شاءوا، وزار أصحابة في حياته بنفسه ، وأمر أن يرفع قبر أول من مات في الإسلام وهو " عثمان بن مظعون" بأن يوضع حجر كبير على مكان دفنه وقال :" لأتذكر قبر أخي" وتبعه على ذلك كل الأمة سلفا وخلفا من عهدهم إلى يومنا هذا . وهذه كتب العلماء الأجلاء التي روت السنة الشريفة وكذلك كتب الفقهاء أئمة الأمة من الأحناف والمالكية والشافعية والحنابلة بمشروعية زيارة القبور وآدابها . وقد ثبت أن الميت في قبره يأتنس بزائره ويعرفه وتصله هديته من قراءة أو دعاء أو صدقة ، فما بالك إذا كان صاحب القبر هو النبي صلى الله عليه وسلم أو أحد أحفاده من الأولياء الصالحين وأهديته بقراءة أو تصدقت على روحه أو دعوت له بعلو الدرجة إذًا سيكون الرد على الهدية بأحسن منها والذي سيتولى رد التحية هو أحكم الحاكمين وذلك بقضاء حاجتك أو شفاء مرضك أو المغفرة لزلتك فهو سبحانه القائل:

{ وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا...(86)}[النساء]. وإذا كان المنعم الوهاب سبحانه هو الذي سيتولى الرد على أحبابه الذين قد اختارهم لجواره ، فقل في ذلك ما شئت فإنه مما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر، بل وأكثر من ذلك رضاء الله عليك لأن حبيب الحبيب حبيب، وآية حب الله لك الذي مُنحْتَه بسبب الزيارة هو ما تشعر به من حلاوة الإيمان في قلبك والرضا النفسي الذي حَلّ بساحتك والبهجة والسرور الذين يحيطان بكيانك ، وهذا ما يجعل الزائرين يعاودون الكرة تلو الكرة ، غير عابئين بالعابثين ومن يُحرمون ولوج أبواب السعادة دون دليل، إلا إذا كان التلفيق ووضع النصوص رصا في غير مواضعها ، اللهم لا تحرمنا التوفيق واجعلنا وأحبابنا من أهل التحقيق.

حديث شـــــــد الرحــــال

وأما حديث" لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى".

فكم ظلم هذا الحديث ووضع في غير ما ورد وسِيق من أجله ، مع أن الموقف جد وليس بالهزل، إنه وحي الله تعالى إلى خلقه بتشريع أحكامه.

فلا يجوز شرح وحي الله تعالى بالهوى والمزاجية بما لا يتفق ومنطوق الحديث ولا مفهومه ، لأن هذا يعتبر شذوذا أو خروجا عن دائرة الوحي، والتشريع بغير شرع الله ، فمن استمرأ ذلك ولم يتب يخشى عليه من سلب الإيمان وتلظيه بسعير النيران ، قال صلى الله عليه وسلم :" من شذ شُذَّ في النار" وقال صلى الله عليه وسلم :" من فارق الجماعة مات ميتة جاهلية".

فقد رأينا في مبحث زيارة القبور: مشروعيتها وإجماعه الأمة سلفا وخلفا على هذه المشروعية التي بدأ مسيرتها النبي صلى الله عليه وسلم وآله وأصحابه ، وهذا التشريع عام لكافة القبور ، سواء أكانت قبور أناس قد شهد لهم بالصلاح والورع والتقوى حتى اتخذوا من أهل القدوة، أم كانوا مسلمين عاديين ، وسواء أكان القبر في دائرة مقبرة جماعية ، أم كان منفردا ، وسواء أضربت عليه قبة كهيئة قبور العارفين ، وقبر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أم لا، وسواء أكان في داخل مسجد للصلاة أم خارج المسجد ، وسواء أكان القبر في ناحية القبلة أم ليس في جهتها ،لأن تحريم ذلك تشريع بغير دليل ، فحديث تحريم زيارة القبور كان في مبدأ الإسلام والناس قريبو عهد بالسجود للأصنام ، والإسلام دين سيال ، ينساب رقراقا متدرجا في القلوب ، فإذا استكن استقر وثبت وانعقد القلب فصار عقيدة وإيمانا راسخا ، تتزلزل الجبال ولا يتزلزل وتدلهم الأمور حول الإنسان وما يزداد الإيمان إلا رسوخا وثباتا ، فينضح عملا صالحا يسعد البشر من حوله ويعود بطمأنينة ونور إلى القلب مرة الثانية كحركة الدورة الدموية منها وإليها ، وكحركة الجهاز التنفسي شهيقا وزفيرا وهكذا دواليك، وكحركة النظام النقدي الذي يدور دورته من قمة إلى قاعدة ومنها إلى القمة ، وما أضيف إلا نعم الله في المطعم والمشرب والملبس والمسكن والحركة ...إلخ"

فهذا هو الجديد في لعبة الزمن ودورانه في عجلة الحياة إنه باختصار شديد " فضل الله على خلقه " ومن هذا الفضل بل وعلى قمته "نتح " قطرات الهداية وأشعتها من القلب على الجوارح والأعضاء ، فينصرف كل عضو فيما خُلق لأجله ، قال صلى الله عليه وسلم – كما ورد في الصحيح – " ألا إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب" وقديما قالوا: " ما فيك يظهر على فيك".

ولنأت إلى حديث "شد الرحال" الذي ظُلِمَ فعلا، وكم فُرِّقَ شملُ الأمة بسبب الفهم الخاطئ له ، وكم ثار حوله جدل عقيم أفسد قلوب المسلمين ، وأوقفها عن السير في طريق رضاء الله سبحانه ، وذلك بسبب العداء والخصومة التي أثارها من لا يفهم الحديث إلا تلقينا من جاهل أخرق أو عدو مختف متحفز لا يريد للمسلمين إلا الدس والوقيعة وعدم صعود الدعاء والعبادة إلى السماء ، فقد قال صلى الله عليه وسلم :" ثلاثة لا ترفع صلاتهم فوق رءوسهم شبرا : إخوان متصارمان ... الحديث" فأول من ترد عليه صلاته فلا تقبل ولا ترفع إلى السماء بل تكون إسقاطا للفريضة فقط : هما أخوان يدينان بالإسلام لكن العداء في قلبيهما وبذلك ينجح أعداء الأمة في القضاء على الأثر الإيجابي للعبادة والدعاء والدعوة إلى الله .

فلقد تحول الهدي النبوي الذي يدعو إليه الحديث وهو:

مضاعفة الثواب لمن صلى في المسجد الأقصى على أساس أن : ثواب الركعة بخمسمائة في غيره، وثواب الركعة في المسجد النبوي بألف ركعة في غيره ، وثواب الركعة في المسجد الحرام بمائة ألف ركعة في غيره.

الحديث والزيارة

إن هدف الحديث الشريف الذي من أجله قد سيق هو : بيان فضل الصلاة في هذه المساجد وزيادة الثواب فيها ، حتى ولو شدت إليها الرحال ، كما تشد الرحال على التجارة بقصد

كسب المال ، فهذه تجارة مع الله سبحانه بقصد استثمار الصلاة فيها لمضاعفة الثواب كما هو معروف.

ولكن أي مسجد غير الثلاثة فثواب الركعة بركعة فما فائدة التأهب للسفر والغربة ومفارقة الأوطان وشد الرحال للصلاة في مسجد غير الثلاثة.

وأما شد الرحال بقصد الزيارة أو صلة الرحم ، سواء أكانت رحم المسلم الزائر ، أم هي رحم النبي صلى الله عليه وسلم ، وسواء أكانت تلك الرحم في عداد الأحياء أم المنتقلين ، فإن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" حسين مني وأنا من حسين أحب الله من أحب حسينا" فليس الحب قاصرا على حياة الإنسان في الدنيا فقط فإن الحب عطاء مستمر ، فإذا كان لله دام واتصل وإن كان لغرض فَانٍ انقطع وانفصل ، وقد رأينا مما سبق أن الميت يرى زائره ويأتنس به كما كان في الدنيا ويرد عليه تحيته ولو كانت السلام، ويؤمن على دعائه إن كان رجلا صالحا غير مشغول بنفسه. وقد بلور ذلك الرسول صلى الله عليه وسلم ليفتح الباب للزيارة ولكأنه يرى بنور النبوة ما يحدثه أهل الجدل والعشى القلبي من أن شد الرحال إلى مسجده عليه السلام للصلاة فيها، فيرد عليهم منذ أكثر من أربعة عشر قرنا فيقول صلى الله عليه وسلم :" من زار قبري وجبت له شفاعتي" رواه الدار قطنى والبيهقي وغيرهما.

وقد قال صلى الله عليه وسلم:" من جاءني زائرا لا يعمله حاجة إلا زيارتي كان حقا على أن أكون شفيعا له يوم القيامة " رواه الطبراني في معجمه الكبير والدار قطنى في أماليه وابن المقري في معجمه وصححه سعيد بن السكن.

وقد قال صلى الله عليه وسلم :" من حج فزار قبري بعد وفاتي فكأنما زارني في حياتي". رواه الدار قطنى في سننه وروى من غير طريقه.

وروى البغوي بسنده عن ليث عن مجاهد عن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " من حج فزار قبري بعد موتي كان كمن زارني في حياتي وصحبني".

وروى ابن عدي في الكامل قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" من حج ولم يزرني فقد جفاني" وغير ذلك كثير ، ومنها ما ورد في عشر طرق كلها صحيحة فيعجب المسلم ويحار حينما يسمع أن هناك من هذه الأمة من يقول:

إن مشروعية شد الرحال إلى مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم إنما هي للصلاة فيها فقط وليس للزيارة فمن أين أتى بهذا القيد ؟ ولمصلحة من ذلك؟ وكيف يتحمل مسئولية التشريع بغير شرع الله؟!!

ثم يأتي ليحرم شد الرحال إلى مساجد غير الثلاثة مساجد المعروفة ، وذلك ليحرم الصلاة في مساجد فيها قبور الصالحين ومزاراتهم ويحرم الزيارة وذلك لا يعتمد على دليل واضح من كتاب أو سنة.

بل إن حديث شد الرحال لا يشم منه ذلك التحريم للزيارة ، لا من منطوقه ولا من مفهومه . إن الحديث لا يهدف إلا لشيء واحد – كما ذكرنا – هو فضل الصلاة في هذه المساجد الثلاثة ومضاعفة ثوابها فقط.

والدليل على ذلك نص الحديث نفسه .

فقد قال صلى الله عليه وسلم :" لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد... الحديث" فنرى أن أسلوب الحديث لغويا هو ما يسمى بأسلوب الاستثناء.

وأسلوب الاستثناء يبنى من ثلاثة أشياء: مستثنى منه وهو ما قبل أداة الاستثناء وأداة الاستثناء والمستثنى وهو ما بعد الأداة – فأسلوب الحديث قد أتى على نسق الكلام البليغ بالإيجاز الذي عرف به من أوتي جوامع الكلم صلى الله عليه وسلم لأنه استثناء مفرغ فلم يذكر من اسلوب الاستثناء إلا أداة الاستثناء "إلا" والمستثنى "ثلاثة مساجد" ولكن المستثنى منه غير موجود ، فباستطاعتنا أن نقدره وفقا للاستثناء المتصل الذي يشترط فيه أن يكون المستثنى من جنس المستثنى منه ، فإذا كان المستثنى "ثلاثة مساجد" فإنه المستثنى منه هو " مساجد " ويكون الحديث على ذلك :" لا تشد الرحال إلى مساجد إلا إلى ثلاثة مساجد... الحديث" فأين تحريم زيارة الأولياء من منطوق الحديث أو مفهومه ؟!! وأين تحريم الصلاة

في مساجد فيها قبور ومزارات ؟ إن ذلك الهراء لا يحتمله منطوق الحديث ولا مفهومه ، فليتق الله هؤلاء في دين الله، ولا يكونوا كالببغاوات التي تهرف بما لا تعرف ولا تملك إلا الألفاظ التي تُمْلَى عليهم!! دون الرجوع إلى عقل سليم أو رأي سديد أو اطلاع على ما قاله الشرع الشريف وعمل به سلفنا الصالح وليس المتسلف الذي يركب رأسه ويحرك وفق أهواء من يحركونه ويظن أنه " حر " وما هو بحر إنه ينفذ حرفيا ما يملى عليه ويقرأ فقط ما حددت له قراءته مهما كان خطورته على وحدة الأمة وتمزيق شملها ، إنهم ارجعوا هؤلاء إلى عصر " النخاسين" فأين هذا الوباء الفكري من حرية المعتقد الذي تضفيه عقيدة " لا إله إلا الله " أي لا خالق ولا رازق ولا نافع ولا ضار ولا مهيمن ولا مسيطر ولا محيي ولا مميت إلا الله وحده لا شريك له .فكيف يسمح المسلم الذي لا رقيب عليه إلا الله بأن يكون حلقة في سلسلة يحكم قبضتها دعاة السوء وعباد المال والجاه ، ليكون تابعا لكوادر الإذلال التي ليس في جعبتها إلا ألفاظ ترتفع في أمواج الأثير هي صياح ونقد وتجريح وتكفير لخاصة المسلمين وعامتهم بعصا الإرهاب الفكري الذي نجحت كنانة الله أخيرا في تبديده ، والإجهاز عليه ، لكنا بعون الله تعالى نحاول إزالة ما تبقى في العقول من آثار العدوان السابق عليها والله من وراء القصد.

ولكي يستفيد كل مسلم في مشارق الأرض ومغاربها ، لأن هذه الفتن انتشرت في سائر أرجاء المعمورة وباسم الدعوة والجهاد وتحكيم كتاب الله : ينقضون عرى الإسلام عروة عروة لأنهم – أي القاعدة – لا يفكرون فيما يقولون ولا يسمح لهم سادتهم بقراءة غير ما يملى عليهم أن يقرأوه وحسبنا الله ونعم الوكيل!!

<u>حديث</u>" لا تجعلوا قبري عيدا ولا تتخذوا بيوتكم قبورا وصلوا عليَّ حيثما كنتم فإن صلاتكم تبلغني" رواه عبد الرزاق في مصنفه بسنده إلى الحسن بن الحسن ابن علي كرم الله وجهه أنه رأى قوما عند القبر فنهاهم وقال : إن النبي صلى الله عليه وسلم قال ... فذكر الحديث السابق " فأما قوله صلى الله عليه وسلم :" لا تجعلوا قبري عيدا "، فرواه أبو داود السجستاني وفي سنده عبد الله بن نافع الصائغ روى له الأربعة ومسلم ، قال البخاري :

تعرف حفظه وتنكر ، وقال أحمد بن حنبل : لم يكن صاحب حديث : كان ضعيفا فيه ، وقال أبو حاتم الرازي : ليس بالحافظ هو : لين تعرف حفظه وتنكر ، ووثقه يحيى بن معين وقال أبو زرعة : لا بأس به.

وقال ابن عدي : روى عن مالك غرائب ، فإن لم يثبت هذا الحديث فلا كلام فيه ولكن إن ثبت وهو الأقرب فقد قال الشيخ زكي الدين المنذري : يحتمل أن يكون المراد به الحث على كثرة زيارة قبره صلى الله عليه وسلم وألا يهمل حتى لا يزار إلا في بعض الأوقات كالعيد الذي لا يأتي في العام إلا مرتين.

قال: ويؤيد هذا التأويل : ما جاء في الحديث نفسه "لا تجعلوا بيوتكم قبورا أي لا تتركوا الصلاة في بيوتكم حتى تجعلوها كالقبور التي لا يصلى فيها" [1] .

قلت : ويحتمل أن يكون المراد : لا تتخذوا له وقتا مخصوصا لا تكون الزيارة إلا فيه كما ترى كثيرا من المشاهد لزيارتها في يوم معين كالعيد.

ولكن زيارة قبره صلى الله عليه وسلم لا ينبغي أن تكون في يوم بعينه بل في أي يوم كان .

ويحتمل أيضا : أن يراد أن يجعل كالعيد في العكوف عليه وإظهار الزينة والاجتماع وغير ذلك مما يعمل في الأعياد بل لا يؤتى إلا للزيارة والسلام والدعاء ثم ينصرف عنه . والله أعلم بمراد نبيه صلى الله عليه وسلم.

إذًا بعد تلك الآراء التي قيلت حول هذا الحديث الشريف لم نر تحريما للزيارة ولا للصلاة في الروضة الشريفة وعند القبر الشريف فبطل استدلال المتشددين من خوارج الأمة به على ذلك.

<u>حديث</u> " لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد".

يستدل بهذا الحديث هؤلاء المخلفون لأحباب الله ، الذين لا يرغبون إلا في الجدل وإثبات ذواتهم بمخالفة أهل الحق ، حيث يستدلون به على:

---

[1] شفاء السقام لتقي الدين السبكي ص 79 ، 80.

1- تحريم الصلاة في المساجد التي فيها قبور الصالحين.
2- تحريم زيارة الأضرحة واعتبار ذلك شركا وخروجا عن الملة والعياذ بالله.
3- لعن من يتخذ مسجدا على القبر وإلحاقه باليهود والنصارى.

أولا: لابد من معرفة سبب ورود الحديث حتى نعيش في جوه الحقيقي.

سبب ورود الحديث: أن الصحابة رضوان الله عليهم الذين سافروا إلى الحبشة قد وجدوا أن الأحباش يهتمون بقبور صالحيهم فيزخرفونها ويبنونها بناء محكما قد رفعت أعمدته وزهت ألوانه، ورسمت صور أصحاب القبور بشكل كبير يوحي بتعظيمهم لهم بل وسجودهم للقبر أو للصورة التي على باب القبر وهي بحجم المتوفى الذي تخيلوا صورته.

بدليل قوله صلى الله عليه وسلم : لما اخبر بكنيسة بأرض الحبشة فقال:" أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجدا ثم صوروا فيه – أي في المسجد – تلك الصورة أولئك شرار الخلق عند الله".

ثانيا: إن اللعن في الحديث وارد على اليهود والنصارى وليس فيه للمسلمين شيء.

ثالثا: إن العلة في اللعن غير موجودة عند المسلمين لما يأتي:

1- إن اليهود والنصارى قد خالفوا في العقيدة ، فسجدوا للقبر من دون الله تعالى أو سجدوا للصورة التي تخيلوها لصلحائهم ، والمسلمون في زيارتهم لصلحائهم لا يسجدون إلا للواحد القهار لا لساكن القبر ولا لصورته بل إنه لا توجد صورة على قبره أصلا.

2- إن اليهود والنصارى ، قد خالفوا شريعتهم في مكان العبادة، لأن جميع الديانات والرسل قبل الإسلام كانت توجد لهم أماكن خاصة للعبادة والصلاة فلا تجوز الصلاة في غير البيعة أو الدير أو الكنيسة، فلا تصح في بيوتهم ولا في الشارع ولا في مكان العمل،فقد ترك اليهود والنصارى مكان العبادة المخصص لهم في شريعتهم وصلوا عند قبور صلحائهم ، وليس كذلك المسلمون فإنه من خصائص هذه الأمة أن جعل الله لنبيها ولها

الأرض كلها مسجدا وتربتها طهورا، قال صلى الله عليه وسلم :" جعلت لي الأرض مسجدا وتربتها طهورا فحيثما عبد أدركته الصلاة في مكان فليصل فيه".

إذًا يجوز للمسلم أن يصلي في أي مكان في الأرض ، سواء أكان مخصصا للعبادة أم غير مخصص ، فيه قبرٌ أم ليس فيه قبر، المهم أن يكون المكان طاهرا حتى ولو ألجأته ضرورة أن يصلي في داخل كنيسة للنصارى ، لأن عقيدة التوحيد راسخة في وجدان المسلمين فلا تتزلزل بمكان أو مكين فشعار المسلمين إذًا أنَّ " من كان مع الله فلا يشغل بشيء سواه".

ونستدل على ذلك بما كان من أمر الخليفة الملهم العادل سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما دخل الكنيسة ليعقد صلحا للمسلمين مع قائد الروم ، فقد حضرته صلاة الظهر فوقف داخل الكنيسة واستقبل القبلة وأمامه الصلبان المعلقة ، ولكن قلب المسلم الموحد يعيش مع الله وحده في نطاق :**{... فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ...(115)}[البقرة].**

ولكن الخليفة الذكي قبل أن يكبر للصلاة تذكر أنه إن صلى داخل الكنيسة فسوف يأتي المسلمون ويقولون : ما دام صلى عمر في هذا المكان فهو لنا ، وبذلك ينتقض الصلح وتعود المشاكل من جديد.

ولكنه رضي الله عنه خرج إلى باب الكنيسة فصلى الظهر خارجها وأمامه الكنيسة والصلبان وأصحاب الكنيسة . فاتقوا الله يا ذوي الخيالات المريضة واتقوا الله في إسلامكم وفي المسلمين من عباد الرحمن الذين يدعون إلى الله على بصيرة الإيمان من أصحاب الإيمان الراسخ القوي وليس الإسلام الضعيف الهش الذي كأحلام العصافير.

3- إن اليهود والنصارى قد خالفوا أيضا في الجهة – أي القبلة – فإن قبلتهم كانت المسجد الأقصى – فتركوها وتوجهوا في صلاتهم صوب قبور صلحائهم، وليس المسلمون كذلك ، لأن المسلمين يتوجهون إلى الكعبة قبلتهم في الصلاة سواء أكانت في مواجهة القبر أم ليست في جهته ، لأنهم مع القبلة وجودا وعدما.

إذًا اللعن منصب على اليهود والنصارى وليس للمسلمين فيه شيء ، لأن اليهود والنصارى قد خالفوا في ثلاثة أشياء:

1- في العقيدة، حيث سجدوا لمن في القبر أو لصورته المتخيلة من دون الله.

2- في المكان، حيث تركوا مكان العبادة المخصص لهم ، وصلوا عن القبر.

3- في الجهة، حيث تركوا قبلتهم واتجهوا نحو القبر.

والمسلمون لم يخالفوا في العقيدة ولا في القبلة ولا في المكان فجميع الأرض لهم محل سجود كعطاء خاص من الله تعالى.

والخلاصة أن هذا الحديث الشريف ليس فيه أدنى استدلال على ما ذهب إليه المحاربون لوحدة المسلمين والمتهمون لأحباب الله بالخروج عن حدود الشريعة ولكنه " الإسقاط النفسي"، وما الله يريد ظلما للعباد،**{مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ(46)}[فصلت].**

العبـــادة والدعـــــــاء

تشترك العبادة والدعاء في أن كلا منهما : تذلل وخضوع واستكانة لله عز وجل ، بل إن هذا المعنى يظهر بصورة أوضح في الدعاء، ولهذا كان الدعاء أصل العبادة بل روحها.

قال صلى الله عليه وسلم: " الدعاء مخ العبادة".

فالعبادة هي الحكمة الأساسية من إيجاد الإنسان في هذه الحياة.

قال الله تعالى **:{ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ(56)}[الذاريات]** أي ليعرفون.

العبادة الحقيقية : هي الإتيان بشيء من الطاعات والقربات ابتغاء وجه الله تعالى وأملا في مرضاته ، والاعتقاد الجازم بأنه سبحانه المستقل بالنفع والضر، فليس لمخلوق أيا كان من الأمر

شيء وما تشاءون إلا أن يشاء الله ، فما شاءه كان وما لم يشأ لم يكن . كل المخلوقات قهر عظمته:**{... أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ(54)}[الأعراف].**

<u>حكم السجود للمخلوق</u>: لا ينبغي الركوع والسجود إلا لله وحده فهو سبحانه مالك الملك ذو الجلال والإكرام.

ولهذا لا يسمى سجود الملائكة لآدم عليه السلام عبادة ، فالعبادة لا تكون إلا لله وحده . وإنما هو سجود تشريف ، وفي الحقيقة هو سجود للآمر سبحانه دون سواه.

وأما سجود يعقوب وبنيه ليوسف عليه السلام فإنه أيضا لا يسمى عبادة لعدم اعتقادهم في أحقيته ليوسف عليه السلام ، وإنما هو سجود لمن شرعه سبحانه حينذاك.

<u>معنى{...فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا(18)}[الجن] وما شابهها من الآيات.</u>

إن معنى **{...فَلا تَدْعُوا مَعَ اللهِ أَحَدًا(18)}[الجن]** أي ولا تعبدوا مع الله أحدا آخر فلا يستحق العبادة إلا هو ، ولهذا كان أساس الإسلام والإيمان اعتقاد وقول" **لا إله إلا الله** " أي لا معبود بحق إلا الله.

فمعنى " لا تدعوا " في جميع الآيات أي لا تعبدوا : فلا تسجدوا ولا تركعوا ولا تعملوا شيئا من الطاعات لمخلوق معتقدين مشاركته لله.

فهذه الصلاة مثلا تعتبر من أكبر شعائر العبادة ، فإننا لم نر مسلما يصلي ركعتين لمخلوق حيا كان أو ميتا ، مثل : أن يقول : نويت صلاة ركعتين لفلان لأنه أكبر ، حاشا لله . فالعبادة مختصة بالخالق المعبود ، وبالتالي : الدعاء لا يكون إلا لمن يملك كل شيء.

{قُلْ مَنْ بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلا يُجَارُ عَلَيْهِ...(88)}[المؤمنون].

دعاء الخلق لبعضهم:

إن دعاء الأحياء لبعضهم البعض جائز بل يعتبر من الأمور الضرورية لكل واحد في المجتمع المسلم وذلك لمصالح الحياة . وخصوصا دعاء المسلم لأخيه بظهر الغيب فهو دعاء مقبول عند الله ولا يرد ، حتى لو قل صلاح الداعي عن المدعو له ، فقد طلب النبي صلى الله عليه وسلم الدعاء من عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما عزم على أن يؤدي عمرة.

وأما الدعاء عند الأنبياء والأولياء والاستغاثة بهم فإن ذلك من أنواع التوسل وهو جائز عند جمهور العلماء وقد أمر به النبي صلى الله عليه وسلم الأعمى كما رواه عثمان بن حنيف وفعله سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه حينما استسقى بالعباس رضي الله عنه كما في صحيح البخاري والصيغة في الحديثين لم تخل من لفظ " التوسل ".

وفي القرآن الكريم يقول الله عز وجل:

{... وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا(64)}[النساء].

وقد يحدث من بعض العوام أن يدعو الولي ، فيقولوا يا فلان : اعمل كذا وكذا أو عليك بعَدُويَّ فلان فاعمل فيه كذا وكذا فإن اعتقد أن المدعو يستقل بالنفع أو الضر كان ذلك شركا ، ولكنه بحمد الله غير موجود عند أهل القبلة ، وذلك تصديق لخبر الصادق المصدوق صلى الله عليه وسلم الذي يقول فيه:

" والذي نفس محمد بيده إني لا أخاف عليكم أن تشركوا بعدي شيئا ولكن أخوف ما أخاف عليكم أن تبسط عليكم الدنيا فتتنافسوها كما تنافسها من كان قبلكم فتهلككم كما أهلكتهم" رواه البخاري في صحيحه في باب الفتن والملاحم.

نداء المنتقل إلى رحمة الله

إن نداء الميت أو مخاطبته ليس بحرام بل هو جائز وقد يكون واجبا ، فالموت ليس موت فناء للروح بل هو انتقال من حياة الفناء إلى حياة البقاء . فالروح لا تفنى أبدا وهي أساس الإدراك ، بل إنها بعد الموت تكون أكثر شفافية لعدم انشغالها بمطالب الجسد فهي في البرزخ أقوى مما كانت عليه في الدنيا.

وما لنا نذهب بعيدا وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم قد خاطب الموتى من المشركين في بئر القليب ، فقال: يا أبا جهل ، يا عتبة بن ربيعة ، يا وليد.... لقد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ما وعدكم ربكم حقا ؟ فقال عمر رضي الله عنه : يا رسول الله ، أتكلم الجيف البالية والعظام النخرة؟ قال:" ما أنتم بأسمع لي منهم".

وقد علمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نلقي السلام على الأموات حينما نمر بقبورهم: ونقول: السلام عليكم ... إلخ بكاف الخطاب.

هذا ، وقد افترض الإسلام على كل مصل أن ينادي سيدنا محمدا صلى الله عليه وسلم وأن يسلم عليه فيقول: السلام عليك أيها النبي ورحمة الله وبركاته ، وقد شرعت هذه الصيغة من فوق سبع سموات : ليلة العروج إلى السماء.

وبناء على ذلك فالرسول صلى الله عليه وسلم يرد السلام على المسلمين عليه كما صح الحديث الشريف وأجمعت الأمة عليه ، فالكاف للخطاب ، فالمصلي يسلم عليه سلام المخاطب ، فيقول : السلام عليك ، ويعتقد أنه يسمع نداءه صلى الله عليه وآله وسلم ويرد عليه ، قال صلى الله عليه وسلم :" ما من مسلم يسلم علي بعد موتي إلا رد الله عليَّ روحي فأرد عليه السلام".

وبناء على هذا فإن من ادعى أن نداء الميت أو مخاطبته حرام أو شرك : فإن دعواه باطلة من أساسها ولا تقوم على أي دليل ، وما أخطر أن تعلن الأحكام جزافا دونما حياء من الله.

" الشفــاعـــة "

من الألطاف الإلهية والهبات الربانية " الشفاعة " فهي محض فضل من الله تعالى، ورحمة من الرحيم الرحمن ، توضح في جلاء أن الله تعالى أرحم بعبده من الوالدة على ولدها ، وكيف لا ؟!!

ونحن صنعة الله تعالى الذي أحبنا محبة الصانع لصنعته ، فيعاملنا معاملة الحبيب لحبيبه ، وآية ذلك : أنه سبحانه قد امتن على هذه الأمة بالشفاعة بإجماع المسلمين ، حيث إنها ثابتة بالكتاب والسنة الثابتة الصحيحة المتواترة.

ومع ذلك فإنها تُعَارضُ من قبل الخارجين على إجماع المسلمين ، الذين يضللون عباد الله ، بأن الأمور الغيبية التي منها " الشفاعة " : لا تعلم لأحد: ويستدلون على ذلك بقوله تعالى **:{... مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ....(255)[البقرة].**

ويضيفون إلى ذلك قوله سبحانه **:{ يَوْمَئِذٍ لاَّ تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً(109)}[طه].**

وقوله سبحانه **:{ وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ...(23)}[سبأ].**

على أن حديث البخاري في " الشفاعة " صريح فيها وللمؤلف في ذلك باع طويل وسيل جارف ينساب عليلا رقراقا ، ترتوي منه النفوس العطشى ، كما ترتوي الأكباد المتحرقة من ذي الغلة الصادي بماء لسلسبيل.

إنه من المتفق عليه : أن الأمر عنده تبارك وتعالى فله الخلق والأمر ، وأن للأنبياء والرسل عنده سبحانه درجات وجعل أعلاها سبحانه وتعالى : درجة أولي العزم من الرسل ، كما أوضح ذلك لحبيبه صلى الله عليه وسلم ، وأخذ بذلك في محكم آياته بقوله عز من قائل **:{ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ...(35)}[الأحقاف].**

وأولوا العزم من الرسل هم : من كان اختبارهم وتمحيصهم في محن الدنيا من أشد الخلق بلاء مع تحملهم وصبرهم على ذلك فنالوا بها أعلى درجة عند ربهم الكريم الحليم قال الله تعالى مبينا

ذوي الدرجات العليا من أولي العزم وذاكرا له صلى الله عليه وسلم في مقدمتهم مع أنه آخرهم في الوجود وذلك لعلو درجته على الجميع ، فيقول جل شأنه :{**وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا(7)}[الأحزاب].**

وبهذا فقد نالوا درجة التجاء العباد إليهم في شدة الموقف في الآخرة ، ولكن الناس قصدوا آدم عليه السلام لأنه أول البشرية ، فيتنحى منها وعنها بما صدر منه من النسيان فيما أمر به.

ثم نوحا، لأنه أبو البشر الثاني ، وقد سماه ربه عبدا شكورا ، ولانشاء الخلق بعده منه ، كما هو صريح حديث البخاري الذي يرويه في الشفاعة ، فيتنحى نوح عليه السلام لما صدر منه ، ثم يأتون إبراهيم عليه السلام : فيتنحى أيضا لما صدر منه ، ثم يأتون موسى عليه السلام ، لتكليمه ربه جل وعلا ، فيتنحى ويذكر ما صدر منه ، ثم يأتون عيسى عليه السلام فيتنحى ويذكر ما صدر من قومه، ولشبهتهم إليه بالألوهية ، فيأتون حضرته صلى الله عليه وآله وسلم : فيقول : أنا لها أنا لها فيشفع ويشفع.

وهذا الحديث الصحيح هو أكبر دلالة على الخارجين على إجماع المسلمين، الذين يضللون عباد الله تعالى البرآء بأن الأمور الغيبية التي منها شفاعة الشافعين لا تعلم لأحد، ويستدلون بالآيات التي ذكرت آنفا.

مع أن هذا الحديث السابق يقطع ألسنتهم في استدلالهم الكاذب الذي لا يعقلون معناه ، لأن الله تبارك وتعالى أبان لعباده عز وجل على لسان حضرته صلى الله عليه وسلم : أنه قد أذن لحضرته في الشفاعة العظمى بهذا الحديث السابق.

وفي الحديث المتفق عليه المروي عند البخاري ومسلم وجميع أصحاب السنن والمسانيد ، ولفظه الشريف هو :" أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي من الأنبياء، نصرت بالرعب من مسيرة شهر ، وأحلت لي الغنائم ، وجعلت لي الأرض مسجدا وتربتها طهورا ، فأيما امرئ من أمتي أدركته الصلاة فليصلها ، وكان النبي يرسل لقومه خاصة وأرسلت للناس كافة ، وأعطيت الشفاعة العظمى".

فهذا كاف فيردعهم وتبكيتهم لتضليلهم لعباد الله؟!!

وغير ذلك كثير في السنة من شفاعة الشافعين التي يشهد لها ويؤيدها ويقوي صحتها ، ما قصه تبارك وتعالى علينا في محكم التنزيل عن أحوال المجرمين بقوله تعالى:{ **فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَاعَةُ الشَّافِعِينَ(48)}[المدثر]** فيستفاد من هذه الآية أن هناك شفعاء فتنفع شفاعتهم .

وقوله تعالى : **{... وَلا يَشْفَعُونَ إِلاَّ لِمَنِ ارْتَضَى...(28)}[الأنبياء].**

فمن قرأ هذه الآيات والأحاديث الثابتة : لابد أن يرجع وجود الشفاعة معتقدا.

إنــكار الشــفــاعــة:

إن إنكار الشفاعة شيء عجيب وخاصة إذا صدر من رجل يؤمن بالله واليوم الآخر ثم إنها ثابتة بالكتاب والسنة ، فأما ما يثبتها من كتاب الله تعالى فآيات كثيرة منها **:{... مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ ....(255)}[البقرة].**

فالاستفهام هنا في " من ذا " للإنكار والنفي أي لا يشفع عنده أحد إلا بأمره ، وذلك أن المشركين كانوا يزعمون أن الأصنام تشفع لهم ، وقد أخبر الله عنهم بأنهم يقولون **:{ ... مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللهِ زُلْفَى...(3)}[الزمر].** وقولهم (هؤلاء شفعاؤنا عند الله) ثم بين سبحانه أنهم لا يجدون هذا المطلوب ، فقال سبحانه **:{ وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنفَعُهُمْ ...(18)}[يونس]** فأخبر الله تعالى أنه لا شفاعة عنده لأحد إلا من استثناه بقوله سبحانه (إلا بإذنه). ولا يأذن الله لشفاعة في الكفار.

قال القفال الشاشي : إنه تعالى لا يأذن في الشفاعة لغير المطيعين ، لأنه لا يجوز في حكمته التسوية بين أهل الطاعة وأهل المعصية ، ويرد على القفال المعتزلي : إن كان المراد أنه لا يجوز التسوية بين المطيع والعاصي في كل الأمور فالمطيع يكون آمنا من العقاب غالبا لكن المذنب يكون خائفا من العقاب وربما يدخل النار فعلا ويتألم مدة ثم يخلصه الله تعالى من ذلك العذاب بشفاعة الرسول صلى الله عليه وسلم.

{...يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ...(255)}[البقرة] المراد أنه سبحانه عالم بأحوال الشافع والمشفوع له فيما يتعلق باستحقاق العقاب والثواب ، لأنه سبحانه عالم بجميع المعلومات ، لا يخفى عليه خافية والشفعاء لا يعلمون من أنفسهم أن لهم من الطاعة ما يستحقون به هذه المنزلة العظيمة عند الله تعالى ، ولا يعلم المشفوع لهم من الله تعالى هل أذن لهم قي تلك الشفاعة أم أنهم يستحقون المقت والزجر على ذلك ، وهذا يدل على أنه ليس لأحد من الخلائق أن يقدم على الشفاعة إلا بإذن الله تعالى.

من الشفعاء عند الله المأذون لهم فيها؟

الشفعاء المأذون لهم في هذه الآية يحتمل أن يكون هم الملائكة ، وسائر من يشفع يوم القيامة من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين أ هـ من تفسير الفخر الرازي جـ3 ص 544، 445 .

فبالنسبة لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم له شفاعات كثيرة .

منها شفاعته للمصلين عليه بعد الآذان ، فقد روى البخاري أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" من قال حين يسمع النداء – الأذان – اللهم رب هذه الدعوة التامة والصلاة القائمة آت محمدا الوسيلة والفضيلة وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد حلت له – أي وجبت – له شفاعتي يوم القيامة".

وأما الشهيد فهو من استشهد في مقاتلة مع الكافرين لإعلاء كلمة الله تعالى ، وقد ورد أن الشهيد يشفع في سبعين من أهل بيته ، وأما الصِّدِّيق فهو الولي العارف بالله وهو شهيد الجهاد الأكبر فهو يشفع لعدد أكبر من شهيد الجهاد الأصغر السابق.

وأما الصالح فهو يشفع لمن صاحَبَه في الله تعالى ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :" استكثروا من صحبة الإخوان فإن لكل أخ شفاعة".

أدلة الشفاعة القرآنية:

رأينا أن الشفاعة ثابتة بآيات قرآنية ، ففي آية تثبت أنها لمن أذن له الله ، وفي آية أخرى لمن ارتضى الله شفاعته وفي آية ثالثة لمن أذن له وارتضاه.

وحيث إنه سبحانه قد قيدها بالإذن فإن الشفاعات تكون تكريما يكرم الله تعالى بها من يشاء من عباده.

هذا ، وإن الشفاعة الربانية تختلف عن الشفاعة البشرية البحتة لأنه في باب العقوبات قد يشفع وجيه من الوجهاء لدى إنسان فَيُقيلُهُ من ورطته ولكن الشفاعة التي من هذا النوع مستحيلة في حق الله سبحانه ، لأنه سبحانه إذا أراد شيئا نفذه ، فالشفاعة الأخروية أزلية في علم الله القديم.

أدلة الشفاعة من السنة:

إن أدلتها من السنة كثيرة جدا ، فمنها حديث الشفاعة العظمى والمقام المحمود الذي اتفق على روايته البخاري ومسلم ورواه غيرهما وفيه يقول :" يا محمد ارفع رأسك وسل تعط واشفع تشفع". ومنها أيضا :" شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي" روته الترمذي عن سيدنا جابر بن عبد الله رضي الله عنهما ورواه كذلك النسائي وأبو داود وأحمد وابن حبان والحاكم.

وروى ابن ماجه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء والعلماء والشهداء " وقال صلى الله عليه وسلم :" يشفع الشهيد في سبعين من أهل بيته ". وروى الشيخان وغيرهما من حديث طويل منه قوله صلى الله عليه وسلم :"..... ثم يضرب الجسر – الصراط – على جهنم وتحل الشفاعة ويقولون : اللهم سَلِّمْ سَلِّمْ، قيل يا رسول الله وما الجسر؟ قال: دحض مزلة فيه خطاطيف وكلاليب وحسكة يقال لها السعدان فيمر المؤمنون كطرف العين

وكالبرق وكالريح وكالطير وكأجاويد الخيل والركاب ، فناج مسلم ومخدوش مرسل ومكدوس مدفوع في نار جهنم حتى إذا خلص المؤمنون من النار فو الذي نفسي بيده ما من أحد منكم بأشد منا شدة في استقصاء الحق من المؤمنين لله يوم القيامة لإخوانهم الذين هم في النار ، فيقولون ربنا كانوا يصومون معنا ويصلون ويحجون فيقال لهم : أخرجوا من عرفتم فتحرم صورهم ووجوههم على النار فيخرجون خلقا كثيرا ، ومنهم من أخذت النار إلى نصف ساقه وإلى ركبته ، ثم يقولون : ربنا ما بقي فيها أحد ممن أمرتنا به، فيقول:ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه ، فيخرجون خلقا كثيرا ، ثم يقولون : ربنا لم نذر فيها ممن أمرتنا أحدا ، ثم يقول : ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه ، فيخرجون خلقا كثيرا ، ثم يقولون : ربنا لم نر فيها مما أمرتنا به أحدا ثم يقول : ارجعوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه ، فيخرجون خلقا كثيرا ، ثم يقولون : ربنا لم نر فيها خيرا ، وكان أبو سعيد راوي هذا الحديث يقول : إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقرأوا إن شئتم **{إِنَّ اللّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا(40)}[النساء]** فيقول الله تعالى : شَفَعَت الملائكة وشَفَع النبيون وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها أقوام لم يعملوا خيرا قط يعني غير الإيمان قد عادوا حمما فيلقيهم في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة ، فيخرجون كما تخرج الحبة بذور البقل في حميل السيل وما يحمله السيل من الطين ، ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر ويكون إلى الشمس أصيفر وأخيضر وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض ، فقالوا : يا رسول الله كأنك ترعى البادية ؟ قال: فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتيم يعرفهم أهل الجنة هؤلاء عتقاء الله الذين أدخلهم الجنة بغير عمل عملوه ولا خير قدموه ، ثم يقول : ادخلوا الجنة فما رأيتموه فهو لكم ، فيقولون : ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحدا من العالمين، فيقول لكم عندي أفضل من هذا ، فيقول : أحل عليكم رضائي فلا أسخط عليكم بعده أبدا".

الشفاعات التي لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم:

إن هذه الشفاعات تكون في الآخرة ، وهي خمسة أنواع كلها ثابتة لنبينا صلى الله عليه وسلم ، وبعضها خاص به صلى الله عليه وسلم والبعض الآخر ثابتة ولكن يشاركه فيها غيره من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين – كما بينا قبل ذلك – وإن كانت الشفاعات كلها راجعة إلى شفاعته صلى الله عليه وسلم قال القاضي عياض :

الشفاعة الأول : مختصَّة بنبينا صلى الله عليه وسلم وهي : الإراحة من طول الوقوف وتعجيل الحساب لا يقترب إليها غيره وهي الشفاعة العظمى التي لم ينكرها أحد.

الشفاعة الثانية: الشفاعة في إدخال قوم الجنة بغير حساب وهي التي جاء فيها :" فأقول يا رب أمتي أمتي ، فيقال يا محمد أدخل الجنة من أمتك من لا حساب عليه من الباب الأيمن من أبواب الجنة – وهم أيضا شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب".

وحديث دخول قوم الجنة بغير حساب رواه البخاري ومسلم من طرق شهيرة عن النبي صلى الله عليه وسلم في بعضها : يدخل من أمتي الجنة سبعون ألفا بغير حساب . فقال رجل : يا رسول الله : ادع الله أن يجعلني منهم ، فقال : اللهم اجعله منهم – والرجل هو : عكاشة.

وفي حديث آخر ، قالوا: ومن هم يا رسول الله ؟ قال : هم الذين لا يسترقون ولا يتطيرون ولا يكتوون وعلى ربهم يتوكلون.

وفي حديث آخر، " عرضت علي الأمم ، فرأيت النبي ومعه الرهط ، والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي ليس معه أحد ، ورفع لي سواد عظيم وتمنيت أنهم أمتي ، فقيل لي : هذا موسى وقومه عليه السلام ، ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا هو سواد عظيم ، فقيل لي انظر إلى الأفق الآخر فنظرت فإذا سواد عظيم ، فقيل لي هذه أمتك ومعهم سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب.

وفي حديث آخر: وهؤلاء سبعون ألفا قدامهم لا حساب عليهم ولا عذاب .

وفي حديث آخر : يدخل من أمتي زمرة هم سبعون ألفا تضيء وجوههم إضاءة القمر ليلة البدر.

فهذه الأحاديث كلها في الصحيح.

وفي حديث آخر في الصحيح : لا يدخل أولهم حتى يدخل آخرهم – وهو إشارة إلى سعة باب الجنة.

فالخصوصية ثابتة لنبينا صلى الله عليه وسلم في إدخال أول زمرة من أمته الجنة بشفاعته ، فإن شفاعته المذكورة تكون في أول مقام الشفاعة قبل أن تجعل الشفاعة لغيره ويترتب عليها الإذن في إدخال الزمرة المذكورة وهي أول من يدخل الجنة – وهذا المعنى لا يشاركه فيه أحد.

الشفاعة الثالثة: الشفاعة لقوم استوجبوا النار فيشفع فيهم نبينا صلى الله عليه وسلم ومن يشاء الله ، وأشار بذلك إلى حديث أبي سعيد :" ثم يضرب الجسر على جهنم وتحل الشفاعة...إلخ".

الشفاعة الرابعة: فيمن دخل النار من المذنبين ، وقد جاءت الأحاديث الصحيحة بإخراجهم من النار بشفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء والملائكة وإخوانهم من المؤمنين ، ثم يخرج الله تعالى كل من قال : لا إله إلا الله كما جاء في الحديث ولا يبقى فيها إلا الكافرون .وهذه الشفاعة والشفاعة العظمى قد تواترت الأحاديث بهما واختصاصه صلى الله عليه وسلم بالعظمى ، وأما هذه فقد جاء فيها شفاعة الملائكة والنبيين والمؤمنين ، وإن الله تعالى بعد ذلك يخرج برحمته من قال : لا إله إلا الله.

وإذا ثبت ذلك فاختصاصه صلى الله عليه وسلم من هذا النوع بإخراج عموم أمته حتى لا يبقى منهم أحد وهذا هو الموافق لعموم قوله صلى الله عليه وسلم :" شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي".

الشفاعة الخامسة : في زيادة الدرجات في الجنة لأهلها وأن كنا لم نجد في الأحاديث تصريحا بها. وفي كتاب شعب الإيمان لعبد الجليل القصري تفسير للوسيلة التي اختص بها النبي صلى الله عليه وسلم على أنها التوسل وأن النبي صلى الله عليه وسلم يكون في الجنة بمنزلة الوزير من الملك بدون تمثيل فلا يصل إلى أحد شيء إلا بواسطته صلى الله عليه وسلم فهذه أيضا خاصة به . فهذا توضيح الشفاعات الخمس والله الموفق.

تفضُّل الله تعالى على رسوله الشفيع:

لقـد تحـدث الرسـول صـلى الله عليـه وسـلم بفضـل ربـه عليـه :**{ وَأَمَّـا بِنِعْمَـةِ رَبِّـكَ فَحَدِّثْ(11)}[الضحى].**

وذلك لنغترف من هذا الفضل وندرك موقعنا من هذه الملة الحنيفية فنعتز بإسلامنا ونبينا صلى الله عليه وسلم ، ويناجي كل منا ربه بلسان المقال أو بلسان الحال:

" كفاني فخرا أن تكون لي ربا وكفاني عزا أن أكون لك عبدا".

فالحمد لله تعالى أن جعلنا من أهل ملة نبي قال :" أنا أول الناس خروجا إذا بُعِثُوا ، وأنا خطيبهم إذا وفدوا ، وأنا مبشرهم إذا يئسوا ، لواء الحمد بيدي ، وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا فخر" أخرجه الترمذي عن أنس وقال حديث حسن.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال:" أنا حبيب الله ولا فخر" وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر، وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر ، وأول من يحرك حلق الجنة فيفتح الله لي فيدخلني ومعي فقراء المؤمنين ولا فخر، وأن أكرم الأولين والآخرين ولا فخر" أخرجه الترمذي في سننه وقال : حديث صحيح . وعن أنس بن مال رضي الله تعالى عنه قال: سألت النبي صلى الله عليه وسلم أن يشفع لي يوم القيامة ، فقال : أنا فاعل، قال: قلت : يا رسول الله فأين أطلبك. قال : اطلبني أول ما تطلبني على الصراط . قال: قلت: فإن لم ألقك عند الصراط؟ قال: فاطلبني عند الميزان . قلت فإن لم ألقك عند الميزان ؟ قال: فاطلبني عند الحوض، فإني لا أخطئ هذه الثلاث مواطن" أخرجه الترمذي وقال: حديث حسن.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قلت: يا رسول الله، من أسعد الناس بشفاعتك يوم القيامة؟ قال: لقد ظننت يا أبا هريرة أن لا يسألني عن هذا الحديث أحدا أولى منك لما رأيت من حرصك على الحديث." إن أسعد الناس بشفاعتي يوم القيامة ، من قال : لا إله إلا الله خالصا من قبل نفسه" أخرجه البخاري. وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:"يخلص المؤمنون من النار، فيحبسون على قنطرة بين الجنة والنار، فيقتص

لبعضهم من بعض مظالم كانت بينهم في الدنيا ، حتى إذا هذبوا ونقوا أُذِن لهم في دخول الجنة" أخرجه البخاري.

وعن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" يخرج من النار من قال : لا إله إلا الله ، وكان في قلبه من الخير ما يزن شعيرة ، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وكان في قلبه من الخير ما يزن بره ، ثم يخرج من النار من قال: لا إله إلا الله وفي قلبه من الخير ما يزن ذرة: البخاري ، فالأحاديث في الشفاعة وفي فضل نبينا صلى الله عليه وسلم كثيرة ومجموعها يبلغ مبلغ التواتر في المعنى لا في اللفظ الواحد ، وقد تضمنت هذه الأحاديث من المناقب الشريفة والفوائد الجمة ما لا يسعه هذا السفر ولكننا نشير إلى شيء منه على سبيل الاختصار والبركة بالنور المحمدي.

الاستغاثة بأحباب الله تعالى عند الشدائد

مما لا شك فيه أن كل مسلم يعتقد اعتقادا جازما لا شك فيه أن الأصل في الاستعانة والاستغاثة والطلب والنداء والسؤال هو: أن يكون لله سبحانه وتعالى.

فهو المعين والمغيث والمجيب . يقول الله عز وجل:**{ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ...(60)}[غافر].** فمن استعان بمخلوق أو استغاث به أو ناداه أو سأله أو طلبه ، سواء أكان حيا أو ميتا معتقدا أنه لا ينفع ولا يضر بنفسه استقلالا، لكنه مجرد سبب فقط بل الفاعل المؤثر الخالق الرازق المحيي المميت هو " **الله** " وحده فلا شيء عليه ولا إثم.

فالله تعالى قد أجاز للخلق أن يستعين بعضهم ببعض وأن يغيث كل منهم من احتاج إلى الغوث ، والأحاديث على ذلك كثيرة والآيات القرآنية.

فقد قال الله تعالى :**{... وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى...(2)}[المائدة].**

وقال صلى الله عليه وسلم :" من نفَّس عن مؤمن كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ومن يسر على معسر في الدنيا يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ومن ستر

مسلما ستره الله في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه" وقد جعل الرسول صلى الله عليه وسلم من السبعة الذين يستظلون تحت عرش الرحمن من أنظر معسرا ومن أغاث ملهوفا.

وقد كان الصحابة يستغيثون به صلى الله عليه وسلم ويطلبون منه الشفاعة ، ويشكون حالهم إليه من الفقر والمرض والبلاء والدَّيْن والعجز.. ويفزعون إليه عند الشدائد ويطلبون منه ويسألونه معتقدين أنه ليس إلا سببا في النفع والضرر وإن كان الفاعل حقيقة هو" **الله** ".

فهذا قتادة يستغيث به لإصلاح عينه

لقد ثبت أن قتادة بن النعمان أصيبت عينه فسالت حدقته على وجنته فأرادوا أن يقطعوها فقال :لا- حتى أستأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم،فاستأمره – استأذنه – فقال: "لا" ثم وضع راحته على حدقته ثم غمزها فعادت كما كانت فكانت أصح عينيه . رواه البغوي وأبو يعلى وأخرجه الدراقطنى وابن شاهين والبيهقي في دلائل النبوة، ونقله الحافظ ابن حجر في الإصابة جـ 3 ص 225 – والحافظ الهيثمي في مجمع الزوائد جـ4 ص 297 والسيوطي في الخصائص.

الاستغاثة والاستعانة به إلى الله في البلاء:

لقد زادت النصوص الصحيحة وكثرت التي تنطق بأنهم كانوا إذا أصابهم القحط وانقطع عنهم المطر فزعوا إليه صلى الله عليه وسلم مستشفعين متوسلين طالبين مستغيثين به إلى الله فيعرضون حالهم عليه ويتمسكون بأسباب الفرج ويشكون ما نزل بهم من البلاء والشر.

فهذا أعرابي يناديه وهو صلى الله عليه وسلم يخطب يوم الجمعة فيقول:

" يا رسول الله هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله أن يغيثنا فدعا الله وجاء المطر إلى الجمعة الثانية ، فجاء الرجل وقال: يا رسول الله تهدمت البيوت وتقطعت السبل وهلكت المواشي يعني من كثرة المطر فدعا صلى الله عليه وسلم فانجاب السحاب وصار المطر حول المدينة".

رواه البخاري في كتاب الاستسقاء باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء إذا قحطوا.

الاستغاثة جائزة بالحي والميت:

يقول البعض: إن الاستغاثة به صلى الله عليه وسلم وشكوى الحال إليه وطلب الشفاعة ما يكون في هذا الباب إنما يصح في " حياته " أما بعد ط موته " فهو كفر ، وربما تسامح فقال :" غير مشروع" أو قال:"لا يجوز".

فيكون الرد على هؤلاء : إن الاستغاثة به صلى الله عليه وسلم والتوسل إن كان المصحح لطلبها هو "الحياة " كما يقولون فإن الأنبياء والأولياء والشهداء أحياء في قبورهم عند ربهم يرزقون.

فلو لم يكن للمفتي في هذه المسألة إلا الدليل على صحة الاستغاثة والتوسل به صلى الله عليه وسلم بعد وفاته إلا قياسه على التوسل والاستغاثة به في حياته الدنيا لكفى ذلك، لأنه حي في الدارين ، دائم العناية بأمته . متصرف بإذن الله تعالى في شؤونها، خبير بأحوالها ، تعرض عليه صلوات المصلين عليه من أمته ويبلغه سلامهم مع كثرتهم .ومن اتسع علمه بمعرفة المدد والإمداد وشئون الأرواح وما جعلها الله عليه من الخصائص ، لاسيما العالية منها ، فإنه يتسع قلبه للإيمان بذلك ، فكيف به صلى الله عليه وسلم وهو : روح الأرواح ونور الأنوار نبينا صلى الله عليه وسلم.

فلو كان طلب الشفاعة أو الاستغاثة أو التوسل به عليه الصلاة والسلام : شركا أو كفر ، كما توهمه البعض – لما جاز إطلاقا في أي حال من الأحوال : لا في الحياة الدنيا ولا في الحياة الأخرى، لا يوم القيامة ولا قبلها ، فإن الشرك ممقوت عند الله في كل حال.

أمر مستبعد وغريب عقلا وشرعا:

إن اعتبار استغاثة الناس بأحباب الله شرك وكفر أمر بشع ومستقبح وهو عين البدع والزيغ عن الحق لوروده في دنيا الناس عادة وشرعا . وهل يوجد أبشع ممن ينكر أمر يقول به الشرع ويقره العقل وتجنده سنة الكون . إن هذا الإنكار في حقيقته ما هو إلا إنكار للناموس الطبيعي ، والمحور الذي تدور عليه مصالح العباد في هذه الحياة، بل إنه ينكر ما جبلت عليه الفطرة من مبدئها إلى منتهاها . فإن الله عز وجل قد أمرنا أن نتعاون على البر والتقوى ، ووعد من امتثل أمره هذا وعدا يُطْرِبُ الآذان لسماعه ، وتطير القلوب شوقا إليه ، ولا تذكره الجوارح إلا اندفعت إليه اندفاع السهم إلى غرضه ألا وهو تلك القيمة الاجتماعية التي عليها عمران الكون وهي : [التعاون] بوعد كريم من رب كريم وهو : أن يكون الله – بجلاله وقدسيته – في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه.

نعم إن رب الآخرة والأولى مع كل عبد يعين إخوانه ويرعى مصالحهم ويغيث ملهوف ويؤمن حائرهم فالله معه بمعونته ونصرته وتوفيقه وستره فالجزاء من جنس العمل ، وهكذا يتبادل الناس هذا التعاون في ليلهم ونهارهم ، في سرائهم وفي ضرائهم في مسارعة إلى امتثال أمر الشرع الشريف فقد قال صلى الله عليه وسلم :" من سعى في حاجة أخيه قضيت على يديه أم لم تقض كان كمن اعتكف في مسجدي هذا سنتين".

سر الوجود وقطب رحاه تعاون الخلق مع بعضهم البعض:

إن الاستغاثات والإغاثات لو منعت بين الناس لوقفت الحركة وتعطلت مصالح العباد فأصبحنا نرى الناس ينظرون بأعينهم إلى من يراق دمه أو ينهب ماله أو يهتك عرضه فلا يلتفتون إليه إذا كان يحرم الاستغاثة بالآخرين وفي ذلك القضاء النهائي على الإنسانية وتعطيل حركة الوجود.

فأنعم بدين يربط بين أبنائه برباط الإخاء والمحبة والتعاون . قال الله تعالى : **{ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ...(10)}[الحجرات].**

وقال صلى الله عليه وسلم :" المؤمنون كرجل واحد إذا اشتكى عينه اشتكى كله ".

وقال صلى الله عليه وسلم :" مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر ".

فنخلص من ذلك إلى أن الاستغاثة جائزة ولا شيء فيها ، سواء أكانت بحي أم بميت ، لحي أو لميت والاستغاثة للميت جائزة فقد يكون الميت عليه دين أو حرم أحد الورثة من ميراثه أو عليه حج أو زكاة ، فيأتي في الرؤيا مستغيثا بالحي الذي كانت له به صلة أو قرابة – في هيئة من العذاب والنكال – فيخلصه الحي بقضاء دينه أو رد الميراث لمستحقه.

وقد رأينا الصحابي الذي سُرق متاعه بعد استشهاده كيف أتى في الرؤيا لصديقه وطلب معونته له بأخذ متاعه من سارقه وطلب خالد بن الوليد رضي الله عنه أن يساعده في ذلك ووصف المكان الذي فيه متاعه ، وطلب تسديد ديونه بإشراف الخليفة الأول أبي بكر الصديق رضي الله عنه وتم للميت الصحابي الشهيد ما أراد.

نعم ، إن أئمة هذا الدين وهم رجال الصدر الإسلامي الأول قادة الخلق وورثة النبوة قد استغاثوا في عصورهم المتعاقبة برسول الله صلى الله عليه وسلم وبغيره من الأنبياء والصالحين وهم أعلم الناس بالدين وبأسراره ، وما يجيزه وما يمنعه ، وقد نقل إلينا ذلك عنهم . فلنسمع شيئا من ذلك :

روى الطبراني أن سيدنا سواد بن قارب قد أنشد بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم قصيدته التي فيها:

فأشهد أن الله لا رب غيـــــره *** وأنك مأمـــــــــون على كل غائب

وأنك أوفى المرســــلين وسيلة *** إلى الله يا ابن الأمجدين من الأطاليب

فمرنا ما يأتيك يا خير مرســــــل *** وإن كان فيما فيـــــــه شيب الذوائب

وكن لي شفيعا يوم لا ذو شفاعة *** بمغن فتيلا عن ســـــــواد بن قارب

" المدد والإمداد "

مقدمة:

هناك ألفاظ يستعملها السالكون طريق الله من مريدين وشيوخ وأحباب فمنها : النَّفَسَ – الخاطر – الوارد – الشاهد – النفْس – الروح – السر – المدد . فما معنى هذه الاصطلاحات وأثرها في سلوك الطريق؟

1- **النفس**: ترويح القلوب بلطائف الغيوب .

فصاحب الأنفاس: أرقى وأصفى من صاحب الأحوال ، إذ أن صاحب الوقت مبتدئا ، وصاحب الأنفاس منتهيا ، وصاحب الأحوال بينهما ، إذ إن الأوقات لأصحاب القلوب ، والأحوال لأرباب الأرواح ، والأنفاس لأهل السرائر.

فأفضل العبادات : عَدُّ الأنفاس مع الله سبحانه وتعالى .

فقد خلق الله القلوب وجعلها معادن المعرفة ، وخلق الأسرار وراءها – أي بعدها – وجعلها محلا للتوحيد : فكل نَفَس حصل من غير دلالة المعرفة وإشارة التوحيد على بساط الاضطرار فهو ميت وصاحبه مسئول عنه.

وقد قال الأستاذ أبو علي الدقاق : العارف لا يسلم له النفس ، لأنه لا مسامحة تجري معه والمحب لابد له من نفس ، إذ لولا أن يكون له نفس لتلاشى ، لعدم طاقته.

وأنفاس العارفين : إشعاعات مركزة نورانية تنتشر كصدى الصوت لتغطي بلدة بأكملها بجذب قلوب أهلها إلى حنان رب العالمين.

فقد قال أرباب القلوب والأسرار: إذا دخل العارف بالله بلدة وتنفَّس فيها سكن قلب كل مؤمن فيها ، أي اطمأن إلى حنان الله وتذوق نور مولاه ، ولذا لَزِمَت الصحبة لأولياء الله ، لنعيش دائما مع الله.

2- **<u>الخاطر</u>**: خطاب يرد على الضمائر ، وهو موجود لدى كل إنسان لكنه يختلف اختلافا شديدا باختلاف المصدر أو الملقي أو جهاز الإرسال.

<u>الخاطر أربعة أنواع:</u>

1- **الإلهام:** إذا كان مصدره الملك.
2- **الهاجس** : إذا كان مصدره النفس.
3- **الوسواس** : إذا كان مصدره الشيطان.
4- **الحق** : إذا كان مصدره من قِبَل الله.

فإذا كان الخاطر من قبل الملك فإنه يعلم صدقه بموافقة الكتاب والسنة.

وإن كان من قبل الشيطان فأكثره يدعو إلى المعاصي . فليحذر المريد منه.

وإن كان من قبل النفس فأكثره يدعو إلى اتساع شهوة أو استشعار كبر، فليحذر المريد منه .

وإن كان من قبل " الله " فهو ينعش القلب ويقويه على قطع المسافات نحو عالم الملكوت.

<u>خطورة أكل الحرام على الخواطر:</u>

إن من أخطر معوقات السير إلى الله تعالى : أكل الحرام ، لأنه يكبل القلب في قيود الظلمة فيداهمه الوسواس وسوء الظن فييأس من الوصال ويتكبر في الحال هروبا من النقص الباطني ليتخيل أن له كمالا في الظاهر ، فصاحب هذا الحال :لا يفرق بين الإلهام والوسواس ، لأن جهاز الاستقبال اختل ومال.

3- **<u>الوارد</u> :** هو ما يرد على القلوب من الخواطر المحمودة، مما لا يكون بتعمد العبد.

أنواع الوارد : أ – وارد من الحق ب – وارد من العلم.

والواردات أعم من الخواطر ، لأن الخواطر تختص بنوع الخطاب ، أو ما يتضمن معنى الخطاب.

والواردات كثيرة: وارد سرور ، وارد حزن ، وارد بسط ، وارد قبض إلى غير ذلك من المعاني التي ترد على قلب السالك ، وسبحان من يغير ولا يتغير!!

4- **الشاهد** : الحاضر ، الشهود : الحضور – (عالم الغيب والشهادة) أي الحالة الحاضرة .
فالمراد بالشاهد : ما يكون حاضر قلب الإنسان أي ما يغلب عليه ذكره حتى كأنه يراه ويبصره وإن كان غائبا عنه ، فكل ما يستولى على قلب صاحبه ذكره فهو شاهده.

فإن كان الغالب عليه العلم فإنه يشاهد العلم ، وإن كان الغالب عليه الوجد فهو يشاهد الوجد .

ولما سئل الشبلي عن المشاهدة، قال:

من أين لنا مشاهدة الحق؟ الحق لنا شاهد. ما فقد مشاهدة الحق إلا كونه المستولي على قلبه.

والغالب عليه من : ذكر الحق والخاطر في قلبه دائما من ذكر الحق.

فالمحب توجب دوام ذكر المحبوب واستيلائه عليه.

هذا وقيام السالك بأحكام بشريته إما شاهد له ، أو شاهد عليه.

5- **النفْس** : ما كان معلولا – ذا علة وصفة ذميمة – من أوصاف العبد ، ومذموما من أخلاقه وأفعاله.

معلولات النفس نوعان : أ – ما كان كسبا له كمعاصيه ومخالفاته.

ب – ما كان من أخلاقه الدنية الطبيعية فهي في أنفسها مذمومة.

والنوع الأول: ما نهى عنه نهي تحريم أو تنزيه.

النوع الثاني: سفساف الأخلاق والدنيء منها دمثها . والمقصود بها مثل: الكبر – الغضب – الحقد – الحسد وسوء الخلق – قلة الاحتمال – الغرور – الرياء – الظلم – الطمع...

أصعب وأشنع شيء في النفس : هو : توهمها أن شيئا منها حسن ، أو أن لها استحقاقا وقدرا . ولهذا عَدُّوا ذلك من الشرك الخفي.

ومعالجة الأخلاق الدنيئة في : ترك النفس وكسرها ، أكمل من مقاساة الجوع والعطش والسهر.

النفس والروح: النفس: لطيفة مودعة في هذا القالب هي محل الأخلاق المحمودة فتكون الجملة مسخرا بعضها لبعض وكون الروح والنفس من الأجسام اللطيفة في الصورة ، ككون الملائكة والشياطين بصفة اللطائف.

فمحل الأوصاف الحميدة القلب والروح ، ومحل الأوصاف المذمومة النفس.

6- **الروح:** هي : الحياة – عند بعضهم – أو هي : أعيان مودعة في هذه القوالب.

لقد أجرى الله العادة بخلق الحياة في القالب ما دامت الأرواح في الأبدان ، فالإنسان حي بالحياة، ولكن الأرواح مودعة في القوالب ، ولها تَرقٍ في حال النوم ومفارقة للبدن ثم رجوع إليه.

فالإنسان : هو : الروح والجسد ، لأن الله سبحانه وتعالى سخرها في الجملة لبعضها البعض ، والحشر يكون للجملة ، المثاب والمعاقب الجملة ، والأرواح مخلوقة ومن قال بقدمها فهو مخطئ خطأ عظيما ، والأخبار تدل على أنها أعيان لطيفة.

7- **السر**: لطيفة مودعة في القالب كالارواح.

السر: محل المشاهدة، والأرواح محل للمحبة ، والقلوب محل للمعارف.

السر: مالك عليه إشراف ، وسر السر : ما لا اطلاع عليه لغير الحق.

السر : ألطف من الروح والروح أشرف من القلب.

السر : معتق عن رق الأغيار من الآثار والأطلال.

السر:" ما يكون مصونا مكتوما بين العبد والحق سبحانه في الأحوال ، لأن صدور الأحرار قبر الأسرار" 1هـ الرسالة القشيرية جـ 1 ص 241 ، 245.

8- **المدد:** تترد هذه الكلمة كثيرا على ألسنة السالكين جميعا ، ويكثر الاعتراض عليه من الرافضين إلى درجة اللعن والتكفير،

فما معنى المدد في لغة العرب ، وما المعنى المراد لدى السالكين.

المدد في لغة العرب: طلب النصرة والعون والزيادة.

والمدد لدى السالكين له معنيان معنى عام وهو : أن يطلب من شيخه زيادة البركة والرعاية على أنه ممدود من الله لنفسه ولمن حوله.

لأن الشيخ إذا ظهرت عليه بوارق الأنوار وأحاطت به الأسرار مُدَّتْ له طوالع الهنا وتفجر من قلبه وروحه السنا ، فإنه يوليه الله حتى يشرب الراح من نبينا.

وإن كان المدد بمعناه الخاص الذي لأجل الخاصة هو :

نور يسري في القلب فيسير في جنبات النفس يحرق آثار الغفلة والذنوب ويقرب السالك إلى علام الغيوب.

مصدر المدد وكيفية الإمداد

إن المدد من الله جل شأنه في كل أنواعه ولاسيما – مدد النور – أو نور المدد الذي يغمر القلب ويزيل غياهب الران والحجاب فيكون العبد مستغرقا في جمال الله وجلاله . أوَّاها رجَّاعا إلى الله لا يبتغي إلا رضاه.

شعاره ودثاره:

فليتك تحلو والحياة مريـــــرة *** وليتك ترضى والأنام غضـــاب

فيا ليت الذي بيني وبينك عامر *** وبيني وبين العالمين خـــــراب

إذا صحَّ منك الود فالكل هيـــــن *** وكل الذي فوق التراب تـــــراب

فالمعطي هو الله سبحانه لكل شيء يكن فيكون لأن أمره بين الكاف والنون .

والذي يتمكن من استقبال المدد النوراني هو نبي الهدى والنور صلى الله عليه وسلم .

قال صلى الله عليه وسلم :" إنما أنا قاسم والله معطي".

وقال الله سبحانه مخاطبا نبيه سليمان عليه وعلى نبينا السلام :**{ هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ(39)}[ص].**

فقد أعطى الله سبحانه من فضله : التصرف في العطية بما يرى.

وليس معنى ذلك أن الله تعالى قد أشركك معه في الملك؟ لا. لا.

كما أنه سبحانه منذ الخليقة قد أمر الملائكة المقربين ، أن يسجدوا لآدم ، وهم أجساد نورانية أن تسجد لأبي البشر آدم عليه السلام وهو مخلوق من طين ، وعلم آدم الأسماء التي جهلتها الملائكة المقربون :**{ قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُم بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ**

...(33)}[البقرة] وقد قالوا قبل ذلك : **{ قَالُوا سُبْحَانَكَ لا عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(32) }[البقرة]** إنه العطاء الإلهي

فالله تعالى قادر على أن يعلم الملائكة تعليما مباشرا لما يجهلون ولكنه سبحانه أرانا صورة بارزة من صور الأسباب التي يسوقها بعطاء من عنده.

يصر البعض على أنه لا يجوز أن يطلب السالك " المدد " إلا من الله تعالى مباشرة ، ويرمون من خالف ذلك بالشرك والكفر واستفحل أمر هذه الفرية بسبب الأمية القلبية حيث وُجِدَ من بين الناس من هو جهول القلب عليم اللسان.

وانتشر وجود هؤلاء هم وأدعياء الدعوة الذين يتاجرون باسمها ويكفرون مخالفيهم بلا خوف من الله تعالى ولا وجل.

نعم إن العطاء والمدد من الله تعالى ، لكن لابد من الأسباب الموصلة إلى هذا العطاء والله تعالى يكرم البعض بالبعض ليظل عمران الحياة.

قضية التأثير والتأثر

ليس الموت فناء وانتهاء ، لأن الروح لا تفنى ولا تبلى فهي عطاء من أمر ربي، وإنما الموت عبارة عن : خروج الروح من البدن لترجع إلى مكانها الأول في الملأ الأعلى الذي هبطت منه، ودليلنا على ذلك قول الله سبحانه :

{ يَأَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ(27) ارْجِعِي إِلى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً (28) فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي(30)}[الفجر].

فمعنى "ارجعي" أي عودي إلى مكانك الحقيقي في عالم القدس.

إذًا فالموت عبارة عن انتقال من حال إلى حال.

فحياة البرزخ حياة خاصة فيها النعيم لمن رضي الله عنهم، وقد حكى القرآن الكريم عن رجل لقى الله تعالى وأحس بنعيمه في حياته البرزخية أي في القبر – وهو ميت في داخل القبر وأحس أيضا وهو في قبره أن قومه مازالوا كافرين ، فتمنى أن يعلم قومه ما ناله من

خير على يد الكريم المنان ، فأبلغنا الله عنه ، وقال ما تمناه لقومه بعد موته **:{...يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (26) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ(27)}[يس].**

الصلة القائمة بين الأحياء والأموات:

ومن هذه القصة القرآنية يدلنا القرآن الكريم على أن الصلة قائمة بين الأحياء والأموات برغم ما يبدو ظاهرا ممن يناقض ذلك:

وكذلك حكى الله عن إكرامه لذرية الرجل الصالح فقالا معلما لنا أن هذه الصلة بآثارها باقية لم تنقطع ، فقال جل شأنه :{**وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ...(82)}[الكهف]**وتلك دلالة قاطعة على أن الحي ينتفع من صلاح الميت ، وأن بركة الميت تعود على الحي .

فإذا خاطب المريد شيخه على أنه من ذريته الروحية وقال : مدد يا عم . فإنه يطلب أسباب الهداية من السبب الذي أراده الله لهدايته ، كما يقول الولد لأبيه : اكسني أو أطعمني أو اسقني، فهو لا يريد إشراكا بالله ، لأن الكاسي والمطعم هو الله تعالى **:{ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (79)وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ(80)}[الشعراء]** ولكن هذا من باب السبب والله هو المسبب فلا ضير في هذا إطلاقا ولا إشراك فيه ، وإذا كان المؤمنون منذ أن جاءتهم الرسالة المحمدية يقولون في التشهد : " أشهد أن لا إله إلا الله وأن سيدنا محمدا عبده ورسوله" ، وذلك مجاز.

إن هؤلاء يعتقدون في أساس التوحيد الخالص من أنه لا إله إلا الله وسيدنا محمد رسول الله وهم يكررونها في كل أذان للصلاة إعلانا لتوحيدهم .

فكيف يظن بهم غير ذلك ؟ فالله تعالى أمرنا أن نأخذ من الناس ظواهرهم والبواطن عليه سبحانه والحديث الصحيح " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوها عصموا مني دمائهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله ".

فريـــة الأوثــــــان:

يقول هؤلاء المغرورون المارقون : إن المريدين حين يطلبون المدد من شيخهم مثل عبدة الأوثان الذين قال الله فيهم :**{... مَا نَعْبُدُهُمْ إِلاَّ لِيُقَرِّبُونَا إِلى اللهِ زُلْفَى ...(3)}[الزمر].**

مع أن المريدين من أبناء الطريق الصادقين الذاكرين لا يعبدون الأولياء بل إنما يحبونهم ويرجون مددهم أي بركتهم ، وفرق كبير بين العبادة والحب.

أثر أرواح الأولياء في مريديهم أحياء ومنتقلين :

إن المريدين حينما يزورون الأولياء في قبورهم أو في بيوت الأحياء منهم أو ساحاتهم فإنهم يقفون بعقائد راسخة بأن الله هو الذي أماتهم وأقبرهم وهو الذي أمدهم بنورهم هم والأحياء منهم.

ولكنه سبحانه جعلهم في واسع رحمته ورضوانه ، حيث تشرق أرواحهم مما أفاء الله عليها من النور المبين على محبيهم وزائريهم كما يشرق المصباح المنير على نفسه وعلى من حوله.

وإذا كان الله سبحانه وتعالى قد جعل بركة في قميص سيدنا يوسف وهي قطعة قماش حين قال عليه السلام لإخوته :**{ اذْهَبُوا بِقَمِيصِي هَذَا فَأَلْقُوه عَلَى وَجْهِ أَبِي يَأْتِ بَصِيرًا...(93)}[يوسف].**

فكيف تنكر بركة الأرواح على أهل الإيمان والله تعالى يقول في حقهم :

{ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ ...(71)}[الإسراء].

ولقد رأيت في الصحاح أن الإمام المتبوع على الهدى يمد الله في طوله يوم القيامة ستين ذراعا ويتلألأ نورا، فيقول متبوعه ومريدوه :" يا ليت لنا مثل هذا " فينادي ربهم (لكل منكم مثله).

فالحي ينتفع من الميت والميت ينتفع من الحي ، وذلك من باب ارتباط الأسباب بمسبباتها ، والمسبب هو الله تعالى ، والمعطي هو الله تعالى ، سواء أكان العطاء مباشرة أم بالواسطة ، فقد علم الملائكة بواسطة آدم ، وعلم النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة فقال :**{... وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ...(113)}[النساء].**

وعلمنا نحن معشر المؤمنين بواسطة نبينا صلى الله عليه وسلم فقال جل شأنه:**{لَقَدْ مَنَّ اللّهُ عَلَى الْمُؤمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُّبِينٍ(164)}[آل عمران]**سبحانه وتعالى هو الأول والآخر والظاهر والباطن وهو بكل شيء عليم.

فالمدد هو النور الذي أعطاه للولي – المنتقل والحي – وهو من المنتقل : لمعة نورانية يسوقها الله لقلب المحب الزائر ، يستجاب الدعاء من خلالها لأنها تحيي القلب فيستجيب الله الدعاء منه، وأما " المدد " من الولي الحي فهو نور يفتح خطًا روحيا بينه وبين المريد ليهذب له نفسه ويربيها ويرقي له روحه ويزكيها ويصفي قلبه وينقيه فيصبح في عداد عباد الرحمن الذين لا خوف عليه ولا هم يحزنون .

السقي النوراني:

من المسلم به أن الإنسان مادة مشعة ، وأنه لابد للمنسوب الأكثر أن يفيض على المنسوب الأقل من تلك الإشعاعات المتزاحمة التي يفيض بها . إن هذا الإشعاع يأخذ أبعادا ثلاثة:

1- **أشعة نورانية** تتهادى من روح صافية وقلب نقي يزداد بنور الإيمان فإذا ما وجدت قلبا لديه استعداد للتلقي والاستقبال حلت فيه على قدر استعداده.

2- **أشعة سوداء ورمادية** تهبط من روح سقيمة وقلب منكوس مغلف بظلمة المعصية والفسق فتحل في وعاء منسوب الخير فيه أقل من منسوب الظلمة فتزداد الأشعة المظلمة وتخفت صوت الخير بل قد تقضي عليه فيغدو عاصيا متمردا.

3- **أشعة نارية** تنقدح من نفس خبيثة وقلب سقيم تشتعل فيه نار الحسد والحقد فيتجه شعاع ناري منها إلى الشيء فيتلفه أو يَعْطُبُه.

فالأشعة الأولى هي المعنية بالسقي النوراني والمنهج الصوفي الحقيقي الذي على إثره تتبدل الصفات الذميمة بالصفات الحسنة ، وينتقل الإنسان من دائرة الشقاء إلى دائرة السعادة كما سيتضح بعد إن شاء الله ومصدرها الجليس الصالح والعارف الناجح ، وأما الأشعة السوداء أو الرمادية فهي على العكس : تبدل الصلاح إلى فساد والإنسان السوي إلى غر منحرف – وسيأتي تفصيل ذلك إن شاء الله أن مصدرها الفاسق المتمرد.

وأما الأشعة النارية فمصدرها صاحب النفس الخبيثة : الحاسد المعادي لنعم الله فإذا انطلق شعاع منها من العائن فربما أردى المعيون قتيلا أو معطوبا على الأقل ، قال صلى الله عليه وسلم:

" العين تورث البعير القدر والرجل القبر ".

الأشعة المظلمة وأثرها

يحذر الإسلام من رفيق السوء من الجنسين، لأن تأثيره على سلوكيات الإنسان سريع وخطير ، فعدوى الأخلاق أسرع وأقوى تأثيرا من عدوى الأمراض الجسدية فما انحرف

إنسان عن مساره الطبيعي إلا برفيق سوء من رجل أو امرأة ، شاب أو شابة ، ومن أجل ذلك يرغب الإسلام بل يشدد في اختيار الصديق والصاحب بأن يكون مستقيما صالحا ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " خير الأصدقاء من يعينك إذا ذكرت ويذكرك إذا نسيت " وقال صلى الله عليه وسلم :

" مثل الجليس الصالح والجليس السوء كبائع المسك ونافخ الكير".

الإنسان والنزعات الميولية:

إن كل إنسان تتناوشه نزعات للخير وأخرى للشر ، وبذلك يكون عرضة للتصارع والتضارب المستمر بين ميول خير الفضيلة ورغائب الرذيلة ، متأرجحا بين هذه وتلك . حتى يثبت على واحدة منهما ، فإما أن يغلب عليه طابع الخير فيكون قد التزم باب الاستقامة ، وإما أن تغالبه نزعات الشر وهي كثيرة وسهلة على النفس ومحببة ، وأما وسائل تدعيم الخير الإنسانية فنادرة في عصرنا هذا وغير مقنعة لمعظم العقلاء والمتفيقهين إلا لمن وقع في مذاقها فإنه يعتز بأهل النور الإيماني ولا يهمه اعتراض الناس عليه، لأن دليل توفيقه في مسيرته إلى ربه في "قلبه" مذاقا نورانيا يتجدد ويزداد كلما زار شيخه وشرب من نوره ما يحقق زاده إلى ربه ومتعته في وصله ، فمهما اعترض المعترضون عليه فلن يغيروا مسيرة توجهت إلى الله وارتبط بنور النبوة ، فإن هؤلاء السالكين طريق الحق والهدى ينطبق عليهم ما ورد عن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله :" لا تزال طائفة من أمتي قائمة على الحق لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون " . إنهم نصراء دين الله تعالى وهو وليهم بما كانوا يعملون ، بنشر الحب بين الناس، والسكينة والاطمئنان والراحة النفسية فتتعلق قلوب السعداء بهم.

علاج القلق النفسي وأمراض العصر:

لقد انتشر القلق والحيرة ، واضطراب المسيرة النفسية لدى الإنسان المعاصر مع مواكبة الترف المعيشي والحياة المطورة التي زخرفتها المدنية الحديثة والتفوق العلمي العالمي فخسر الإنسان راحته النفسية والقلبية ، وتناوشته أمراض مستحدثة لم يكن ليسمع بها هو وأسلافه وذلك بسبب الغفلة عن ذكر الله والابتعاد عن رجال الله الذين يحققون التوازن النفسي للإنسان ، ويعملون على تنفيذ المعادلة بين مطالب الجسد ومطالب الروح.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في إجابته على من سأله في آية:**{فَمَن يُرِدِ اللّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلاَمِ...(125)}[الأنعام]** حينما قال : ما معنى الشرح يا رسول الله ؟ قال صلى الله عليه وسلم :" الشرح نور يقذفه الله تعالى في القلب".

ذلك النور هو العلاج لأمراض العصر ، وللقلق النفسي والاضطرابات والحيرة.

قال الله تعالى :**{ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللهِ ألا بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ(28)}[الرعد].**

فالعلاج الحقيقي لأدواء المعاصي والعلل النفسية والقطعية عن الله إنما تكون : بهدى شيخ عارف بالله تتقاطر روحه نورا محمديا على مريديه ومحبيه وهو في الواقع طبيب ماهر يجري العمليات الربانية لأهل الران والقلوب الغلف حتى يتمزق الران والأغلفة ، وبذلك يصرف له الدواء الناجع الذي يقضي تماما على جذور الداء ويربط قلبه بالسماء فيعيش ما بقي من عمره في حب وسمو وصفاء وفي عافية شمولية يشعر خلالها بالسعادة الأبدية والعافية الجسمانية وذلك الدواء في التوبة والذكر الكثير.

حاجة الناس إلى نور الأولياء ومددهم:

يعيش الناس الآن عصر المتناقضات ، وكما يقال : اختلط الحابل فيه بالنابل، وتغيرت بنية المجتمع الإنساني سلوكيا واقتصاديا واجتماعيا.

فلا باعث على حركة الإنسان الآن إلا : المال والجاه والشهوة: هذا الثالوث الخطير قَوَّضَ ما بقي لدى الأمة من مبادئ ومثل ومشاعر إنسانية خيرة.

حتى تنكرت الحياة للأحياء واستفحل الداء وعز الدواء ولم يبق إلا لطف الله متمثلا في أحبابه الأولياء الذين يمثلون دائرة الأمل في الله والرجاء.

إنهم يوجدون في كل زمان ومكان . كجبال راسيات تحفظ للأرض توازنها وللنفوس بهجتها وكيانها وللقلوب صفاؤها وعزتها . إنهم سفينة النجاة إذا أدْلَهَمَّ الخطب وعَظُم البلاء ، وتهددت اليابسة بطوفان جديد ، فهم نعم السفينة التي ليس القائد لنجاتها نوحا عليه السلام بل هو نبينا خير الأنام.

روى الحاكم والبزار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" مثل أهل بيتي مثل سفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق".

فمن نظر إلى ما نحن عليه الآن كأمة إسلامية : بكى وإلى ربه اشتكى من نضوب معين الإيمان، وانتشار خراب الذمم في كل مكان ، وقول الحرام وفعل الحرام والكسب الحرام والتفكير في الحرام يسيطر على حركة الإنسان.

والكلام كثير والعمل قليل والإخلاص أقل وأندر من الندرة ، وحفظ النصوص لا يغني اللصوص ، ولقد سيطرت الأهواء وشح الإنسان على أخيه الإنسان بكل شيء ودَاخَلَ الناسَ العجبُ والغرور والرياء والوسواس و.....و.. .

إذًا لابد من العودة إلى الله تعالى ، والسير على منهج الأولياء والصالحين ، وعلى كل مسلم يهمه رضاء الله عليه وتهمه الأمة الإسلامية فعليه أن يبحث عن هؤلاء القوم ، وأن يكون من

أحبابهم وتلامذتهم ، بل يجب ذلك على كل مسلم ويتعين عليه لأنه من الضروريات ليتخلق بأخلاقهم ، ويتأدب بآدابهم ويعامل ربه معاملة إخلاص وحب ووفاء.

فلقد حث الشرع الكريم على إزالة أمراض الباطن ، ووردت بذلك الآيات والأحاديث، لأنه لم يسلم من هذه الأمراض إلا من رزقه الله السلامة في الدين كالأئمة المجتهدين الذين عملوا بما علموه على وجه الإخلاص، إذ أن هؤلاء القوم قد تواصوا فيما بينهم وتبايعوا على العودة الكاملة إلى الله تعالى . ولقن العارفون بالله منهم الآخرين لا إله إلا الله . وتوارثوا هذه البيعة جيلا بعد جيل وذلك من عهد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى الآن – كما سيأتي – فكانت خلافة الدعوة الصادقة إلى الله تعالى بأن يظهر في كل عصر من يجددها بخوارق العادات امتدادا للمعجزات التي كانت تظهر على سيد السادات سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ليعلم الناس أنهم مؤيدون من الله تعالى فيتبعوهم في الهداية إلى الله سبحانه ، حيث كانت – وما زالت – تظهر على أيديهم الكرامات كرما منه سبحانه لتلفت القلوب إليهم وتجتمع عليهم الناس الذين يريدون وجه الله والدار الآخرة.

طبقـــات الأوليـــــاء:

إن طبقات الأولياء مشحونة بأعمالهم النورانية التي كم هَدَتْ من عُصاة، وكم أصلحت نفوسا آبقة فهرعت إلى الله ، وكم أسعدت ألوفا من أهل الشقاء فارتاحوا وزال العناء، وكم مسحوا بحنانهم المحمدي دموع البؤساء ، فلله دَرُّهُمْ من رجال هم – حقيقة – أولياء!!.

أولئك مصابيح الهدى وكواكب الإخلاص ، وشموس اليقين ، حيث يسطع نورهم في كل عصر.

- **ولو كان هذا العصر – فما بعد العسر إلا اليسر.**

فسبحان من بيده الخلق والأمر، والنفع والضر ، وأعطى أولياءه المدد والسر. وأمدهم بالمناقب العالية والكرامات الظاهرة ، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

" يبعث الله على رأس كل مائة سنة رجلا من أهل بيتي . يجدد لها أمر دينها " رواه الإمام أحمد.

فمن نهج منهجهم – وما هو إلا منهج الشرع الشريف – وتأدب بآدابهم – وما هي إلا آداب النبي صلى الله عليه وسلم ، وتعلم من علمهم – وما هو إلا ما علمه الله لهم – فاز بالرضا وحسن الختام.

" الإلهـــــــــــــام "

الإلهام: عبارة عن نفث في الروح بوحي من الله تعالى في القلب بنور المعرفة والهداية إلى الصواب ليثمر علما لَدُنِّيًّا من علم الله تعالى.

والعلم اللدني: هو الذي لا واسطة في حصوله بين الروح وبين الله تعالى.

قال الله تعالى:**{... وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (65)}[الكهف]** " من لدنا " أي بدون واسطة.

بل يكون هذا العلم كالضوء من النار يفرغه الله على قلب صاف فارغ من : الأغيار ، ومن هوى النفس ، ومن حب الدنيا بمالها وجاهها ومتاعها ، ومن الأمراض القلبية التي تحجب العبد عن ربه، إذ تهبط الأنوار على قلب لطيف تشغله بخط الأنوار الأحدية والتجليات الصمدانية ، فيكون واسطة العبد بربه ، فلا ينطق إلا حقا ، ولا يقول إلا ما يريده الله تعالى.

وقد قال شيخنا سيدي أبو خليل رضي الله عنه:" لا يأتي من الذكر غير الحق لأن القلب الصافي المشغول بالله يذكر الحق ولا يقول إلا حقا".

وقال الله تعالى :**{... وَاتَّقُوا اللهَ وَيُعَلِّمَكُمُ اللهُ وَاللهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ(282)}[البقرة].**

وقال الله سبحانه :**{ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ...(269)}[البقرة].**

العلم اللدني والأنبياء:

قال الله تعالى **:{ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ...(31)}[البقرة]**، فإنه يعلم من ذلك أن علم آدم عليه السلام كان :"**علما لدنيا**" فليس بتعليم ملك بل هو علم موهوب ، لأنه تعالى قال: " ثم عرضهم على الملائكة".

وعلم الأنبياء نوعان:

1- علم موروث من آدم عليه السلام.
2- علم موهوب لهم يختصون به بواسطة أو بغير واسطة ، فبواسطة كالوحي بواسطة الملك ، وبغير واسطة كالوحي في الروع.

كما أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث للأمة بالنور الموروث والموهوب له خاصة.

الغزالي والعلم اللدني:

قال الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي: العلم اللدني يكون لأهل النبوة والولاية كما حدث للخضر عليه السلام ، فقد قال سبحانه **:{... وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا (65)}[الكهف]** أي الخضر عليه السلام.

والوحي بالملك: قد انقطع بكمال النبوة وتمام الرسالة وكمال الدين قال الله تعالى **:{... الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا...(3)}[المائدة].**

الإلهـــــام والمـــــــدد:

وإن كان الوحي بملك للتشريع قد انتهى بكمال الدين وتمامه إلا أن النفوس في حاجة ضرورية إلى ما يقوي النفوس ويأخذ بيدها إلى حيث التذكير الدائم وتجديد الروح الإسلامية على الدوام ولضمان النمو القلبي والروحي مع النمو الجسدي المادي لإيجاد التوازن النفسي والعقدي والمعرفي دائما.

وهذا ما جعل باب " **الإلهام** " مفتوحا ،ومدد نور النبوة لا ينقطع رحمة منه سبحانه وتعالى بهذه الأمة لكيلا تستغرق النفوس في الغيبوبة الروحية بل لتنشط القلوب والمهج مع الله سبحانه فتنقضي الوساوس وتذوب الرغبة في الشهوات ، ولتظهر ينابيع الحكمة في الروح وتأثير المؤثر عليها ، ولأجل النظر في إبداع الصنع والتفكر في مخلوقات الله.

الإلهام والمد الخليلي:

حينما يتحدث: قاص أو شاعر أو روائي أو كاتب فمن حقه أن يميل صوب الخيال ، والخيال المجنح.

لكن حينما يتحدث سالك إلى الله عن رجال الله ، فالموقف يختلف تماما ، إذ لابد من النزوع إلى الحقائق المجردة بحيث لا يعرف الاختراع والخيال بل والمبالغات في سرد الحقائق سبيلا إلى قلبه فضلا عن قلمه.

فإن القضية تصبح مقامرة بـ " الدين " وعقوبتها : سوء الخاتمة بالموت على غير دين الإسلام والعياذ بالله تعالى ، لأن من ادعى فتحا ولم يفتح عليه حرم منه وقد يحرم كل شيء.

إن الإلهام فتح من الله تعالى على يد شيخ "واصل مُوَصِّل " بل: جيد التوصيل وهو : عبارة عن نور يلمع في قلب الذاكر المؤمن النقي السريرة المحب لله وأحبابه والذي أسلم قياده لخالقه، وامتزجت روحه بروح شيخه امتزاج الفرع بأصله، فشرب من راحه بقدر استعداده وما يحفظ عليه الأدب مع شيخه وربه فلما اشتاق إلى الله انجذب قلبه إليه فقذف الله في قلبه من نور المعرفة وألهمه الصواب وأزاح عن قلبه الران فرأى شيخه يلقنه ويرويه ومن مداد الحب يسقيه ، فصدع بالإلهام ليوقظ النوام.

<u>إن المد الخليلي:</u>

نفحة ربانية في عالم الولاية والتصوف وقد وجد كآية من آيات الله تعالى منذ أكثر من قرن من الزمان ، وعن هذا الفتح الرباني حدث ولا حرج فهو من محض فيض فضل الله تعالى ، وهو قبسة من نور سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهو الآن – على مشارف الألفية الثالثة – بأكثر مما كان نظر للكثرة العددية تعداد عاما وخاصا ونسأل الله أن يزيد إخواننا في الله فتوحا وأن يجنبهم الأغيار، وأن يحفظهم من غيرة الأشرار.

<u>الحركة الديناميكية للإلهام:</u>

تصاغ حركة البث الإلهامي عن طريق الاتصال بين جهازين : جهاز إرسال " الشيخ ، جهاز استقبال "المريد الملهم".

<u>المادة أو المحصلة الإلهامية:</u>

1- شعر قد يكون فصيحا موزونا ومقفى ، وقد يكون مزيجا من الفصحى والدارجة من القصيد أو الشعر المرسل وذلك ارتجالا سريعا بلا تحضير أو تفكير أو مطالعة كتب يتناول هذا الشعر : التوحيد الخالص بأسلوب نوراني يؤثر في الأرواح تأثيرا كليا فتسري فيها عوامل الحب ويورثها أنسا وجمالا روحيا لم يعهد له نظير من قبل وكأن الشيخ رضي الله عنه ينتهزها فرصة فينقش في الأرواح والقلوب ما شاء الله من ترقية بسر يُدَارُ في وضح النهار في ستر كلام من الواحد القهار – وقد يكون الملهم أميا أو شبه أمي والمهم أنه غير متخصص في معرفة شيء من الشعر ، ولكن إذا فتح الفتاح وبدأ من أول الليل – وترك – فإنه يظل حتى الصباح فلله الفضل والمنة.

وفي هذه الفرائد النورانية ما يكون تفسيرا لبعض آيات القرآن وشرحا للأحاديث المتصلة بموضوع الإلهام الذي يحلق بالسامعين في عالم الملكوت.

والقرينة الدالة على أنه إلهام أنه قد يَرُدُّ على الخواطر بنفس القافية التي صيغ عليها الإلهام حتى ولو كان صاحب الخاطر يجلس بعيدا عنه أو خلفه وقد يبشر الحاضرين بأشياء ينتظرونها ولا يعرفها إلا الله وذلك تشجيعا لهم على كثرة الذكر ولهداية العاصي- الذي جلس لأول مرة – إلى الله وفيه دعوة وإرشاد من مستوى رفيع يعج بالأنوار والنفحات.

وقد يتكلم الملهمون في مدح المصطفى صلى الله عليه وسلم بروح تظهر عليها ملامح الدهشة في الحضرة النبوية فيتكلم بلسان الحاضر مع المصطفى صلى الله عليه وسلم فيجذب له الناس على اختلاف مشاربهم وثقافاتهم ليسمعوه ولينهلوا من رحيق العلم اللدني الذي يغسل القلوب من أدرانها وقد يكون ذلك سببا في هداية كثير من الخلق إلى الله تعالى.

المزية لا تقتضي الأفضلية في المريدين:

إن بعض السالكين قد يأتي الشيطان ويشككهم في سلوكهم وأنهم لن يصلوا إلى شيء في الطريق ما داموا لم يلهموا ولم يعرفوا العلم اللدني كبعض إخوانهم.

إن هذا الفهم خطأ كبير ، لأن أكبر كرامة هي الاستقامة ، فما دمت تسير على النهج وتترك المعاصي وتكثر من الذكر والصلاة على خير الأنام صلى الله عليه وسلم وتزور شيخك محبة في الله وقلبك صاف مع إخوانك وأهلك فأنت ناجح في الطريق وما عليك بعد ذلك أن تلهم أو لا تلهم ، فمن الخطأ الجسيم أن ينخرط إنسان في الطريق لِيُلْهم أو أن يذكر الله ليكون وليا أو ليرى رؤيا مبشرة أو ليعرفه الناس ويلتفوا حوله أو ...إلخ.

إن هذا كله خطأ فعلى السالك طريق الحق أن يعرف الحق فقط ليعرف رجاله وأن يكون هدفه : رضاء الله جل شأنه وحبه والموت على الإسلام ومرافقة النبي صلى الله عليه وسلم في الجنة مع آله الأطهار ومن كان سببا في الأنوار من مشايخه الأبرار. فقد يوفق الله الشيخ لاختيار بعض المريدين للإلهام ، فيسقيهم من روح الفتح المحمدي ما يريد توصيله إلى المريدين ، فإن اغتر أحدهم وظن ان هذا عطاء خاصا به فإنه يسلب منه وكذلك إن استغله لمنافع مادية خاصة به فإنه ينقطع عنه المدد وقد يطرد من الطريق . وربما يقول قائل : كيف يسلب هذا العطاء ومن المعروف أن الله تعالى إذا أعطى لا يسلب عطاؤه؟

نعم لا يسلب عطاءه لأن هذا العطاء هو عطاء للشيخ فهو من الله تعالى بسريان روح الشيخ المشرقة في روح المريد بخط النور المحمدي ويزيد دائما مع زيادة المريدين ، ولكن المريد الملهم أخذ من عطاء الشيخ بَعْضًا لمصلحة نشر طريق الله وتثبيت المريدين على النهج وغسل القلوب وترقية أرواحهم عن طريق خط التشغيل الواصل بين الشيخ والمريد الذي كلما جرد قلبه

من الأغيار وعرف من الذي يلقن روحه ، اتضح الإلهام وبرق لمعانه والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وبعد:

فقد اتضح الحق وبدرت بوادره، وكثرت جنوده وعساكره فالله مؤيده والله ناصره.

فما أجمل الصلة بالله تعالى!! وما أعذب الحب في الله !! وما أروع حب رسول الله وآله وعترته الأطهار.

إنها جنة الوصول – ذات أشجار فينانة وأغصان بالأنوار مزدانة:

{ فَمَن يُرِدِ اللّهُ أن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ وَمَن يُرِدْ أن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيقًا حَرَجًا...(125)}[الأنعام] فالسعيد من عرف الله ولاذ بحماه ، والشقي من غفل عن الإله فتاه واحتار فَضَلّ عن مسعاه .وكل شيء في الكون قلاه وما ظلمهم الله.

اللهم لا تحرمنا من : " لا إله إلا الله " وحققنا بنور سيدنا رسول الله وسيلتنا إليك يا الله وشفيعنا أمامك يا من لا عين تراه.

والله أسأل أن يأخذ بيدنا دائما كي نتأدب مع الله ، ولنعيش في كنف سيدنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأن يحفظ بلادنا من الفتن ما ظهر منها وما بطن – إنه سميع الدعاء سخي العطاء.

آمين

المراجع

1- القرآن الكريم.

2- تفسير ابن كثير.

3- تفسير الفخر الرازي.

4- تفسير الآلوسي.

5- تفسير البغوي.

6- تفسير الجلالين.

7- تفسير النسفي.

8- تفسير الكشاف.

9- تفسير الخازن جمال الدين الأفريقي.

10-تفسير فريد وجدي.

11- تفسير فريد النيسابوري.

12- الترمذي في التفسير جـ9.

13- تفسير فتح القدير جـ4.

14- صحيح البخاري.

15- صحيح مسلم.

16- صحيح الترمذي.

17- مسند الترمذي (باب الزهد).

18- اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان.

19- مسند الإمام أحمد.

20- سنن ابن ماجه.

21- مسند البزار.

22- الاستيعاب لابن عبد البر.

23- روضة الطالبين.

24- مجمع الزوائد لابن حجر الهيثمي.
25- القاموس المحيط جـ3، لسان العرب.
26- مقدمة الفتوحات الإلهية لابن عجيبة.
27- أوراق مطوية في التصوف والصوفية جـ1،د.محمد حسين الغزالي.
28- طريق الله تعالى،جـ1 لفضيلة العارف بالله الشيخ أحمد الشافعي أبو خليل.
29- المنقذ من الضلال لأبي حامد الغزالي ، تحقيق د. عبد الحليم محمود.
30- الملل والنحل لعبد الكريم الشهرستاني.
31- طريق الله تعالى ،جـ2 لفضيلة العارف بالله الشيخ أحمد الشافعي أو خليل.
32- الرسالة القشيرية للإمام القشيري.
33- الإنسان الكامل للعلامة عبد الكريم الجيلي.
34- خصائص النبي صلى الله عليه وسلم للمحب المكي.
35- قواعد التصوف للشيخ الفاسي.
36- تأييد الحقيقة العلية للسيوطي.
37- غوارف المعارف جـ1 للسهرودي.
38- شفاء السقام في زيارة خير الأنام.
39- الشفا في أحوال المصطفى صلى الله عليه وسلم للقاضي عياض.
40- شواهد الحق للنبهاني.
41- الإيمان والإسلام، د. عبد الحليم محمود.
42- الصواعق لابن حجر.
43- المناقب لابن المغازلي.
44- المناقب الخليلية لمحمد لطفي خشبة.
45- السيرة الخليلية للشيخ عبد السلام الحلواني.
46- العقد الفريد لابن عبد ربه.

47- الحلية لأبي نعيم الأصفهاني.
48- شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد.
49- أسد الغابة لابن الأثير.
50- الدر المنثور للسيوطي.
51- إيقاظ الهمم لابن عجيبة.
52- الخطط للمقريزي.
53- تذكرة الأنطاكي جـ2.
54- الهوامل والشوامل لأبي حيان وابن مسكويه.
55- الروح لابن القيم.
56- الكشكول للبيهقي.
57- تهذيب الأخلاق لابن مسكويه.
58- شجرة الكون لابن عربي.
59- رجال حول الرسول صلى الله عليه وسلم لعبد الرزاق نوفل.
60- تمييز الطيب من الخبيث لابن الدبيع الشيباني.
61- الخصائص الكبرى للإمام جلال الدين السيوطي جـ1.
62- المواهب اللدنية للقسطلاني جـ1.
63- الوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزي جـ 1.
64- الأمالي لأبي سهل القطان.
65- الإنسان الكامل لمحيي الدين بن العربي.
66- الرد المحكم المنيع، أ. يوسف الرفاعي.
67- الحكم لابن عطاء الله السكندري.
68- الحب في القرآن الكريم ، د. محمود بن الشريف.
69- الروض الأنف للسهيلي، جـ2.

70- إحياء علوم الدين للإمام الغزالي.

71- إشراقات في طريق الله تعالى لفضيلة العارف بالله الشيخ صالح أحمد الشافعي أبو خليل.